ربي،

كيف عصيتك؟!

الجزء الثاني: تعرف على الخالق، وعلى كل طرف في القضية

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

كتابة:

الأخ/ عبد السِتِّير

ربي، كيف عصيتك؟!

الجزء الثاني: تعرف على الخالق، وعلى كل طرف في القضية

كتابة: الأخ/ عبد السِتّير

التدقيق اللغوي: هشام عبده الروبي؛ عبد الرحمن غريب علي.

مراجعة: الشيخ/ خ.

عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

الكتاب يجوز مشاركته أو نسخه لمنفعة المسلمين بالعلم، ولكن ليس للتربح الشخصي. إذا أراد أحد تنقيته أو تلخيصه وإعادة نشره فلا مانع عندي ولكن ليتق الله.

فهرس الجزء الثاني

فهرس الجزء الثاني.....2
2. تَعَرَّف على الخالق، وعلى كل طرفٍ في القضية 3
تعرَّف على الله، من هو؟.....3
تعرَّف على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ماذا قدَّم، وماذا فُعل به، وماذا سيفعله يوم القيامة لنا 55
تعرَّف على نهج الصحابة والتابعين، كيف كان حالهم 94
تعرَّف على شياطين الجن، ما غايتهم وما يحدث في نهاية المطاف معهم؟.....108
تعرّف على شياطين الإنس: صاحب السوء، وما عواقب ملازمته أو اتباعه.....120
تعرَّف على نفسك وانظر إليها بموضوعية، ثم احكم عليها بإنصاف 121
تعرَّف على معنى الحياة وخلاصة الدنيا.....127

2. تَعَرَّف على الخالق، وعلى كل طرفٍ في القضية

تعرَّف على الله، من هو؟

هناك مشكلة، تكمن في أن كثيرًا من الناس لا يعلمون تفاصيل عن الله فلا يستوعبون من هو الله، ولا أقصد بمعنى أنه الإله الرب الخالق وحده لا شريك له، ولكني أقصد من هو الله بصفاته وما يُقدِّمه لنا. توضيحًا، فإن المرء قد يرى أحدًا لا يعرفه قد أصابته محنة، فيتأثر قليلًا أو قد لا يتأثر حتى، ولكن عندما تصيب تلك المحنة شخصًا يعرفه ويعرف طباعه وأحواله الشخصية (وإن لم يكن يُحبه) وكان بينهما قَرابة أو تعاملات، فإنه يتأثر أكثر. وكذلك الحال بين المرء وربه، فكثيرًا ما تكون المشكلة أن العبد لا يعرف صفات ربه ولا نِعمه عليه، فيكون الله غريبًا عنه، وتكون العلاقة جافة من العبد.

أما إذا تعرَّف العبد إلى ربه فإنه يُدرك من هو الله، وماذا وهب له، ومدى إحسانه إليه، وكيف يظل يُسدل عليه نعمه، وكيف يَصبر عليه إذا عصاه، بل ويستره بالرغم من معصية العبد لربه والله غير مُلزَمٍ بهذا. حينئذ تصبح العلاقة وطيدة، فيها أُلفة وامتنان، فيُحسن العبد في طاعة ربه ويَكره أن يُغضبه تعالى أو يخذله بالمعاصي لأنه يحب ربه، وذلك لأنه تعَّرف إلى ربه وأصبحت هناك صلة.

قد قال السلف الصالح (رحمهم الله): مَنْ كَانَ بِاللَّهِ أَعْرَفَ، كَانَ مِنَ اللَّهِ أَخْوَفَ. فهذه نصيحة غالية للإقلاع عن المعاصي، وذلك بتعلم العلم والتعرف على أسماء الله بما يحملونه من معانٍ. فالعلم يزيد العبد معرفةً بربه، ومن ازدادت معرفته بربه ازداد عنده حبه ووفائه وامتنانه وحياؤه وخشيته ولجوؤه إلى الله، وبذلك يكون أتقى لله وأبعد عن معصيته. فكيف يخشى الإنسان من أحدٍ لا يعرف عنه شيئًا؟ كيف يشعر العبد بالصلة مع من هو غريبٌ عنه؟ وفي القرآن دليل على أن قلة المعرفة بالله تُذهب بتعظيمه في القلب، وذلك في قول الله تعالى {لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ} [الحشر 13]، وذلك لأن هؤلاء قد كفروا بالله فلا يعون عنه شيئًا سبحانه وتعالى، ولكنهم عرفوا بطش المؤمنين فخافوا من المؤمنين أكثر من الله في الدنيا. فهلم بنا نتعرف على ربنا أكثر:

هو الذي خلقني بنفسه ونفخ فيَّ من روحه. يُعرِّفنا الله أنه خلقنا بيديه في قوله {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ} [ص 75]، وأنه أحياني بأن نفخ فيَّ

من روحه تعالى {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ (71) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [ص 71–72]، فيتبين لنا بذلك مكانة الإنسان عند الله. وفي آخر آيتين مسألتان أردت إبرازهما، أولاهما كيفية خلق الله الإنسان، أنه تعالى خلق سيدنا آدم بنفسه، فأوجد الطين ثم سواه ثم نفخ فيه من روحه المُقدّسة.

هذا أصل الإنسان، والبيان القرآني لخلق الإنسان غاية في الجمال، وبيان أصل الإنسان للإنسان أدعى أن يُخضع المخلوق لخالقه، لأنه يُدرك جزءًا من مدى نعمة الله عليه فيكون ممتنًا له، وهذا ما دل عليه دعاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند سجوده "اللَّهُمَّ لَكَ سَجَدْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، سَجَدَ وَجْهِي لِلَّذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ، تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ"[1]. والمفترض أن الإنسان يتواضع لله بذلك، وبئس من لم يتواضع، فقد هلك، ومن التواضع أن يطيع المخلوق خالقه ولا يعصيه ولا يُغضبه منه، فوجب علينا الاجتهاد في ذلك.

والمسألة الأخرى بيان منزلة الإنسان عند ربه وكيف كرّمه وأعلى قدره عن سائر مخلوقاته، فهل يليق بمن أعلاه الله لتلك المنزلة أن يُذل نفسه بمعصية الله؟ وهل من الوفاء لمن بلغ تلك المنزلة أن يخذل الله فيه بأن يختار أن يكون أسوأ ممن رفعه الله عليهم؟

هو الذي هيأ الكون بحيث لا أهلك فيه، بل وسخَّر جوانب منه لخدمتي. قال تعالى {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} [غافر 61]. هذه الآية تدل على أن الله خلق أشياء كثيرة مخصصة للإنسان، منهم الشمس والقمر، فيأتيان ويذهبان حتى يتبدل الليل والنهار {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [إبراهيم 33]. وهذا التبادل يتم باستمرار وتدريجيًّا كي لا تضطرب أبصارنا وأجسادنا بظهور الشمس في لمحة بصر أو حلول ظلام الليل فجأة.

وكذلك سخر الله لنا الأرض وما عليها حتى نستطيع أن نعيش عليها {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحج 65]. بل وسخر لنا البحر لنصطاد منه طعامًا شهيًّا ولنتنقل عليه بالمراكب {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} [النحل 14].

[1] صحيح مسلم 1290.

وكذلك الدواب، فما كنا لنستطيع ركوبها إذا أبت (مثل الحصان الذي هو أقوى وأسرع من الإنسان، ومع ذلك فإن الإنسان هو الذي يقوده) فجعل الله طباعها خاضعة، وما كنا لنستطع تربيتها لنأكلها ووجب علينا اصطيادها ولكن الله جعلها مُستكينة لنا. فقدرتنا على الأنعام إنما هي بسبب أن الله سخرها لنا {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (71) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ} [يس 71-72]. وأراد منا إدراك تلك المعلومة التي يغفل عنها كثير من الناس، فيغفلون عن شُكر الله عليها، فأوصانا أن نشكره على ذلك إذا ركبنا عليها {لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ} [الزخرف 13] (مُقْرِنِينَ أي مُطيقين أو ضابطين).

وسخر لنا غير ذلك كله وما هو أعَمّ، فقد قال تعالى {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [لقمان 20]. قد سخَّر الله السماوات والأرض وما فيهن بحيث أستطيع العيش، ما بين تمهيد سطح الأرض ومصادر طعام وشراب وطقس ذي حرارة مُحتملة وغير هذا من المتاع، بل حتى الحشرات المتنوعة والعجيبة خُلقت من أجلي حتى أتفكر في خالقها فأعرف الخالق. وبالرغم من كثرة تلك الأشياء، وأن كثيرًا منها ما هو أعظم منَّا خلقًا (تكوينًا وتنظيمًا) {لَخَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النّاسِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ} [غافر57]، فإن الله قد سخرها لنا. فالسؤال هو: ما الذي نختار أن نفعله بعد كل هذا التكريم؟

لكن للأسف، إني أجهل عظمتها لأني اعتدت على وجودها فلا أتفكر في آيات الله، فيفوتني إدراك مدى عظمته تعالى من خلال مخلوقاته، وكثير منا قد أخذ تلك الأمور على أنها مُسلَّمة، بل وهناك كثير من الناس يجحدون أن تلك الأشياء مُسخَّرةٌ لنا من الله، فيُنكرون نعمة الله وينكرون على الله قدرته في تسخير تلك الأمور. ومن ثمَّ، من لم يُقَدِّر قيمة ما سخره الله له، فلن يُقدِّر عظمة المُسَخِّر ولن يشكر الله... ومن لم يكن شاكرًا لله مُمتنًّا له لن يُحسن العبادة، ولن يقف عند حدوده تعالى، بل يتعدى ويعصي.

وأبسط مثال على أننا نأخذ نِعم الله على وجه التسليم هو لو تخيلنا أننا لم نرَ مطرًا في حياتنا من قبل، ولم يُخبرنا الله عنه فلا نعرف مواصفاته، ثم عندما نبلغ الثلاثين من عمرنا يُنزل الله علينا مطرًا فنراه لأول مرةٍ وقد كُنا نجهله. كيف تظنون سيكون حالنا؟ خائفين بلا شك لأننا لا نعلم هل هذا خيرٌ أم شرٌّ قد يؤذي الإنسان، هل هذا عذابٌ من الله أم رحمةٌ، ولا ندري ما الذي يحدث، متعجبين إذ إن الماء الذي هو أثقل من الهواء ينزل من السماء فكيف صعد هناك في الأصل، مذهولين من هذه الظاهرة التي حدثت وأن المناخ تغير بهذا الشكل الجذري. حينئذ نتساءل... ما الذي يحدث وكيف يحدث، وهل هذه الظاهرة منافعها أكثر من أضرارها أم أن أضرارها أكثر من منافعها؟! وكيف يكون هذا

الكم الهائل من الماء محمولًا في السماء، وما الذي منعه من أن يقع قبل أن يتراكم إلى هذا الحد! فسبحان الله.

وإني واثق، لو لم نكن نعرف المطر بتاتًا ثم رأيناه ونحن كبار لأول مرة، لظن بعضنا أنه عذاب مبعوث علينا عندما يرى الظلام الذي يغشى الأرض، والبرق المُخطف، ويسمع الرعد المُصدع. حينئذ لدعونا الله، ولاستقبلنا المطر بالخوف والهم والجزع بدلًا من الفرحة والبُشرى، ولتفكرنا وتعجبنا من قدرة الله في المطر. ولكن لأن كثيرًا منا اعتاد واستوعب المطر فإنه يمر به دون أن يتفكر فيه ولا الالتفات إلى قيمته أو المعجزات فيه، وخاصةً إذا كنا مُنشغلين بهموم الدنيا مثل السعي وراء الرزق أو بمتاعها مثل الإقبال على الشهوات، فآثرنا الدنيا على التفكر في مثل تلك الظواهر وسلَّمنا بحدوثها. لكن من كان شاكرًا، مُقدِّرًا لنعم الله متفكرًا فيها، يكن ممتنًّا لله فيثقل عليه عصيان الله. أما أنا، فكيف أزعم أني أتفكر في عظمة الله وأُدرك مدى نِعمه عليَّ، ثم أستخدم نِعمه عليَّ في معصيته؟ أقل شيء يقال عن هذا السلوك إنه قلة وفاء.

وفوق ذلك فإنه تعالى يُمسك السماوات والأرض من أن تنحرفا ومن ثمَّ نهلك جميعًا، فقد رَوى ابن عباس (الحديث ذُكر موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنه، وذُكر مرفوعًا للرسول صلى الله عليه وسلم، وأغلب الروايات على أنه موقوف) أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَالُوا: يَا مُوسَى هَلْ يَنَامُ رَبُّكَ؟ قَالَ: اتَّقُوا اللَّهَ؛ فَنَادَاهُ رَبُّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا مُوسَى سَأَلُوكَ هَلْ يَنَامُ رَبُّكَ، فَخُذْ زُجَاجَتَيْنِ فِي يَدَيْكَ فَقُمِ اللَّيْلَةَ؛ فَفَعَلَ مُوسَى، فَلَمَّا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ ثُلُثٌ نَعَسَ فَوَقَعَ لِرُكْبَتَيْهِ ثُمَّ انْتَعَشَ فَضَبَطَهُمَا، حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ اللَّيْلِ نَعَسَ فَسَقَطَتِ الزُّجَاجَتَانِ فَانْكَسَرَتَا؛ فَقَالَ: يَا مُوسَى، لَوْ كُنْتُ أَنَامُ لَسَقَطَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ فَهَلَكْنَ كَمَا هَلَكَتِ الزُّجَاجَتَانِ فِي يَدَيْكَ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آيَةَ الْكُرْسِيِّ[1].

لا حول ولا قوة إلا بالله. الحمد لله الذي لا ينام ولا يغفل، فإن كان الله ينام لهلكنا جميعًا بأن تسقط السماوات والأرض، وينهار النظام الفَلَكي الدقيق {إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [فاطر 41]. وأريد أن ألفت الانتباه إلى شيء، أن دوران الكواكب حول الشمس يكون بتوازنٍ بين قوة الطرد المركزي للكوكب وبين قوة جاذبية الشمس، ونفس الشيء للأقمار حول الكواكب. هذا وكل كوكب يدور حول نفسه أيضًا. نظامٌ مُعَقَّدٌ ولكن دقيقٌ جدًّا، وهذه الترابطات الحسّاسة لا تختل بحفظ الله لهم.

---

[1] تفسير ابن كثير (679/1) بسندٍ صحيح؛ وذُكر مثله في حلية الأولياء للأصبهاني (276/4–277)؛ وفي موسوعة الأحاديث القدسية للشيخ أبي عدى أحمد بن محمد (87) موقوفًا على ابن عباس (رضي الله عنه) قائلًا: حديث صحيح، رواه ابن أبي حاتم. أما المرفوع فذُكر في الأحاديث المختارة للضياء المقدسي (113/10–114)، ذكره مرفوعًا للرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأبو الشيخ في "العظمة" وابن مردوية، والضياء في المختارة وكذا في "الأربعين" (103–104) للأميونى. قال الشيخ أبو عدي بن محمد: أما المرفوع للرسول (صلى الله عليه وسلم) فضعيف جدًّا.

وتوضيحًا لدقة النظام، فإن الأرض تبتعد وتتقرب من الشمس كل عام، أي أن المسافة بيننا وبين الشمس ليست ثابتة طوال العام، ومع حدوث ذلك التفاوت ما الذي يمنع من حدوث فلتة فيسرح كوكب الأرض في الكون تائهًا بدلًا من ثباته حول الشمس، أو ينحرف مساره تجاه الشمس فتحرقه، وعبر السنين بل والقرون العديدة لا يحدث ذلك. فما الذي يُبقي دوران الكواكب في مساراتٍ مُحددة لئلا تختل علاقتهم ببعض؟ إنه الله.

وكذلك بالنسبة إلى الكواكب حول الشمس والقمر الذي يدور حول الأرض، فإنها أحيانًا تكون قريبة للأرض. وبأمرٍ من الله لا تؤثر الأجسام الحرة والنيازك على الكواكب فيختل النظام، فإن الله يراقب هذا النظام الشاسع المتشابك الذي يدوم ما شاء الله له أن يدوم عبر آلاف القرون ولا يختل عبر الزمن! فذاك هو ربنا القادر على الكواكب والشمس والأقمار وما أكبر وأكثر من ذلك وما ليس لنا به علم، وهو القادر على كل شيء. أوَيَعجز الله علينا؟ فكيف أعصي ربي وهو مراقبٌ لأشياء عظيمة مثل الكون، ولا يعصونه... وأنا أعصيه؟ فما أفعله هو من شدة السَفَه. ولو كان الله ينام لتاهت الكواكب بأن تشذ عن مصارها فيختل نظام الكون، ويؤدي هذا إلى كوارث لا نحصيها ولا نتخيلها، ولهلكنا جميعًا.

ولكن السماوات والأرض ومن فيهن قد خضعوا، إذ خَشوا الله وسلَّموا له عز وجل، فمنهم الملائكة ومنهم الكواكب ومنهم النجوم ومنهم مخلوقات أعظم من ذلك أيضًا، فما أنا بالمقارنة مع هؤلاء؟ فها هو ربي لا ينام ويحافظ لنا على نظام الكون كي نعيش، فأسأل نفسي... لماذا خلق الله الأرض والسماء والشمس والقمر والكواكب وغيرهم؟ ليس ذلك لاختبار قدرته على الخلق (تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا)، وليس لهوًا ولا عشوائيًّا دون مقصدٍ {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (16) لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء 16-17]، ولكن كل ذلك لنا نحن كي نعيش في هذه البيئة. فهذا كله مصنوعٌ ومُرتبٌ لنا، والدليل على ذلك أن الله يذهب بكل أولئك مع نهاية أجل الإنسان بِدَكِّ الأرض وشق السماء وتبديل كل ذلك {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم 48].

وكون هذه البيئة الشاسعة والمتنوعة التي فيها أجسادٌ ترتبط وتعتمد وتتفاعل بعضها مع بعض دون فوضى ولا كوارث، ودون أن يختل النظام على مدى القرون، يجعل المرء يُدرك أن كل هذا له هدفٌ. وبالرغم من أن هذه الأجساد ضخمة فإن نظام تفاعل بعضها مع بعض دقيق جدًّا بحيث إن لو شذ شيءٌ ولو بدرجة بسيطة جدًّا، لظهرت عاقبته ولو بعد زمن.

وذلك يدل على أن هناك من هو أعظم من هذا النظام كله ليحافظ عليه، دليلًا واضحًا كوضوح الشمس في نهار السماء الصافية، وأن هذا الحافظ واحد أحد وإلا تصادمت الأنظمة وعمَّت الفوضى لأن كل حافظ سيرغب في تنفيذ نظامة فيختلفون {مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـهٍ

إذا لّذَهَبَ كُلّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَىَ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمّا يَصِفُونَ} [المؤمنون 91]. ولو انتقل نظام الكون بين الآلهة لانهار بين فترات تداول النظام وتغييره.

فذاك الحافظ الوحيد هو الله، ومن لا يرى ويقتنع بأن الحافظ الوحيد هو الله، فهو أعمى البصيرة والقلب {لَوْ كَانَ فِيهِمَآ آلِهَةٌ إِلاّ اللهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللهِ رَبّ الْعَرْشِ عَمّا يَصِفُونَ} [الأنبياء 22]. إذًا، إن كان الله لا ينام، فإن السماوات والأرض ومن فيهن لا يجرؤون أن يعصوا الله، لأنهم انقاضوا لله طوعًا {ثُمّ اسْتَوَىَ إِلَى السّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعا أَوْ كَرْها قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ} [فصلت 11]، وهأنا أعصيه. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على أني مُسرفٌ أكثر من السماوات والأرض وما فيهن، مع أن ربي أكرمني عنهم بالعقل. سبحان الله. ولكن هذه سُنَّة الله وحكمته وتقديره لي أني أستطع أن أعصيه، فلأقبل وأرضى بما قسمه الله لي ولأتقيه إذا وأَجِدُّ من معصيتي له.

أفلا أستحيي من الله وأنا أعصيه وهو يراني دائمًا ولا ينام؟ قد استحيت السماوات والأرض ومن فيهن من الله وخضعوا جميعًا له إلا الإنس والجن، وفوق ذلك فإني لا أستحيي من معصيته مع أن الله فضلني عليهم. فلا وربي لا أستطيع أن أهرب من قدرة ربي عليَّ، ولا أخرج من مظلة سمائه ولا من فوق أرضه ولا من مُلكه عامةً، ولا ءأمَن من مكر ربي، فلست أدري كيف أستطيع الوقوف أمامه وذنوبي تُعرض عليَّ يوم الحساب وهو يحاسبني عليهن واحدة واحدة. اللهم تبنا إليك، ورجعنا إليك، فلا تؤاخذنا بزلاتنا وإخفاقاتنا بسبب ضعفنا. لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين. فكيف يعصي أحدنا ربنا بالرغم من كل هذا... كيف، كيف؟؟؟

هو الذي أنعم عليَّ أكثر مما أستطيع أن أُحصيه، ولا يبالي! منذ أول نفسٍ أخذته بعد ولادتي وقد أنعم الله عليَّ، وقبل ولادتي حتى، إذ قال الله {ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ} [السجدة 9]. ثم تتوالى نِعمه عليَّ ما دمت أتنفس، حتى تفوق تلك النعم قدرتي على إحصائها، لاسيما أني لا أستطيع استيعابها {وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل 18].

وجدير بالملاحظة هو أن الله ختم الآية بأنه لغفور رحيم. وذلك يشير إلى أن عدم إحصاء بني آدم تلك النعم، ومن ثَمَّ عدم إمكانية تأدية الشكر عليها كما ينبغي ولا الوفاء لله حقوقه، هو دليل على عجز الإنسان، ولكن الله يُبيّن أنه يغفر للإنسان عجزه هذا برحمته ما دام العبد يُحاول أداء الشكر. إذا كنت لا أحصى النعم التي قال الله عنها {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ} [لقمان 20]، فهل من الممكن أن أؤدي حقها (بالوفاء لله وشكره عليها)؟

وهذا يعني أني سأكون مديونًا يوم القيامة لله، فإن شاء عذبني ولن يكون قد ظلمني! ولكني بالغت في التمرد والتجرؤ ليس فقط لأني لا أحاول أن أفي بحق ربي عليَّ قدر المستطاع بعبادته وذكره، بل وأني أعصي ربي أيضًا، وكلما زدت من المعاصي تقلصت احتمالية أن يرحمني ربي لأنجو يوم القيامة، وبذلك أكون قد بالغت في المخاطرة بمصيري.

ثم يقول الله "إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ"، وهذا كي لا نيأس لعدم استطاعتنا شكر الله كما ينبغي. إضافة إلى ذلك، لما علمت أن الله غفور رحيم بعد عدم وفايتي لحق نِعمه، يجب أن أتقي الله ولا أعصيه حياءً مني، بدلًا من السعي في الخروج من تحت مَظَلة تلك الصفات لله، خاصةً بعد أن رأف عليَّ ورفع عني اليأس. فما مصير من يعمد في استغلال هذه المغفرة والرحمة؟

وفي حديث قدسي يثير عاطفة كل من له قلب، يروي لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الله تبارك وتعالى قال "يَا عِبَادِي، إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ. يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا. يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ، وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ"[1] (الْمِخْيَطُ أي الإبرة).

أولًا يجب أن نرى من مثل هذا الحديث أن مقاليد كل الأمور بيد الله، إذ إنه تعالى هو الذي أوجدهم في الأصل، وأنه ما من شيء يحدث (أو حتى لا يحدث) إلا بإذن الله {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ} [هود 123]، وإنما نأخذ بالأسباب –دون التعلق بها أنها محور النفع والنجاح– فإن شاء الله أعطى وإن شاء منع. والحمد لله على صفاته العلى وأنه حرم على نفسه الظلم، وهذه نعمة عظيمة لا نعيها، لأن كم من رئيس أو ذي سلطة في الأرض لا يضع على نفسه قانونًا ليقي الناس ظلمه بسبب يقينه أنه سيتفلت من انتقام الناس. وربما يكون ذلك صحيحًا فيتفلتون من بطش الناس لأن الناس ضعفاء

[1] صحيح مسلم 4674.

وعاجزون، ولكن كلهم سيحاسبهم الله الذي سيرد الحقوق إلى الذين استُضعِفوا، فأنَّى يتفلتون منه؟ فالحمد لله أنه يرد الحقوق إلى المظلومين بدقة متناهية إلى درجة أنهم يرضون، ويُشفى ما في صدورهم فيُذهب غيظ قلوبهم.

ولو أن الله لم يحرم الظلم على نفسه لما استطعنا أن نفعل شيئًا، لأنه لا أحدٌ سواه لنشكو إليه، مع تمكينه التام البالغ على كل شيء، فالحمد لله كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه أنه حرَّم على نفسه الظلم لنا، والحمد لله كما يحب ويرضى. والحمد لله كثيرًا طيبًا مباركًا فيه أنه وضع قانونًا لنفسه بعدم الظلم لا يتجاوزه أبدًا مهما صدر من ابن آدم، مع أن هناك من دونه من سلاطين لا يضعون لأنفسهم ضوابط كي لا يظلموا، لم يتركوا مظلمة لم يرتكبوها، وإن وضعوها قد لا يلتزمون بهن. فأقول لك يا أخي: لا أنت ولا أنا نُدرك مدى نعمة الله أنه حرَّم على نفسه أن يظلم، وأنه يفي بكلمته تلك مهما ظُلِم من عباده الذين هم أدنى من أن يكون له حاجة إليهم، وأهزل من أن يستطيعوا نفعه أو ضره أو ينقصوا من مُلكه شيئًا.

فهذا الحديث يدل على نعمة من نِعم الله التي لا تُحصى ولا تُقدّر، نعمة عدل الله. وتلك النعمة يعقبها نعم أخرى ليست بقليلة، لا ندري ولا نعي كم هم ولا مقدار أهمية كل واحدة منها، وأساس ما نعلمه أن كل واحدة منهن بالغة القدر، مثل نعمة الإسلام ونعمة الهداية ونعمة الرزق ونعمة صحة الجسد ونعمة المغفرة ونعمة الرحمة والكرم وغير ذلك. وكلهم نِعم عظيمة تكاد تغطي كل واحدة منهم على عظمة الأخرى، ودون أي واحدة فقط منهن يهلك الإنسان، حتى إنه قد يخلد في النار!

أما الهداية فليس كما يظن البعض أنه المتسبب في هداية نفسه، ولكن الإنسان يسعى إلى الهدى فيتفضل عليه الله ويهديه، تمامًا مثل ما جاء في الحديث ودل عليه آيات كثيرة مثل {فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ} [النحل 36، جزء من الآية]. وهذا هو الحال أيضًا بالنسبة إلى الرزق والقوة والسلطة والجمال وغير ذلك. فكم من مُكدٍّ لم ينل ما سعى إليه في نهاية المطاف وبعد كل الجهد الذي بذله؟

أيضًا، يشير هذا الحديث إلى أهمية الاستغفار، فإن الله يحب المستغفرين. وليس قبح المعصية يكمن فقط في ثقلها، فالمعصية الكبيرة التي يتبعها توبة لا تتساوى في القبح مع معصيةٍ أصغر يتبعها إصرار وإنكار حرمانيتها فلا يعقبها الندم. وهذه دعوة لنا من الله كي يغفر لنا، ويحثنا على التوبة... فما أجمل هذه الدعوة، فمن منا يُلبّي؟ وكيف رأيكم وحكمكم فيمن يرفضها؟!

فوالله إنها لدعوة تثير حياء المرء، وندرك منها مدى هزلنا أمام لله، إذ إن هزلنا وضعفنا إلى الله بلغت درجة أنه يُشفق علينا بأن يدعونا ويذكرنا بالتوبة ليرحمنا، بالرغم من أننا أسأنا في حقه.

فتدل شفقته علينا بتكرار دعوته لنا أن نُنيب إليه مدى غناه عنا وعجزنا أمامه، فيفعل ذلك لمصلحتنا إذ إننا لا نستطيع أن ننفعه بشيء إذا أنبنا ولا نستطيع ضرَّه إذا أعرضنا، إنما نُضرّ أنفسنا. بل إنه يقول لنا إنه سيقبل التوبة إذا تُبنا، أعلمنا هذا من قبل أن نرتكب المعصية حتى، ويكأنه لا يبالي بتفاصيل المعصية وسيغفر لنا بغض النظر ما دمنا نستغفره ونصدق معه. وهذا بالرغم أننا نحن الذين أبعدنا أنفسنا عن الله، وبماذا، بعصياننا له!

ثم إن الله يذكرنا أننا لن نضره ولن ننفعه أبدًا، وبصيغة جميلة، فيقول لنا ربنا إنه يدعونا للاستغفار ليس لمنفعة لنفسه، ولكن لمنفعة أنفسنا كي نُزحزَح عن النار! وبلا شك يدل هذا على مدى حب الله لنا وحرصه علينا. وانظروا إلى كيف يُردد الله قوله وهو يُخاطبنا "يا عبادي"، مما يدل أيضًا على مدى حبه لنا، فهو يلطف بنا ويتقرب إلينا. فكيف يصدر مني أن أرد حبه لي بعصياني له، وإقباله عليَّ بإعراضي عنه، في حين هو رب كل شيء؟! حقًّا إنه لوضعٌ مُخزٍ ومُخيِّب مني، وحقًّا إنك لن تجد علاقة فيها ذلك القدر من الصبر والحرص والرحمة إلا من رب العباد على عباده، فحقًّا لقد عرفناه أنه ربُنا قطعًا دون أدنى شك من معاملته لنا.

بعد كل هذا تأتي الملحوظة الأخيرة الخاتمة، إنما هي أعمالنا تُحصى لنا... وعلى هذه الأعمال شهود من الملائكة بالإضافة إلى أنفسنا، فعندما يوفيها الله لنا، هل يكون قد ظلمنا؟ حقًّا، من وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. فأي حسرة ولومة تكون كحسرة ولومة الإنسان لنفسه يوم القيامة عندما يتذكر تفويته لهذه التوبه، أو هذه الصدقة، أو هذه الإعانة لأخٍ في كُربة، أو إقباله على سب هذا الشخص، أو نظرة إلى مُحرمٍ لا يحق له، أو ذهابه لمكان سوء، أو كذا أو كذا أو كذا... فاللهم سلِّم سلِّم يوم يُقضى فيه من الشاة ذي القرون لنطحها شاة لم تكن لديها قرون، من شدة العدل في المُجازاة بالحقوق.

هو الذي يُخرج عباده من الظلمات إلى النور في مختلف المراحل. سواء كان العبد مشركًا أم مؤمنًا ويُكثر المعاصي فإن الله يُرشده إلى نور الهدى. وقد أخرجنا الله من ظلمات الجاهلية إلى نور الإسلام، ولم تقتصر هدايته لنا فقط في تلك النقطة، ولكن لم يزل يُبين لنا الحق بالتفصيل حتى نترك شوائب الظلمات أيضًا بعد أن سطع فينا نور التوحيد. فالشرك أكبر ظُلمة، ثم تأتي عادات الجاهلية التي هي ظُلمات أيضًا ولكن دون الشرك (مثل وأد البنات وأنواع الزواج الباطلة والربا)، فلم يرضَ الله أن يتركنا دون أن يُبينها لنا، فالحمد لله على إرشاده وعونه لنا باستمرار حتى نخرج من الظلمات إلى النور كُليًّا. قال تعالى {هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ} [الحديد 9].

والحمد لله أنه أخرجنا من الظلمات إلى النور، فمن من العباد يستطيع أن يُخرج نفسه من الظلمات إلى النور برغبته دون عون الله؟ وحقيقة المعاصي أنها رجوع إلى الظلمات، وإنها لخيبةٌ وحسرةٌ أن يكون المرء على هدًى ثم يتركه إقبالًا على ظلمات المعاصي. وإذا كان الله بنا رؤوفًا رحيمًا، لماذا أجلب على نفسي رفع رأفة الله ورحمته عليَّ بسبب معصيتي له؟ لماذا أشبك نفسي في الظلمات بعد أن أخرجني الله منها وأراني النور؟ ومع هذا، حتى عندما يخوض المرء في معصية ربه يظل الله يُكرم عبده بأن ينبع فيه نورًا، يكون بريقًا من الأمل للعبد في الرجوع عن شروره، وهذا النور يتمثل في إلحاح ضمير العبد عليه. فمن تجاهل أو كَبتَ ذلك النور أيضًا فما الذي يريده من الله بعد ذلك، وماذا يتوقع؟

هو الذي يُرشدني إلى صراطه المستقيم، ويدعوني للرجوع إليه إذا عصيته مع المعاتبة بلطفٍ. إن الآية {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ} [التوبة 38] تثير عواطفنا بسبب حب الله لنا الواضح في عتابه لنا بلطفٍ. كل شخص له أب أو أم يعرف كيف يكون الحال في العلاقة بينه وبينهما، أنهم ينصحونه ولكن قد يخالف نصيحتهم أو رأيهم أحيانًا، وقد يقع في الخطأ بسبب هذا فيرجع إليهم. وقد تتكرر القضية، ولكن حب الوالدين للأبناء يُصعِّب عليهما الإقلاع عن النصح للأبناء والصبر عليهم. ولله المثل الأعلى، فإنه أفاض في نصحنا بإرسال كتبه، ورسله، ويُرينا آياته، ويُبين لكل مُخطئ خطأه، ومع ذلك فإني عصيته وما زلت أعصيه بين كل حين وآخر متعمدًا.. لماذا؟ ومن أعصي؟! الله... خالقي وخالق كل شيء، العظيم المقتدر.

هو الله الذي بعث الرسل وأنزل القرآن كي ينصلح حالنا، وننعم بالاستقرار في الأرض وطمأنينة النفس {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس 57]، وعرفني هدفي في الحياة {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات 56]. بل وأشار إلى المدى الذي بلغه داعيًا عباده إليه، عندما أرسل الرُسل يقولون بألسنتهم {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [إبراهيم 10].

ودلَّني على طوق النجاة في قوله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (11) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [الصف 10-12]. وهذا كي لا أُضر نفسي بالوقوع في المتاهات قائلًا {يَا أَيُّهَا

الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَوْلا فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} [النور 21]، {إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [طه 15-16].

ونصحني بأن أُحسن العمل له تحسُبًا لما هو آتٍ لا محالة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر 18]، {وَاتَّقُواْ يَوْما تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمّ تُوَفّىَ كُلّ نَفْسٍ مّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [البقرة 281]. وخاطب عقلي قائلًا {وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (40) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى (41) وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى} [النجم 39-42]. ونبهني من أن أُبطل عملي الصالح بعد أن تعبت فيه {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} [محمد 33].

وحثَّني برفقٍ أن ألتزم بما أنزله من الحق قائلًا {أَلَمْ يَأْنِ لِلّذِينَ آمَنُوَاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد 16]، {مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء 147]. وكلمني بالمنطق قائلًا {مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [النحل 96].

وحذرني من الدنيا ومَغَبَّة الانغماس فيها قائلًا {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [الحديد 20]، {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاء أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاء فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىَ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [يونس 24]. ذلك لأن من يتلهف وراء الدنيا فهو ينشغل عن الواقع المهم، أن الدنيا مجرد دار اختبار وأن دنت لحظة حساب المرء {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ} [الأنبياء 1].

ووعَّاني من غدر ومكايد الشيطان بقوله {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [ابراهيم 2]، {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [النساء 120]. ووعَّاني أيضًا من أن أقع فيما وقع فيه كثير من الأمم السابقة، وهو اتباع الشيطان والهوى بدلًا من اتباع

الرُسُل {تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [النحل 63].

وأعلمني مدى بُغض الشيطان لي {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف 16-17]. وقال لي {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ (5) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} [فاطر 5-6]، فسلَّحَني من الشيطان بوصيته لي {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [الأعراف 201].

ونصحني أن أغتنم فرصتي في حياتي بالعمل الصالح كي لا أكون من المتحسرين يوم القيامة {وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (27) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (28) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولًا} [الفرقان 27-29]. وأعلمني أنني سألقاه يوم القيامة بأعمالي سواء صلحت أم فسدت على هذا الحال: {يَوْمَ هُم بَارِزُونَ لاَ يَخْفَىَ عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهّارِ} [غافر 16].

وأراد مني الاستعداد بالأعمال الصالحة حتى لا يُفاجئني هذا الموقف وأنا غافلٌ {كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (21) وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (22) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (23) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (24) فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (25) وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [الفجر 21-26]. ووعّاني أني سَأُمَرُ بلحظات شاقة يوم القيامة {وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ} [الصافات 24]، وأن أحرص ألا أضع نفسي في وضعٍ سيئ حينما يُقال لي {اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا} [الإسراء 14].

ونبأني عن بعض ما يحدث في الآخرة بين الناس {يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ} [الانفطار 19]، {الأَخِلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف 67]، {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ} [لقمان 33]. والداهية الكبرى بين الناس ذاك اليوم تتمثل في أن أسوأ ما عند المجرمين من غدرٍ يظهر، في محاولة كل واحد منهم النجاة فقط بنفسه على حساب غيره، بأن يُلقي لوم معصيته ولو على أُمِّه. هؤلاء أشخاصٌ كانوا يقولون في تنافسهم على أمور الدنيا: نفسي نفسي، فكيف حالهم يوم يقول الأنبياء والرسل: نفسي نفسي؟ {وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (10) يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ (11) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (12) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (13) وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ} [المعارج 10-14].

وقال الله عن حال الشاردين {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا} [الأحزاب 66]، وأيضًا {وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (55) أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (56) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (57) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} [الزمر 55–58]. وقال {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ} [السجدة 12].

وحذرني من استحقاق عذابه بمعصيتي له {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم 6]، {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَافِرِينَ} [الأنعام 130]. وأنذرني قائلًا {إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا} [النبأ 40].

وحثَّني على الرجوع إليه إن عصيته، ودعاني بترحاب للإقبال عليه بالتوبة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [التحريم 8]. وأيضًا {وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا} [النساء 64]، {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [آل عمرن 135].

وأعلمني مدى رحمته بي بعد معصيتي له في قوله {وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا} [النساء 27]، وعرّفني مدى حبه لنجاتي بأنه يغفر ويرحم بمجرد طلبي منه المغفرة والرحمة {وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَّحِيمًا} [النساء 110]. وأحيانًا يواسيني بعد إذ عصيته بدلًا من توبيخي {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (53) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ} [الزمر 53–54]. فمن يفعل هذا إلا الرب الذي يحب عباده حبًّا يليق بعظمته، وبلغت قدرته علينا وغناه عنا لدرجة أنه يتعالى عن تعذيبنا حق العذاب في الدنيا، فيصبر علينا لعلنا نتوب، ثم يرأف بنا ويتجاوز عنا إذا أقررنا بخطئنا واستغفرناه.

وبعد كل ذلك مما قدَّمه لي كي أهتدي، ما الذي أنتظره أن يُقدمه لي إضافيًّا لأبدأ في إصلاح حالي؟ فبالرغم من كل ما قدَّمه، إني ما زلت أعصي ربي، بل وقد أتهاون في استغفاره أيضًا... وهو ينصحني ويصبر عليَّ حتى أرجع مع أنه الغني عني وأنا الفقير إليه! وقد بيَّن الله لنا ذلك في كتابه بطريقة واعظةٍ بسيطةٍ منطقيةٍ {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (16) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر 15-17]. بل إن الله يسترني حين أعصيه حرصًا عليَّ! ويصبر عليَّ في حين أنا أُكرر هذا. أي فضلٍ هذا؟ من الذي يفعل مثل هذا؟! وما نتيجة ترك نصيحته، نصيحة الخالق... حتمًا الضرر والهلاك، فلماذا أعصيه؟ أليس العدل أني إن عصيت الله بعد كل هذا النصح والإرشاد أن أُعَذب؟ أليس هذا ما أستحقه؟

إنما نأمل عفو الله ورحمته بعد الاجتهاد الصادق بالعمل، لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أبلغنا أننا لن ندخل الجنة بأعمالنا بسبب أنها لن تُوفِّي حقوق الله علينا بأفضاله، كائنًا من كان. وذلك كما جاء في الحديث "لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ"، قَالُوا (الصحابة رضي الله عليهم): وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟! قَالَ "لا، وَلا أَنَا، إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللَّهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَلا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ، إِمَّا مُحْسِنًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَزْدَادَ خَيْرًا وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعْتِبَ"[1] (يَتَغَمَّدَنِي أي يُصيبني).

فيا إخواني، أذكركم بالحديثين "أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ"[2]، وقال عندما سُئل (صلى الله عليه وسلم) عن أحب الأعمال إلى الله "يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا مِنْ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دَامَ، وَإِنْ قَلَّ"[3]. وبالاستدلال بهما يمكن أن نستنتج (طمعًا في عفو الله وكرمه ورحمته) أن الله لا يمل من أن يغفر للعباد مرارًا وتكرارًا ما داموا يستغفرونه، فأنصح نفسي وإياكم بالمداومة على الاستغفار والإكثار منه.

واعلم أخي أن الله يصبر عليك فاصبر أنت على نفسك، فلا تقسُ على نفسك بما لا تطيقه حتى تيأس من نجاة نفسك ومجاهدة المعاصي، وبدلًا من اليأس فلنُكثِر من الاستغفار، فإن الله لا يَمَل من المغفرة ما دام العبد لا يَمَل الاستغفار، بل إن الله يُحب أن تُطلب منه المغفرة. وأوغل في الدين برفق، هذا لأن الله يحب الرفق كما جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَا عَائِشَةُ،

---

[1] صحيح البخاري 5241.

[2] صحيح مسلم 4953.

[3] صحيح البخاري 5413.

إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ"[1]، فأرفق على نفسك هي أولى بذلك من الغلظة، ما دامت تستجيب.

وإذا عزمت أشد العزم على ترك معصيةٍ اعتدتها، وأكثرت في أخذ التدابير المانعة ثم ارتكبتها عمدًا (ولا أقول سهوًا حتى)، فإن الاستغفار أولى بك من القنوط. وأن تُكرر المعصية وتستغفر الله خيرٌ من أن تُكررها وأنت فاقد للأمل في الإقلاع عنها فتترك مجاهدتها. وإن مت على حال تكرار المعصية والاستغفار، فأبشر بمغفرةٍ من الله ما دمت صادقًا في رغبتك ترك العصيان.

هو الذي يُعرض عليَّ برفقٍ أن أعبده، وهو رب كل شيء! {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوَاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد 16]. يسأل الله عباده، ألم يأن للذين أمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق؟ وفي ذلك عتاب من الله تعالى، وقال سيدنا بن عباس (رضي الله عنه): إِنَّ اللَّهَ اسْتَبْطَأَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ، فَعَاتَبَهُمْ عَلَى رَأْسِ ثَلاثَ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ نُزُولِ الْقُرْآنِ[2].

ويكأن الله يحثنا أن نسأل أنفسنا متى نظن أنه قد حان الوقت لطاعته، وقد خلقنا، ثم رزقنا ولا حول لنا ولا قوة، وعلَّمنا أنه إلهنا، كل هذا فقط لنعبده، وهأنا قد نسيت، أو تجاهلت، أو أعرضت عنه لهفةً وراء ما خلقه من متاع الدنيا. ألا يكفي ما استمتعت به من الدنيا واقتنيته فأرجع إلى طاعته وعبادته وأترك معصيته؟ يُذكرني ربي كي لا يكون لي عذر يوم القيامة، وأن أوان التوبة لم يَفُت بعد، فليس هناك اسلوب لم يتخذه معي في حثِّي للهدى.

ولكن أوان التوبة سيفوت قريبًا، فالله صابرٌ عليَّ حتى يأتي أجلي الذي حدده، وما أدراني متى ذاك. إني أغامر بعصياني له، وبتصرفي وكأني سأتوب عندما أكبر، ولكن ماذا لو مِت شابًّا، فتلك خسارة فادحة لا مثيل لها. وإن بلغت الكبر، فقد آمنت من مكر الله وأنا شاب فقد يجعل المعصية راسخة ساكنة لقلبي فلا أستطيع تركها جزاءً من ربي. ومعلوم أن الشاب قابل للتغيير أكثر من الكبير وقادر على التأقلم أكثر، فكل العوامل تشير إلى دواعي المبادرة في إصلاح نفسي. فهل من الحكمة أن أتوقع أني عندما أكبر سأُخالف كل تلك العوامل وأكون صالحًا، أريد أن أكون استثناءً، فهذا هو التمني. فهل من سببٍ واحد على أن ءأمن من مكر الله؟

---

[1] صحيح مسلم 4697.

[2] تفسير القرطبي 255/17.

الله يُرشدني أن أتمسك بعبادته وبالإسلام، مع العلم أنه هو الذي له الحق عليَّ وأنا الذي عليَّ دَين له، فإن الله خلقني ويملكني وأنا لا أملك نفسي حتى. بل لو شاء الله ألا يقول ما قال في الآية بصيغة رفق، ما كان ليفعل ولم يكن قد ظلمني، فهو أعلى وأجل وأعظم من أن يسألني عبادته، وكل هذا وهو غنيٌّ عني مهما كان اختياري، ولن أنفعه بشيء ولو بلغت عبادتي ما بلغت. ألا أستحيي من عتاب ربي لي؟! ألا يخشع ويخضع جسدي ونفسي لما أسمعه من الذكر؟ لبيك اللهم وسعديك، سبحانك اللهم فبلى قد آن الأوان، بل وقد تأخرت عنك.

اللهم إنك قد أرسلت الرسل والقرآن، ورأينا آياتك في كتابك ومخلوقاتك التي تدل كلها على الحقيقة، أنك أنت الله، ولا إله سواك سبحانك. فكيف لنا ألا نلين لذكرك سبحانك وليس لنا ملجأ ولا منجا سواك، ولو أنك أمرتنا دون أن تدعونا بلطف لعبادك لاستجبنا خاضعين مقهورين، فإنك أنت العظيم الجليل العلي الكبير، وفي لطفك بنا زيادة في المنّ علينا. فإن لم أطِع الله بالابتعاد عما نهى عنه فسأكون من الجاحدين للحق، وقد قسى قلبي، ونهاية هذا المطاف أن أكون من الفاسقين. وأنا متأكد كل التأكد أني لا أريد أن أسلك هذا الطريق إلى الفسوق وجحود الحق، فإذا ما مبرر عصياني ربي؟

الله يُعْرِض عليَّ صفقة، المستفيد الوحيد منها هو أنا، وسلعته في تلك الصفقة هي الجنة. تلك الصفقة هي {إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة 111]. لا شك أننا جميعًا نريد أن نكون من هؤلاء، فما المطلوب منا أن نفعله؟ الإجابة هي أن نهب أنفسنا وأموالنا لخدمة الله.

انظروا إلى الأسلوب اللطيف الرفيق الذي استخدمه الله في عرض القضية علينا: "إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ"، كيف يُعرض الله شراء شيء هو خلقه ويملكه؟ ولماذا... لمنفعة لهم وليس لنفسه! إن عبادتنا لله لن تزيده ولن تنفعه بشيء، ولكنه يجزينا على بيعنا أنفسنا له بأن يقضي لنا ما ينفعنا، وهو دخولنا الجنة. ما أغرب هذه البيعة التي لا يكسب من ورائها المشتري شيئًا، ويفوز البائع بأقيم شيء: الجنة. إنها إن دلت على شيء، فإنها تدل على رحمة ورأفة وحب الله لمخلوقاته، ومدى كرمه مقابل اليسير من العمل.

والمقابل الذي يسأله منا هو بذل النفس والمال. ومعنى أن يبيع المرء نفسه لله هو أن يُوظِّف وقته وطاقته لطاعة الله، ويَحكُم هواه تحت إرادة الله، ويُنفق ماله فيما يُحبه الله، ويبذل نفسه

لإعلاء كلمة الله، فأولئك الذين صدقوا في بيعتهم، فربحوا بالبيع. ولإدراك مدى هوان تلك التضحية، فيجب أن يُدرك المرء أنه مهما قدّم لله فإن في الجنة ما أفضل مما قدَّمه من حيث الكم والنوع.

فإن قدَّم المرء ماله كله فلن يوفِّي قيمة شراء قصر في الجنة مثلًا؛ وإن قدَّم جسده فأصابه تلفٌ في جسده فلن يوفِّي ثمن أجنحة تُنشأ له يطير بهما في الجنة، كما حدث مع الصحابي الذي قُطعت يداه وهو يُجاهد فقال فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "أَنَّ جَعْفَرًا يَطِير مَعَ جِبْرِيل وَمِيكَائِيلَ، لَهُ جَنَاحَانِ عَوَّضَهُ اللَّه مِنْ يَدَيْهِ"[1]. ومهما بذله المرء من جُهدٍ ومر به من مشقة وهو يسعى لله، فهذا لا يُقارن بالراحة والرفاهية التي ينعم بهما في الجنة، إذ يتفكر فيما يشتهيه من أقيَمِ الأشياء فيأتيه أحد الولدان المُخلدون بذلك الشيء في حين هو مسترخٍ، أو حتى أحد الحور العين وهي مبتسمةٌ له فتُقدِّمه قائلةً: لبيك وسعديك، فأنى يذهب مجهودنا لله هدرًا؟!

ولنفترض أشد الاحتمالات، وهو أن المرء عانى ومر بأقصى الشدة في كل جانب من جوانب حياته وهو يبذل نفسه وماله لله، فأصبح أفقر ما يكون وأصابه تشوهات في جسده وأُصيب بأمراض كثيرة وفقد أهله وعُذِّب في الله من قِبَل الكافرين أشد التعذيب، وضف على ذلك كل الكربات والمشقَّات التي تخطر ببالك يا أخي، ثم لنُقيِّم وضعه. ففرضنا أسوأ الاحتمالات له في العناء، فهذا الشخص قد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيه "وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ وَلا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ"[2]، فهذا بالصبغة، فما بالنا بالسكن فيها.

بل وأكثر من ذلك، فهل هناك ما هو أثمن عند المرء من روحه، فإن فرضنا أنه استُشهد في سبيل الله، وندرك أن هذا فيه عناء شديد وبذلٌ بالغ، فحال مثل هذا الشخص في الآخرة كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا وَلَهُ مَا عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلا الشَّهِيدُ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنْيَا فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنْ الْكَرَامَةِ"[3]. فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: هل من المنطقي أن من شعر بالمعاناة أن يرغب في معاودة خوض معانته عشر مرات، أو حتى مرة واحدة؟ فلا شك أنه يلقى من الكرامات والمكافآت ما يجعل معاناته هيِّنة.

فمن الذي لا يترك الدنيا التافهة الفانية للجنة التي هي نعيم بعد نعيم دائم، ففي حديث قدسي قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ}"[4]. الذي

---

[1] فتح الباري لابن حجر 96/7؛ قال عنه: إسناده جيد.

[2] صحيح مسلم 5021، جزء من الحديث.

[3] صحيح البخاري 2606.

[4] صحيح البخاري 3005.

يبيع نفسه لله هو الفائز، وهو اختيار الحكماء لأنهم فضَّلوا الآخرة على الدنيا، ويدل قبول هذه الصفقة على قوة رغبة ضبط النفس وعلى قوة اليقين بالله بالتوكل عليه. وما فرحة العبد أن يقول لنفسه: لقد بعت نفسي لله، أقررت ورضيت أني عبدٌ لله وأن الله هو مالكي ووكيلي، يفعل بي ما يشاء وأفعل له ما يشاء. فأين العاصي من هذا المثل؟ هل يُعقل أن العاصي يكون مُوفيًا بعهده مع الله، وخصوصًا إن لم يكن مُداومًا على التوبة؟

إن الله، وهو من هو، جعل لي حقًّا عليه! عَنْ سيدنا مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: بَيْنَا أَنَا رَدِيفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلا آخِرَةُ الرَّحْلِ فَقَالَ "يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ؛ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ "يَا مُعَاذُ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ؛ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ "يَا مُعَاذُ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ "هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟" قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "حَقُّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا"؛ ثُمَّ سَارَ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ "يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ"، قُلْتُ: لَبَّيْكَ رَسُولَ اللَّهِ وَسَعْدَيْكَ، فَقَالَ "هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟" قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ "حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ"[1] (رَدِيفُ أي راكب خلفه على الرحل).

فالحمد لله على رحمته وكرمه. هذا في حين أن المعصية من سوء عبادة الله، بل وقد تُفضي بالعبد إلى الشرك، فلماذا إذًا لا أغتنم هذا العرض بدلًا من معصيتي لله؟ الحمد لله الذي جعل للعباد حقًّا على رب العباد! فمن الذي لا يغتنم ذلك الحق؟!

مدى السهولة التي يرضى بها الله عن عباده. إن الله ليرضى عن العبد بأعمالٍ بسيطة، ولكنَّ كثيرًا من الناس لا يفعلون تلك الأعمال السهلة حتى، ومثالًا على ذلك ما جاء عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنْ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ"[2]. الأكل والشراب اللذان هما من فضل الله علينا، ونستمتع بالأكل والشراب، ونحتاج إليهما لبقائنا، إن حمدنا الله بعدهما يرضى بذلك. إنما أجسادنا وأرواحنا من عند الله، ويرضى عنا بحمده بعد الأكل والشراب، فهل من مُمتنع؟

فما أسهل أن نُرضي الله عنا، ما أسهل أن نحمد الله بعد الأكلة أو الشربة؟ فإن الله عامةً يسأل منا اليسير ويقبله فيجزينا عليه بالكثير، فما قيمة ما نُقدِّمه لله أمام الجنة التي يُجازي بها

---

[1] صحيح البخاري 5510.

[2] صحيح مسلم 4915.

عباده الطائعين؟ ويتبين لنا ذلك من الحديث المذكور أعلاه، وأيضًا من حديث آخر للرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لأَهْوَنِ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ، أَنْ لا تُشْرِكَ بِي شَيْئا، فَأَبَيْتَ إلا أَنْ تُشْرِكَ بِي"[1].

وجاء أيضًا عنه (صلى الله عليه وسلم) "يُؤْتَى بِرَجُلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ خَيْرَ مَنْزِلٍ؛ فَيَقُولُ لَهُ: سَلْ وَتَمَنَّهْ؛ فَيَقُولُ: مَا أَسْأَلُ وَأَتَمَنَّى إلا أَنْ تَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلَ؛ لِمَا رَأَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ. ثُمَّ يُؤْتَى بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَيَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ كَيْفَ وَجَدْتَ مَنْزِلَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ شَرَّ مَنْزِلٍ؛ فَيَقُولُ: أَتَفْتَدِي مِنْهُ بِطِلاعِ الأَرْضِ ذَهَبًا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ؛ فَيَقُولُ: كَذَبْتَ، قَدْ سَأَلْتُكَ مَا هُوَ أَقَلُّ مِنْ ذَلِكَ فَلَمْ تَفْعَلْ؛ فَيُرَدُّ إِلَى النَّارِ"[2] (بِطِلاعِ أي بمِلْء).

ومع ذلك، فإن كثيرًا من الناس يُقَصِّرون أو يُعرضون عن هذه الأشياء السهلة علينا. ذلك لأن كثرة المعاصي وإيثار الشهوات تحيل بين العبد وربه، فتُنسيه حمد الله بعد الأكل، بل رإن بعض المسلمين يتهاونون بقيمة حمد الله بعد الأكل أو الشرب. خسر أولئك بابًا من رضا الرب عليهم، لأنهم إن أدركوا فضل الحمد ما تركوه. وكذلك بالنسبة إليَّ، فإني إن نسيت حمد الله بسبب استكثاري من المعاصي، فلا ألومن أحدًا على فوات ذلك الثواب إلا نفسي.

إن السيئات تُمرض القلب، وإذا مرض القلب مَرض سائر الجسد، كما جاء في الحديث عن النبي (صلى الله عليه وسلم) "الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ؛ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[3] (الْحِمَى هي الأرض المخصوصة، يُمنع الغير من دخولها).

فإذا فسد القلب أعرض عن ذكر الله وأقبل على الشهوات، ويأمر سائر الجسد بذلك، فتُهمل الجوارح طاعة الله وتسعى وراء الشهوات، فيصبح المخ ينسى ذكر الله، والعين تطلع على الحرام، واليد تبطش ظلمًا، والرجل تسعى إلى أماكن الفساد، وهكذا. فما بال الذنوب إن زادت... زاد إعراض الجسد عن ربه تلقائيًّا. وذلك مؤشر نستطيع أخذه مقياسًا لأنفسنا، فإن وجدت نفسي كثيرًا ما أنسى ذكر ربي فهو دليل على كثرة المعاصي، فإن العلم والعمل الصالح يكونان بتوفيق الله، فكيف يُوفِّق الله

---

[1] صحيح البخاري 6072.

[2] مسند أحمد 13024.

[3] صحيح البخاري 50.

من يعصيه؟! والذي يجعل المرء يتوارى خجلًا هو بساطة نيل رضا الله، ولكن بالرغم من ذلك يُعرض العبد ويذهب في الاتجاه الآخر، فيعصي الله ثم يأكل من نعمة الله ليتقوى على معصية الله! فما هذا الوضع المعلول؟!

هو الذي وهب لي حرية التصرف، ثم يراقب اختياراتي وأعمالي، مع إحصائهم لي. {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرا} [الفرقان 58]. إني لأجلس مع نفسي، ثم أجتهد لأتذكر قدر المستطاع مما فعلته من أشياء أنا أنكرها على نفسي من ذنوب. بعضها قد نسيتها منذ زمنٍ طويلٍ ولم يبقَ منها شيء إلا حسابي عليها يوم القيامة... والبعض الآخر لا أصدق أني فعلت ذلك. كُلما زدت دَنَت نفسي في نظري، لأن هذه الأعمال سعيت كل السعي لأخفيها من الناس ولم أستحيي مِن الذي لا يخفَى عليه شيء. آنذاك أدرك... أن الله يعلم كل هذا {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} [غافر 19]. فما حقيقة إدراكي لمعنى قوله تعالى {وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا}؟

قال المفسرون إنها تعني أنه كفى بالله بذنوب عباده خبيرًا فيحاسبهم عليها، ما ظهر منها وما بطن، ولا يخفى منه خافية وأنه يعلم ما يتعلق بالذنب! وهذا يعني أن الله يعلم تسلسل أفكاري التي أدت إلى المعصية، ويعلم ما كان يدور في عقلي بخصوص المعصية، ويعلم كيف خططت لها وخُبْث أفكاري، ويعلم المبررات التي اختلقتها كي أتحايل على نفسي لأفعل المعصية وأُسكن ضميري، والأعذار التي رتبتها لأقولها لله عندما أُحاسَب عليها.

إنه يعلم كل الجوانب المتعلقة بالمعصية وتشعُّباتها، وليس فقط الجانب المرئي من المعصية، فحقًّا كفى بالله عليمًا خبيرًا بذنوبنا، وكفى به محاسبًا إيانا عليها. وكفى به مأزقًا لنا أن الله مطلعٌ على ذنوبنا، شاملًا توابع محاسبتنا عليها بعد علمه. فتخيل معي أخي، لو شاء الله أن يُحاسبني على كل ذنبٍ صدر مني، بكل جوانبه، كيف سيكون موقفي؟! وهل سأنجو؟

الله يعلم كل هذا، وكل ما لا أتذكره من سيئات. فكيف يظن بي من عَلِمَ كل ما ارتكبته؟ وخاصة إن لم أكن تبت! أيكرهني؟ أيسخط عليَّ؟ أغاضب عليَّ أو مني؟ فإن غضب عليَّ فقد غضب عليَّ كل ما خُلق في السماوات والأرض أيضًا لأن الله خالقهم وهم يُحبونه. وهذا كما في جاء في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلانًا فَأَحِبَّهُ، فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}؛ وَإِذَا أَبْغَضَ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنِّي أَبْغَضْتُ فُلانًا، فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الأَرْضِ"[1].

[1] سنن الترمذي 3085.

وما فائدة مشوار الحياة المرير إن كان الله ساخطًا عليَّ، وما فائدة العيشة حينئذ؟ حينئذ ستكون حياتي كدًّا على كدٍّ وضياعًا على ضياعٍ في الدنيا على الآخرة. فاللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك، لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك.

وإن كرهني الله فلا حياة لي، خسرت كل شيء. قد رسبت في أكبر وأهم امتحان في حياتي... الامتحان المصيري.... الامتحان الذي لا يمكن المعافاة من السقوط فيه.... امتحان أعمالي في حياتي الدنيا. إن كرهني أين أذهب والسماوات والأراضون كلها ملكه؟! وما ظنكم بمصيري لو كان الله كارهًا لقائي؟!

وما دام أن كل شيء خلقه الله يحب الله، فإن كرهني الله فسيكرهني جسدي، وروحي ستكره نفسها، فأعيش في نزاع مستمر مع نفسي وأشعر بعدم الاستقرار الذي لا أجد له تفسيرًا ولا علاجًا. وهذه مرحلة من مراحل اليأس من الحياة، لأن النفس تكون مضطربة وهائجة كالأمواج في العاصفة، ولا يُسَكِنُها شيء إلا ربما الشهوات تُسكنها سكونًا بسيطًا ومؤقتًا، يعقبهن تدهور أكثر في الحالة النفسية، فأشعر كما وصف الله {ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ} [التوبة 118، جزء من الآية].

هي مرحلة أبحث عن شيء يسعدني ولكني لا أعرف عما أبحث أو أريد، ولا أعلم ما الذي سيرضيني، وكل شيء أفعله ليس له مذاق ولا يرضيني، إنها لحياة التيهة في الأرض. وهذا الحال عكس حال من آمن بالله حق الإيمان فأطاعه وأعرض عن معصيته، فإن الله يرزقه في الدنيا حياةً فيها السكينة والرضا والطمأنينة وسعادة الإيمان، وهذا دون جزائه الحسن في الآخرة {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [النحل 97].

فأعوذ بالله الذي أنقذني من تلك المرحلة من حياتي أن يردني إليها، أوقات لم أكن أعلم ماذا أريد من الحياة بثقة ودقة، وإنما أسير مع موكب الناس، ولم أكن أعرف نفسي فيها، ولم أعرف أين الحق والباطل بحقٍّ لأن معايير الحق والباطل كان يفتي فيها الناس، ولم أشعر أن لي كياني المستقل، المعتمد على قرارات شخصية بعد معرفة الحق. كنت تائهًا في الأرض ساعيًا في الحياة مثل الناس، مثل ما يسعى الغنم وراء بعضه دون تفكير، يسوقهم الأكل والشرب... وإن كان إلى الجزار أو للسقوط من حافة جبلٍ.

أيامٌ تمسكت بقشور الحياة ولم أذق من رحيق مقصد الحياة. وكما قال أحد الصالحين: لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فِيهِ من النعيم والسرور لجالدونا بالسيوف أيام الحياة عَلَى ما نحن

فِيهِ من لذيذ العيش وقلة التعب![1] (يقصد بذلك متعة لذة الإيمان، وقلة تعب الروح التي لا تتصل بربها). فلا أقول إلا كما قيل وسيقال في الجنة {وَقَالُواْ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلآ أَنْ هَدَانَا الله} [الأعراف، جزء من الآية 43].

الله يصبر عليَّ حين معصيتي له، فيمهلني لعلي أُقر بخطأي وأتوب، بل ويسترني حتى ذلك الحين. قال تعالى {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ} [النحل 61]. الحمد لله الذي يصبر علينا حتى ينقضي أجلنا، رحمةً منه لعلنا نتوب فيقبل توبتنا. هذه الآية ينبغي أن تكون مصدر قلق لمن يقرأها، خاصةً عندما يعصي الله، فهل نأمن مكر الله أن يأخذنا في لحظة المعصية؟ والله إن العبد لا يُكمل المعصية إلا بستر الله عليه! ما العهد الذي أخذه أحدٌ منا مع الله أنه لا يقبضه حين المعصية؟ فلا تتجرأ أيها العاصي ولا يرتاح بالك وأنت تعصي ربك، ولولا رحمته لعذب العاصي قبل أن ينتهي من معصيته. فما بالنا لا نطيق أن حقوقنا عند ظالمينا تؤجل لحظة في حين نحن نظلم ربنا باستمرار بعدم تأدية حقوقه علينا، بل وعصيانه. إنه لوضع مُتناقض.

وقال تعالى {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى} [إبراهيم 10، جزء من الآية]. هذا هو الواقع، أن الله يريد أن يغفر لنا ويدخلنا جنته، ولكن هذا لمن يسعى، والسعي يشمل طاعة الله والبعد عن معصيته، والاستغفار إذا أخفق المرء. بل ويمتد كرم الله أكثر من ذلك، فإن الله يصبر على العبد حتى يُنيب، فلا يُعاقب من عصاه عقابًا فوريًّا، وإلا لهلك العباد.

فأيُّ حلمٍ هذا، ومن ربٍّ قدير، الذي يصبر على العبد ويترقب توبته كي يغفر له ويُكرمه، وهو الغني عن عباده جميعًا! فقولوا لي ما رأيكم فيمن جاء يوم القيامة وكانت معاصيه أكثر من طاعاته بالرغم من كل تلك السعة من الله، ما ظنكم فيه؟ نسأل الله ألا نكون من الذين لم يشملهم الله برحمته ومغفرته بسبب تقصيرنا في حقوقه والاستكثار من عصيانه.

ومع أن الله، وهو من هو، يكره أن أعصيه فأتسبب في إغضابه، وما أنا إلا من أنا، فإن ذلك لا يمنعه من أن يصبر عليَّ وأنا أعصيه، بل وإنه ليزيد على ذلك الإحسان بأن يستُرَني كي لا أنفضح أمام الناس وأنا على معصيته. فأي كرمٍ هذا؟ وأي حرصٍ هذا؟! ومن الذي يفعل ذلك؟ ولكن المفاجأة أنه لا يزال هناك المزيد يُقدِّمه للعبد الصالح الذي وقع في المعاصي. وذلك يحدث في الوقت الذي نكون فيه في أمسّ الحاجة إلى طوق نجاة ويرى المرء أنه هالك لا محالة، وذلك في الآخرة. وهذا ما

[1] تاريخ دمشق لابن عساكر 6/302-303.

يرويه لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا "إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي الْمُؤْمِنَ فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ؛ حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ. وَأَمَّا الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُ الأَشْهَادُ {هَؤُلاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}"[1].

ربي، كيف سأقف أمامك وأنت تحاسبني؟ كيف ستحملني قدمي عندما تُذكرني بذنوبي وتقررني عليها؟ اللهم خفف علينا الحساب، فمهما بلغنا ومهما فعلنا فإننا لم نرضَ إلا أن نكون عبادك. ربي قد ثقلت عليَّ ذنوبي وكثرت، فكيف ستمر اللحظة وأنت تَعرض عليَّ ذنبي وأنا أعلم أن بعده ذنبًا آخر؟ اللهم اغفر لي وللمسلمين والمسلمات، الأحياء منهم والأموات، ويسّر حسابنا. اللهم إننا نخشى من الحساب الذي قال عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ حُوسِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ"، فَقالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): أَلَيْسَ قَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا}؟ فَقَالَ "لَيْسَ ذَاكِ الْحِسَابُ، إِنَّمَا ذَاكِ الْعَرْضُ، مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عُذِّبَ"[2].

فاللهم اجعلنا فقط نُعرَض عليك بالرغم من كثرة معصيتنا لك، دون أن يكون الحساب نقاشًا، فإنا لا نطيقه... اللهم أكرمنا يوم العرض عليك، وارحمنا فإنا عبادك أنت. اللهم لا تجعلني أُكَذِّب كتابي بسبب كثرة المعاصي فيُختم على فمي وتشهد عليَّ جوارحي، فأكون من الهالكين. اللهم إنا نقول من الآن ما سيقوله الأنبياء يوم الطامة الكبرى، اللهم سلّم سلّم.

هو الذي يحُثني بشدة أن أتوب، فما عليَّ إلا أن أستغفره وهو يكفل المغفرة. قال تعالى {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ} [إبراهيم 10]. انظروا إلى معنى التعبير "يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ"، أي أن الله يتودد لعباده أن يتوبوا، وأنه يُحب أن يغفر لعباده، وتلك هي إرادته بالرغم من غناه عنا، ومع أننا لن ننفعه ولن نضره.

إن الله يفرح بتوبة عبده، ويُحب إنابة عبده له، ولهذا يدعونا. ولكن حتى إن تأخر العبد عن التوبة، فإنه تعالى لا يُبادر بالعذاب، بل يعطي الفرصة تلو الأخرى، ويستخدم معه الأسلوب تلو الأسلوب، مثل الستر والعون والتفضل بالنعم والبيان والدعوة والابتلاء بالضراء، قبل الشروع في التعذيب. قال تعالى {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف 168].

---

[1] صحيح البخاري 2261.

[2] صحيح البخاري 5122.

فقد يتوقع المرء أنه بما أن العبد قد عصى ربه، فإنه سيستخدم فقط أساليب الابتلاء والعقوبات لردع ولغلق الأبواب على العبد حتى يُنيب، خاصةً أن العبد قد أغضب ربه بالعصيان. ولكن الحقيقة ليست كذلك، فإن "بِالْحَسَنَاتِ" المذكورة في الآية هي النعم، فلعل العبد يُنيب بناءً على امتنانه وحيائه من أن الله يُصبغ النعم عليه بالرغم من معصيته، وأن الله يعطيه مع أنه لا يستحق ذلك الكرم، فما ألطف ربنا بنا. فالحمد لله أن صفات الله كما هي، ولنغتنم عرض التوبة عندما لا يزال ساريًا.

إن الله لا يُبغض العبد الصالح بالرغم من أن العبد قد ينسى الله بعد نعمة حصّلها. إن العبد قد ينشغل بالنعمة أو في وقت الرخاء عن ربه، ثم يرجع إلى الله عندما تنفد تلك النعمة أو يُصيبه بلاء ليسأل الله ثانيةً، ومع هذا فإن الله لا يكره ذلك العبد ما دام صالحًا (أي يُحسن عبادة الله عامةً). ولكن مما لا شك فيه أن الأفضلية في المنزلة تكون للذي لا ينسى الله في السراء ولا الضراء. فالله يعفو عن العبد الذي يغفل أحيانًا عنه تعالى بسبب النعمة، لأن ذلك طبع الإنسان الذي جبله تعالى عليه، ولكن العبرة بما يفعله العبد في نهاية المطاف، وهو حسن عبادة الله، أي يشكر الله وينيب إليه عندما يفيق.

قد قال الله {وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ} [النحل 53]. وهناك آيات عديدة قريبة في المغزى من هذه الآية مثل {وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ} [فصلت 51]، وقوله تعالى "عَلَى الْإِنسَانِ" المقصد بها هو الكافر، فهذه الصفة غاية الوضوح في الكافر، ولكنها طبعٌ في الإنسان وجب علينا مقاومته. وبناء على درجة مقاومة العبد لتلك الصفة، فإن لها درجات بين العباد، وأقل ما قد يُوصَف به العبد التي تظهر عليه تلك الصفة أنه ناكرٌ للجميل وأناني، وفي أشد الحالات تُفضي بالمرء إلى الكفر كما في قول الله تعالى {فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ} [العنكبوت 65]، فهو طبع وجب تقويمه عند العبد.

فكم يُرثى لحالي، فما عندي من نِعم تكون منك ربي ولا أشكرك عليها كما ينبغي، بل وقد أنسى ذكرك بسبب هذه النعم، بل وربما عصيتك بها، ثم لا أتقرب وأتودد إليك بإخلاص إلا بعد ضُرٍّ أصابني لحاجة أريدها منك. وبالرغم من كل ذلك، فإنك لم تمنعني من دخول بيتك كي أعبدك فيه عندما تحين الصلاة، ولم تسلب مني القدرة على الأعمال الصالحة، فأرجو أن يكون ذلك علامةً على عدم بُغضك لي، وألا تكون قد مكرت بي فتتركني أعمل العمل الصالح ثم لا تقبله مني. ربي، هل تعفو عنا وتغفر لنا على إقرارنا بزلاتنا وبالرغم من تقصيرنا؟ سبحانك ما نحن إلا عبادك، بنا عيوب كثيرة ولكننا نجمع على أننا عبادك، فاغفر لنا لأننا ليس لنا رب نرجوه سواك، ولكن لك عبادٌ غيرنا أفضل

منا، ونعلم أنك قادر على أن تستبدلنا بمثلهم إن شئت، فأدخلنا في رحمتك برحمتك لأن عملنا لا يبلغ حقك علينا.

بُشرى لكل مُسلمٍ: إن الله يغفر لك بلا شك إذا استغفرت، ما دمت مُخلصًا له. قال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلا بَعِيدًا} [النساء 116]. الحمد لله الذي وسَّع لعباده مجال التوبة، والذي يفرح بتوبتنا بالرغم من غناه عنا. الحمد لله الذي لا ينظر إلى عظم المعصية أو تكرارها (ما لم تكن شركًا) بقدر ما ينظر إلى مدى ندم العبد وإنابته وتوبته، فيرضى الله عن ذلك العبد. إذًا لماذا لا أنتهز فرصة التوبة الواسعة ما دامت قائمةً، بدلًا من تأجيلها، خاصةً أني أرى أن الله يقبل التوبة مرارًا وتكرارًا. هذا حتى لو تكررت نفس المعصية بعينها ما دام العبد ينوي ويجتهد في ترك المعصية كل مرة ولكن يقع فيها ثانية، فليس هناك ما يمنع من تكرار الاستغفار والتوبة ما دام صادقًا فيهما.

وذلك استنادًا بأحاديث كثيرة، منها الحديث القدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ""إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي"[1]. وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يُكثر الاستغفار مع أنه قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ولم يعصِ الله قط، وذلك يعني أنه كان يريد أن نتعلم ذلك منه ونتأسى به في ذلك. وهناك حديث، ضعيف الإسناد، أنه (صلى الله عليه وسلم) قال "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْعَبْدَ الْمُفَتَّنَ التَّوَّابَ"[2]، أي العبد الذي يداوم على التوبة بعد أن يُفتن بزينة الدنيا فيقع في معصية.

فلا بأس من، بل ومحثوث على كثرة الاستغفار ولو وقع في المعصية ثانية، حتى إن غلب عليه الظن أنه سيقع فيها ثانية، المهم ألا يكون يُخطط لمعصية المرة القادمة وهو يستغفر وإلا فهذا أشبه بالاستخفاف بالمغفرة، وقد يدخل المرء في نطاق مكر الله إذا أكثر من فعل ذلك.

في حديث قدسي آخر قال (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَسَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلا مَنْ أَغْنَيْتُ فَسَلُونِي أَرْزُقْكُمْ، وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلا مَنْ عَافَيْتُ، فَمَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي غَفَرْتُ لَهُ وَلا أُبَالِي، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَشْقَى قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ

---

[1] مسند أحمد 10807.

[2] مسند أحمد 769.

عِبَادِي مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلَ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْكُمْ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُ كُلَّ سَائِلٍ مِنْكُمْ مَا سَأَلَ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي إِلا كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ بِالْبَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ رَفَعَهَا إِلَيْهِ، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ أَفْعَلُ مَا أُرِيدُ، عَطَائِي كَلامٌ وَعَذَابِي كَلامٌ، إِنَّمَا أَمْرِي لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْتُهُ أَنْ أَقُولَ لَهُ 'كُنْ' فَيَكُونُ"[1].

فلا يُعقل أن يُنبئنا الله بهذا الكلام ثم يَرُدُّ طالب المغفرة خائبًا دون أن يكون قد عُفي عنه، فما بالنا بمن ألحَّ طالبًا للمغفرة؟ والله إنه لرب رؤوف رحيم، وكل ما علينا فعله فقط هو أن نطلب منه المغفرة. إن الله بعظمته يقبل القليل من العمل بالرغم من عدم تناسب العمل مع عظمته، وهذا يشير إلى مدى عظمته تعالى! فهذا زمن اغتنام الفرص بالتوبة ما دُمت في صلب ابن آدم، لأن الله يستجيب لأنين التائب فيواسيه بالمغفرة.

وفي بُشرى لكل مسلم تزيل أي أثر لليأس أو للشك في أن المرء يُغفر له الله إذا استغفر، قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا (وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا، شك الراوي) فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ (وَرُبَّمَا قَالَ أَصَبْتُ) فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي؛ ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا (أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا) فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ (أَوْ أَصَبْتُ) آخَرَ فَاغْفِرْهُ، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي؛ ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا (وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا) قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ (أَوْ قَالَ أَذْنَبْتُ) آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي (ثَلاثًا) فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ"[2].

والمغزى من "فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ" أي أن ما دام العبد يذنب ويطلب المغفرة من الله سيُغفر له، فتلك هي الفَسَحَة التي منحنا الله إياها في هذا الحديث، ولله الحمد والمنة. فالحمد لله على مغفرته ورحمته وعفوه، ولولا ذلك لهلكنا جميعًا. لو أن الله خلقنا ثم حاسبنا دون أن نعمل (لأن علمه يحيط بمن هو سيُفسِد ومن هو سيُصلِح من قبل أن يعمل العبد عملًا، لأنه هو الذي خلقنا فيعلم ما سنختاره عندما يفتح لنا باب الحرية)، فأدخل من يشاء إلى الجنة وأدخل من يشاء إلى النار، لن يكون قد ظلمنا.

ذلك لأنه يعلم من سيستحق الجنة إن أُرسل إلى الدنيا، ويعلم من سيستحق العذاب إن أُرسل إلى الدنيا. ولكن من رحمته أنه تركنا نعيش في الدنيا كي نعايش كل اختيار يُطرح أمامنا لنتذكر اختياراتنا في أعمالنا، ونستيقن أننا فعلناها يوم الحساب حتى لا يقول قائل: ما كنت لأفعل كذا إن عشت في الدنيا. وهذا من رحمته وكرمه وعدله ورأفته بنا، لأنه غير مُلزم أن يعطينا فرصة تلك التجربة.

---

[1] سنن الترمذي 2419.

[2] صحيح البخاري 6953.

وليس فقط ذلك، بل إن الله يترقب توبة العبد، والأدلة على ذلك كثيرة، منها الحديث "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟"[1]. وجاء في حديث آخر "اللَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضٍ فَلاةٍ"[2] (سَقَطَ أي عثر عليه؛ أَرْضٍ فَلاةٍ هي الأرض المفازة، وهي التي ليس فيها ماء، مثل الصحراء).

فإنه تعالى لا يزال يفيض علينا بالفُرَص والدعاوى للتوبة، فهو يحب توبة العبد لعدة أسباب، منها أن الله يحب أن يغفر لعباده (ولكن المغفرة تستلزم إبداء الرغبة من العبد عن طريق طلبها)، ومنها أن الله يحب العبد المُقِر بأُلُهِيَّته وربُوبيته تعالى. ومنها أن التوبة تجعل العبد يُقِر بضعفه وعجزه، فينكسر ويخضع لله، فيُسَلِّم لعظمة وكبرياء الله. وأيضًا أن العبد المنكسر يتردد في اللجوء إلى الله، ويُبيِّن أنه فقيرٌ إلى ربه، ومن ثَمَّ محتاجٌ إليه، والله يُحب أن يلجأ إليه عباده.

إضافة إلى ذلك، فإن الله يحب المتواضعين له كما في الحديث "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ"[3]، والتوبة أسلوب من أساليب تواضع العبد لله، وهي تقرب العبد من ربه لأن العبد يدرك أنه لا حول له ولا قوة، وإنما وُجوده وقُدرته وتوفيقه ومدده من الله. أما المعصية فهي نوع من أنواع التكبر لأن المعصية تعدٍّ على الحدود التي وضعها الخالق للمخلوقات، والمعصية تلو المعصية تُغيِّر القلب إلى أن يكون أسود قاسيًا، والقلب القاسي قلب متكبر.

السؤال هو... هل جملة "فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ" رخصة لمعصية الله؟ فالإجابة لا، إنما هي حثٌّ على التوبة وبيانٌ على مدى فائدتها ودرءٌ للقنوط من رحمة الله. فالواجب أن العبد لا يعصي الله، ولكن الله بحكمته خلق الإنسان ضعيفًا، فيعلم أن العبد سيقع في معصيته لا محالة، فبرحمته منحنا مخرجًا مضمونًا من المعاقبة على المعصية، وهو الاستغفار. والمقصود هنا أن الله يرينا مدى رأفته بنا ويدرأ اليأس عنا، وليس المقصود أن الله يأذن لنا بالإسراف في تعدي حدوده.

فالمقصد من "فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ" هو أن الله لا يزال يغفر للعبد ما دام يستغفر بعد الذنب، وهذا ما ذُكِر في فتح الباري وشرح النووي. فلا داعي أن ييأس العبد بعد المعصية مهما كثرت وبلغت، ما دام يستغفر ويتوب بصدق. والمحافظة على رغبة العبد في إصلاح وضعه أفضل من أن ييأس فيترك فكرة الإصلاح جُملةً، حتى إن تأخر العبد في الإصلاح، إذ إن وجود رغبة الإصلاح يكون بريقًا من

---

[1] صحيح البخاري 1077.

[2] صحيح البخاري 5834.

[3] صحيح مسلم 4689.

الأمل في خروجه من سوء حاله. فالمطلوب هو عدم اليأس مع عدم الاغترار، فأي واحدٍ منهما يؤدي إلى الإسراف في المعاصي.

وهذه العبارة شبيهة في المعنى بالحديث "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا"[1]، والفسحة لا تعني الحرية في تعدي حدود الله ما لم يَقتل نفسًا، إنما تعني أنه في يسر من التوبة عن أعماله إلا إذا أصاب دمًا حرامًا (أي قتل نفسًا بغير حق). فإياك أخي إصابة الدم الحرام، أو حتى تشترك في ذلك سواء بالفعل أم القول بأن تُعين أو تَدُل أو تُحَفّز القاتل، أو حتى تؤيده أن يقتل، فتُقَلِّص من فُرص نجاتك في الآخرة.

بالتأمل في هذا الحديث، أدركت أنه من المستحيل أن نحمد الله كما يستحق أن يُحمد، ولو اجتمعت كل المخلوقات وحمدوا الله منذ يوم خلقهم إلى يوم فنائهم، فلن يوفُّوا حق الله في الحمد. وكما كان يقول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (في جزء من دعائه) "لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ"[2].

محاولة استيعاب مدى عظمة وقدرة الله. كلنا نعلم أن الله هو الخالق والقادر والكبير العظيم، ولكن كم منا تفكر في ذلك؟ فهناك آيات في القرآن وأحاديث تجعل المرء يستوعب جزئيًّا عظمة الله. فعلى سبيل المثال، عندما يأتي {يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاء كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ} [الأنبياء 104] فهذا يجعل المرء يتساءل، بهذه البساطة يفعل الله ذلك؟! السماء، التي هي مجالنا وعالمنا كله الذي نعرفه، ننشأ ونعيش تحت سقفها وتُحيط بنا، يطويها الله يوم القيامة كأنها صفحة في كتاب؟ حقًّا، سبحانك ربنا ما قدرناك حق قدرك {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ} [الزمر 67]، ولو قدّرناك حق قدرك ما كنا لنتجرأ على معصيتك قط.

وعلى ذلك الوزن، نرى آيات لا تستوعب عقولنا كامل أبعادها ولكننا نُميّز عظمة قائلها مثل {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم 48]. وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَطْوِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟"[3].

---

[1] صحيح البخاري 6355.

[2] صحيح مسلم 751.

[3] صحيح مسلم 4995.

فبما أن عقولنا لا تستوعب عظمة الله، فلا يمكن الإجابة على السؤال "من هو الله؟" حق الإجابة، وما يسعنا إلا أن نقرأ ما قاله الله عن نفسه العليا {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (22) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (23) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الحشر 22-24]. {قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ} [يونس 31].

{قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (84) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (85) قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (86) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (87) قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (88) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ} [المؤمنون 84-89]. {اللهُ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ} [البقرة 255].

وحتى نأخذ لمحةً عن هزلنا أمام الملكوت الأعلى، يروي لنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) عن ملكٍ من الملائكة الذين يحملون عرش رب الكون "أُذِنَ لِي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ مَلائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِائَةِ عَامٍ"[1] (شَحْمَةِ أُذُنِهِ هي القطعة المتدلية من الأُذن؛ إِلَى عَاتِقِهِ أي ما بين منكبيه، وهو أصل الرقبة). فهذا أحد حملة العرش، فما بالنا بالعرش نفسه؟! فكيف لنا ونحن بهذه الضآلة أن نعصي الله؟

عامةً، إن عظمة الله تظهر ليس فقط في قوته وقدرته، بل تتجلى أيضًا في جوانب أخرى مثل رحمته، وكرمه، وحِلمِه، وغناه عن كل شيء، وعفوه، ولطفه، وكمال صفاته، وبراءته من أي عيب أو نقص، وغير هذا. والسؤال هو: كيف يجعل تعظيم الله العبدَ أكثر تقوى؟ الإجابة تشمل عدة جوانب، منها:

- مع تعظيم الله يزداد العبد حُبًّا لله من باب حِلمِه علينا بعد علمه بقبائح أعمالنا مثلًا، ولمدى عفوه بالرغم من قدرته علينا، ولدعوة عباده للهدى وصبره علينا بالرغم من غناه عنا، فيسعى العبد في تنفيذ ما يُرضي الله ويُفرِحه.
- مع تعظيم الله يهاب العبد من ربه، ويخشى بطشه، فيتجنب إغضاب الله.

[1] سنن أبي داود 4102.

- مع تعظيم الله يدرك العبد مدى صغره وضعفه وهزله في هذا الكون الذي خلقه الله، لاسيما أمام الله، فيتواضع لله، وينتج عن هذا أن العبد يرضى بمقام العبودية وبأحكام الله، فيجتهد في التعبُّد ويُطبِّق شرع الله.

- مع تعظيم نعم الله، يستحيي العبد من أن يعصي ربه الذي أحسن إليه بإفاضة النعم العظيمة عليه، حتى من قبل أن يُقدِّم العبد شيئًا لله. وأيضًا يستحيي العبد من أن يراه ربه العظيم على المعصية التافهة، إذ إنه تعالى يُراقبه دائمًا. وأيضًا يستحيي العبد من أن يعصي الله بعدما تجاوز تعالى عن كثير من قبائح العبد، بل وسَتَره.

فتعظيم الله مسألة مهمة في جعل العبد أكثر تقوى لله. ودلالات تعظيم العبد لربه متعددة، منها الرضا والتسليم لشرع الله، ولحُكمه تعالى في فصل المسائل {فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا} [النساء 65]. يقول ابن القيم (رحمه الله): فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه، وتعظيم الأمر دليل على تعظيم الآمر[1].

ومن دلالات التعظيم هو الغضب لما يُغضب الله، فيغضب العبد عندما يُخالف أحدٌ أمر الله وينتهك حدوده تعالى {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ} [الحج 30]. بل والدرجة الأرفع هي تعظيم شعائر الله أيضًا (حتى في تقديم الأُضحية فتكون قوية وسليمة، واختيار المال الطيب الجديد عند الزكاة) {ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج 32]. ومنها تعظيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي أوصى بهما الله.

ومن الجوانب المهمة من تعظيم الله هو إجلاله وتوقيره بحيث إن العبد لا يُعَظِّم شيئًا أو شخصًا مثل ما يُعَظِّم الله، فلا يكون أمر ونهي، أو رأي أو منطق أحد فوق شرع الله. ومنها التفكر فيما خلقه الله، وكثرة ذِكره والتعبد له، والتطلع في علوم الدين، وكثير غير ذلك. وللعلم، فإن العلاقة بين تعظيم الله ومؤشرات التعظيم علاقة متبادلة، بمعنى أنه مثلًا من يتفكر في خلق الله يزداد تعظيمًا لله، ومن يُعَظِّم الله بطُرقٍ أخرى يجد نفسه يتفكر فيما خلقه الله أكثر.

إن الله لا يظلم أحدًا أبدًا وهو العليُّ الجبار، بالرغم من الإساءة والظلم البالغ اللذين يصدران من الإنسان. إن الله بالرغم من إحكامه التام على كل الخلائق فإنه لا يظلمهم أبدًا ولو طرفة عين، مهما تمادوا في عنادهم أو حتى محاربتهم لله. وهل هناك أظلم من الشرك بالله، فهو بمنزلة السب لله كما

[1] الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي 1561/4.

في الحديث القدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَزَعَمَ أَنِّي لا أَقْدِرُ أَنْ أُعِيدَهُ كَمَا كَانَ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لِي وَلَدٌ، فَسُبْحَانِي أَنْ أَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَدًا"[1]، وغير ذلك مثل مقالة الكفار أيضًا إن الله فقير وإن يد الله مغلولة. وبالرغم من هذا كله، فإن غضب الله عليهم بسبب وقاحتهم وكبرهم وغرورهم لا يؤول إلى أن يظلمهم، ويحاسبهم على قدر نصيبهم من أفعالهم.

وذلك مع الكافر، حتى إن الله ليرزقه وينعم عليه في الدنيا في حين ذاك الكافر يمكث على سب الله أو التكذيب به أو الشرك به، فكيف يُعامل الله من هو من الطرف الآخر، أي من يشهد أنه لا إله إلا الله؟ من يشهد بالله لا يُسيء مثل تلك الإساءات مع الله، ولكن عمله ما بين تقصيرٍ وزلات بالوقوع في مُخالفته بالمعصية.

وذلك ما يتبين لنا ويُبهجنا ويمنع اليأس في حديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، نبأنا فيه "إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الْخَلائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًا كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟ قَالَ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ. فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لا ظُلْمَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ؛ فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. فَيَقُولُ: أَحْضِرُوهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاتِ؟ فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ؛ فَتُوضَعُ السِّجِلاتُ فِي كَفَّةٍ فَطَاشَتْ السِّجِلاتُ وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ، وَلا يَثْقُلُ شَيْءٌ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"[2] (فَيُبْهَتُ أي يندهش ويتحيَّر؛ فَطَاشَتْ السِّجِلاتُ أي خَفَّت).

وحريٌ بملاحظته هو أن الله يستخلص ذلك الرجل على رءوس الخلائق، ففي ذلك بيان على مدى رحمة الله، إذ إنها تسرية للمسلمين الذين شهدوا شهادة الحق ألا ييأسوا ويستبشروا، وأن عدل الله يقتضي أن كل مسلم يدخل الجنة بلا استثناء عاجلًا أم آجلًا، وهذا هو عدل الله مع المسلم. والحمد لله أن صفات ربنا هي صفاته، فله الحمد كما يحب ويرضى، فإنه ليس بظالم، وفوق ذلك فإنه رحيم، أي أنه لو بعَدلِه جازانا على أعمالنا بالحق لاستحققنا النار إذ لا نستطيع وفاء حقِّه علينا، ولكن تبرز رحمته بنا فيعفو عمن يشاء. فلا يأس لأن خالقنا هو الله الرحمن الرحيم وحده وليس غيره، ولا أحد معه ليُحاسبنا أو يُجازينا.

---

[1] صحيح البخاري 4122.

[2] مسند أحمد 6699.

إذا كان الله غنيًّا عن أن يُعذب من لا يُفسد في الأرض، فكيف يكون مع عباده المخلصين؟ إن الله قد حرّم الظلم على نفسه، ومما يترتب على ذلك أنه لا يُعذِّب في الدنيا من لا يُفسد في الأرض، كما تدل سياق الآية {مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ} [غافر 31]. فلم يكن الله ليُهلك هؤلاء إلا أنهم ظلموا وأفسدوا وعتوا، وإلا لكان ظُلمًا لهم. ومن ثَمَّ، يُتوقع أن تكون هناك كرامةٌ أفضل للمتقين، من باب العدل في أضعف الافتراضات. فحقًّا، {مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} [النساء 147]. إن الله لا يُهلك من آمن به وأطاعه، بل وإنه تعالى يحميهم ويُكرمهم، وذلك في الدنيا والآخرة، في حين قد يُهلك من كفر به أو أسرف في معصيته.

وأريد أن أذكر نقطة قد يغفل عنها البعض، وهي أن ما يقال عليها "الكوارث الطبيعية" إنما هو عقاب من الله، إذ إنه لا يقع شيءٌ إلا بأمر أو إذنٍ من الله، ولكن نفس الإنسان إما تغفل وإما تريد أن تنكر الاعتراف أن هذا من عقاب الله، خاصة الذين لا يؤمنون بالله. والإنكار سببه هو أن الإقرار أن ذلك عقابٌ من الله يعني الإقرار ضمنيًّا أن المرء على خطأ، ووجب عليه إصلاح نفسه بتغيير ممارساته.

وفي لفتة جانبية في الفرق بين وقوع شيء بأمر من الله أو بإذنٍ من الله، فأمر من الله يدل على إرادة الله في أن يُحدث شيئًا فيقول له كُن فيكون. أما الإذن من الله فيكون في حالة وقوع شيء لا يُحبّه الله مع قدرته المطلقة على منع وقوعه، مثل عندما يُقبل العاصي على معصية فيرتكب شيئًا قد نهى الله عنه، فإن الله لا يمنعه لحكمته في أن يُسَجَّل على المرء أعماله بالدليل القطعي، ولو أراد الله عدم وقوعه لما وقع دون شك. فتركُ الله لهذه المعصية أن يُحدثها العبد يكون بعد إذنٍ من الله لها أن تحدث، وهذا يندرج تحت إطار الحرية المؤقتة التي يمنحها الله للإنس والجن، ولا يمكن قول إن الله أمر أن تقع تلك المعصية إذ إن الله لا يأمر بالفحشاء.

ورجوعًا للموضوع الأساسي، إنما تلك الكوارث هي صيغة عذاب الله، والدليل هو أن بعضها مذكورة في هذه الآية {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [العنكبوت 40]، وأن قوم عاد أُهلكوا بالريح العاصف، وهناك غير ذلك مثل الطفيليات والأمراض التي لا تزال تستجد حتى يومنا هذا. أليس الله مُتحكمًا في جميع الأمور؟ فلا تستطيع أن تضرب عاصفةٌ أو بركانٌ أو سيلٌ أو زلزال أو وباء أو غير ذلك دون أمرٍ من الله. وإن أمر الله أن يحل شيءٌ من ذلك على مجتمعٍ عامته مؤمنين متقين فسيكون ذلك ظُلمًا، بل وقضاءً على كلمة التوحيد في الأرض، مما يُنافي المنطق. ولكن قد حرّم الله على نفسه أن يَظلم، ولكنه يُظلَم من عباده ويصبر عليهم بالرغم من قدرته علينا، فالحمد لله وسبحان الله.

بل من عدله تعالى أنه يرسل العقاب بحسب نوع الذنب، وكما جاء في الآية المذكورة آنفًا من اختلاف أنواع العقاب فهو ليس عشوائيًّا، ولكنه بسبب أن العقاب من جنس العمل (أي نوع الذنب الذي ارتُكب). وبما أن الذنب اختلف فلزم ذلك اختلاف العقاب من باب العدل، وهذا المبدأ مدلول عليه في عموم معنى قول الله تعالى {جَزَاء وِفَاقًا} [النبأ 30]. مثالًا على ذلك ما حدث لقوم لوط، فقد رُفعت القرية ثم قُلِبت على أهلها، وذلك لأنهم قلبوا فطرة الإنسان في أن الرجل يتزوج المرأة فجعلوا الرجل يأتي الرجل. ففي كل قومٍ أهلكهم الله هناك ارتباط بين نوعية العذاب وبين معصيتهم، وفي ذلك مجالٌ لتفكر المتفكرين. وكل ذلك والله لم يظلمهم، بل هؤلاء جلبوا الهلاك لأنفسهم بأعمالهم. فكم يبلغ عدل الله معنا، وما مدى إساءتنا لله وظلمه بالتقصير في حقه، بل وقد بلغ أناسٌ في ظلمه إلى أن نسبوا إليه ولدًا.

ومن أبرز الأدلة على أن تلك الكوارث إنما تنزل فقط على أقوامٍ عصوا الله هو ما قاله سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، عندما حدث زلزال في المدينة وهو خليفة المسلمين آنذاك، فَخطب في الناس يُحذِّرهم: أَيُّهَا النَّاسُ، مَا أَسْرَعَ مَا أَحْدَثْتُمْ، لَئِنْ عَادَتْ لا أُسَاكِنُكُمْ فِيهَا[1]. قال هذا وهو على يقين أن ذلك بسبب ذنوب الناس التي أحدثوها، ورأى أنه إذا عاد الزلزال فالأفضل أن يتبرأ من رعيته ويخرج من المدينة، إذ قد يجلبون عليه هلاكًا في الدنيا بتعميم العذاب وإصابته معهم، بالإضافة إلى الحمل في الآخرة لأنه كان مسؤولًا عنهم في الدنيا! سبحان الله، أين نحن من إيمانه وبصيرته (رضي الله عنه)؟

بل ومن قبله أشار سيدنا موسى (عليه السلام) إلى هذه الظاهرة في سياق كلامه {وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ} [الأعراف 155]. فكلامه (عليه السلام) يدل على أنه يتيقن أن الرجفة كانت بسبب ذنوب السفهاء التي تفشَّت.

فحقًّا، إن الله لا يريد ظلمًا للعباد، فلا تَظلم إن أردت أن لا تُظلم يا عبد الله، لأنك عندما تَظلم أحدًا يُقتص منك يوم القيامة لا محالة، فتكون قد ظلمت نفسك لأن ظُلمَكَ إنما يُرد عليك، وفي المُحصِّلة فإن الذي ظلمته سيُرد له حقَّه ليرضى فلن يكون مظلومًا. وأعلم أن المعصية قد تجلب عقابًا من الله في الدنيا بالإضافة إلى الآخرة، وأن البلاء الذي يصيب المرء إنما يكون بذنوبه، ولكن البلاء الذي يصيب القوم يعني أن أغلب الناس قد أكثروا الفساد. نسأل الله العفو العافية والهدى والتقى والثبات والعون وصلاح الحال.

---

[1] المنتظم في تاريخ الأمم لعبد الرحمن بن الجوزي 295/4.

ما سعة رحمة الله ومدى عفوه؟ حتى نبدأ إدراك مدى عفو الله، يجب أن نتكلم عما هو قبل عفوه عنا عندما نعصيه، وهي رحمته علينا. إن رحمته تعالى، فيما يتعلق بمحاسبتنا، تبدأ بالتماس كل عذر لعبده قبل أن يكتب عليه الخطيئة، إذ إنه تعالى يُحب أن يُعذِر عباده لأقصى الحدود. يدل على ذلك جزء من حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "وَلَا أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنْ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنْذِرِينَ"[1].

وقد يظن البعض أن الحديث يتعلق بإعذار الله عباده فقط في قضية الإيمان به، إلا أن الأدلة تشير إلى أن الإعذار أوسع من ذلك. ومثال على هذا هو حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ: عَنِ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنِ الْغُلامِ حَتَّى يَحْتَلِمَ، وَعَنِ الْمَجْنُونِ حَتَّى يُفِيقَ"[2]. حتى إن هَمّ وأعدّ العبد لمعصية، ثم أعرض عنها ولو في آخر لحظة، فإنها لا تُكتب عليه. فهذه هي البداية، أن الله يُعذرنا قبل أن يكتب علينا معصية.

فإذا لم ينطبق على أحدنا تلك الأعذار، فإن السيئة الواحدة تُكتب ويُحاسَب عليها العبد كسيئة واحدة، دون تضعيفها. وهناك فرصة أن يُتجاوَز عن تلك السيئة فلا يؤاخذ العبد عليها (المؤاخذة غير المُحاسبة والمُساءلة عليها، واللتين قد يقعان)، وهذا إذا انطبقت عليه أحد شروط ما نبأنا به سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"[3].

فإن كُتبت وكان العبد غير معذور، فهناك سِعة ما بعد أن تُكتب معصيتنا علينا، فقد قال الله عن عفوه {وَاللهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا (27) يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا} [النساء 27-28]، أي أن باب العفو مفتوح أمام التوبة. وحقيقة معنى أن الله هو التواب لها عدة جوانب، فقد جاء في تفسير السعدي: فهو التائب على التائبين أولًا: بتوفيقهم للتوبة والإقبال بقلوبهم إليه، وهو التائب على التائبين [ثانيًا:] بعد توبتهم قبولًا لها وعفوًا عن خطاياهم[4]. وجوانب أخرى عندما وصف الله نفسه بالتوّاب هي لكثرة من يتوب عليه، ولتكريره ذلك في الشخص الواحد حتى يقضي عمره.

فما هذه الرأفة؟ إنها حقًّا لرأفة رب العباد على العباد. سبحان الله، بالرغم من عصياننا لله فإنه لا يأخذ بنا حتى يعطينا بدل الفرصة آلاف الفرص، إلى أن يحين أجلنا، وبدل أن يغضب علينا

---

[1] صحيح البخاري 6866.

[2] صحيح ابن حبان 142.

[3] سنن ابن ماجه 2033.

[4] تفسير السعدي 300/5.

يحلُم علينا لعلمه بضعفنا وعِلَلِنا. هذه دعوة لنا من الله أن نرجع إليه. وأي دعوة تصدر من شخصٍ لا تدعو لله، فيقينًا أنها دعوة لتلبية مصالح الداعي وليست لمصالح الناس مهما بلغت النيات، وأنها في نهاية المطاف تُضل عن السبيل لله كما نُبئنا في قوله تعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام 153].

ومثال لتلك الدعوات ما نراه في العصر الحالي هو بزعم بعضهم أنه رسول أو نبي، أو في أقل الأحوال مُلهَم في إصلاح الأرض. فقد ظهر أن من رؤساء بعض تلك الطوائف من يستبيح لنفسه النساء في الطائفة دون غيره، ومن يزعم أن يوم القيامة يوم كذا وعليهم الاستعداد له بفعل كذا. فلا يزالون في ضلال وعادات جاهلية حتى نُقل إلينا عن طائفةٍ منهم دعى قائدها إلى الانتحار الجماعي، ففعلوا، حتى إن الآباء والأمهات قتلوا أولادهم قبل أن ينتحروا لتحقيق ذلك الهدف، وكانت مأساة كبيرة.

وللأسف إن من أساسيات تلك الطوائف من دعوات افترائية هو نبذ الدين ولو عن جوانب مُحددة من الحياة، مثل السياسة، حتى إن بعضًا منهم وصلوا أنهم يُحاربون الله علنًا لترسيخ مبدئهم لدى الناس. وإذا نُظر إلى تطبيقهم للإسلام، للذين يزعمون أنهم مسلمون، خارج النطاق الذي يريدون فصله منه (مثل السياسة)، فتجد أن حتى في حياتهم العامة يتهاونون بالدين، مثل عدم الحفاظ على الصلاة أو انتقاد حجاب المرأة أو التهاون بالأمانة في المال. فأين مصداقيتهم فيما يدعون إليه وهم لم يُطَبِّقوا شرع الله في حياتهم العامة حتى، بل ويُحاربون شرائع الله. كيف يزعم مثل ذلك الشخص أنه مؤمن بالرغم من أن أعماله لا تدل على أنه يؤمن بملاقاة حسابه؟!

والمؤسف أكثر أن هناك فئات من الناس تكفلوا بتفعيل ذلك الفكر حتى ساد التطبيع بيننا وبين دول تُعادي الإسلام صراحةً، فأصبحنا حُلفاء لدول تُحارب الإسلام وتُقَتِّل في المسلمين! فاللهم سلِّم، فإنها فتن الليل المُظلم. فكل تلك الطوائف قد أقبلوا على الجهل والظلمات والذلة بعد أن وهبهم الله النور والعزة. فأي الدعوتين نستجيب لها؟ دعوة الله الذي خلقنا ويريد مصلحتنا والعفو عنا، ولن ننفعه أو يستفيد شيئًا إذا أجبناه، أم دعوة الداعين لغير الله المبنية على الشهوات والأغراض الشخصية ومنطق العباد؟

كل دعوة لغير أمر الله تكون دعوةً للشهوات أو لتحكيم العقل المحدود فوق الغيبيات، وتدعو للهلاك المحتوم المُتوارَى. وكيف نثق في داعٍ ليس له ولاءٌ لخالقه بعبادته، ويزعم أنه يريد مصلحة أتباعه مع أنه لا يُرشدهم إلى خالقهم، ويكون مبدأه يوم القيامة "نفسي نفسي"؟! وهذا ما تَمَثَّل في قول فرعون {قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} [غافر 29، جزء من الآية]، ثم يتبين أن هناك فارقًا كبيرًا بين قوله وعمله، إذ إنه كان يُفسد في الأرض ويظلم فئات من الناس ويتعالى عليهم، مع أنه قال إنه يبتغي مصالحهم والرشد! أليست تلك بخيانة؟ ومن أحق بتلبية دعوته

ممن وعدُهُ الحق، ولا مثيل لعظمته، ويدعو الضعفاء للرجوع إليه بالرغم من غناه عنهم؟ فدعوته لنا بالرغم من أننا لن ننفعه ولن نضره، ونرى أن كل نصائحه لنا منفعة، تؤكد أنه يريد مصلحة من يدعوهم.

فالحمد لله الذي يقابل معصيتنا له بوعد المغفرة لمن يُقبِل عليه ويتوب، والحمد لله الذي يريد أن يخفف عنا لضعفنا وجعل لنا براحًا من أرض التوبة، إنه حقٌّ لرب العباد وإنه حقًّا يريد مصلحتنا. فيا أيها العاصي، لا تيأس من سعة عفو الله، فإن الله يسعد بتوبة العبد لدرجة أنه يمحو المعصية كأنها لم تكن، وإن بلغت ما بلغت، وتكررت ما تكررت، ومكثت ما مكثت، وتنوعت ما تنوعت، بل وقد يُبدِّل السيئات بالحسنات يوم القيامة! فإن الله لا ينظر لذلك بقدر ما ينظر إلى سرعة وكيفية رجوع العبد بالتوبة، ووالله إنه لأمرٌ مخجل لنا أن يريد الله أن يتوب علينا ويصبر فلا نتوب نحن، وهو الغني عنا ونحن الفقراء إليه، ولن ننفعه بتوبتنا ولكن نضر أنفسنا بتركها بالرغم من يُسرها علينا، فبئس الصنيع. فماذا ننتظر، سلب النعم أم الأدهى من ذلك وهو سلب الروح، وقد كان باب التوبة مفتوحًا على مصراعيه.

فأي تأجيل بعد هاتين الآيتين، وبعد سماع أحاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) مثل "للَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ"[1] (بِخِطَامِهَا هو الحبل الذي تُربط به الدابة). وفي حديثٍ قدسيٍ جاء عنه (صلى الله عليه وسلم) "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً"[2] (بَاعًا هي مسافة مد اليدين، فالمراد أن الله يتفضّل بالتقرب إلى العبد أكثر وأسرع من إقبال العبد على ربه).

وجاء أيضًا عنه (صلى الله عليه وسلم) "كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ، فَقَالَ: لا، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً. ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ، فَقَالَ: نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ، فَاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ. فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا

[1] صحيح مسلم 4932.

[2] صحيح البخاري 6856.

مُقْبِلا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ؛ وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ؛ فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ"[1].

وفي رواية أُخرى جاء أن الله أدخله برحمته في نطاق عفوه بأن قرَّب إليه أرض التوبة وأبعد عنه أرض السوء "فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي"[2]. فقد عفا عنه الله بالرغم من أن إبليس قد قال في هذا الرجل عندما اختصمت الملائكة عند موته "قَالَ إِبْلِيسُ: أَنَا أَوْلَى بِهِ، إِنَّهُ لَمْ يَعْصِنِي سَاعَةً قَطُّ"[3]. قد غفر له الله فقط لصدق رغبته في التوبة مع بداية الأخذ بأسبابها، مع أنه لم يُتِمَّ التوبة بمعاييرنا نحن.

فإني أسأل اليائس من أن يتوب الله عليه بسبب قبح صنيعه، هل بلغت مرحلة قتل النفس؟ وإن قد بلغت ذلك، فقد غُفر لرجلٍ قتل مائة نفسٍ ثم شرع في التوبة، ولم يَحرمَه الله جزاء نيته الصادقة على التوبة. ولكن ابدأ الآن أيها اليائس قبل أن يزداد يأسك، وتُب توبةً نصوحًا، فإن باب الله مفتوحٌ وهو يريدك، وهو يستقبل التائب بخصوصية وتميُّزٍ عن العابد، فلا تتأخر عليه وهو الغنيّ. وهذا ما شعرت به عندما مضيت في طريق التوبة، أن الله قريبٌ مني، وكنت أجد حلاوةً وبهجةً لا أجد مثيلها الآن، وأكبر دليل على كلامي هو أنه ما من إنسان أطير بالفرحة وأسمى سرورًا من الذي يدخل في الإسلام بعد أن كان في الضلال.

وفي قوله تعالى {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاء وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الحديد 21] إشارة إلى سعة مغفرة الله وعطائه، فالحمد لله. كما نرى فإن الله يحثنا أن نتعجل في طلب مغفرة الله، التي بها تسوق العبد إلى طريق الجنة. قارنوا هذا بالذي يعصي ربه، فالمؤمنون في سباق في طلب رحمة الله، والعاصي في سباق في طلب لذّات الدنيا، هؤلاء في اتجاه وهذا في اتجاه. فكيف لساعٍ أن يطلب فضل الله بعصيان الله؟

وتشير آية أُخرى إلى مدى سعة عفو الله وكرمه {وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (68) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (70) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} [الفرقان 68-70]. الحمد لله على أنه جعل من صفاته السَبَّاقة رحمته وعفوه. هذه الآيات تتكلم عن أناس وقعوا في هذه المعاصي، فمن تاب منهم وعمل صالحًا قبِلَ

---

[1] صحيح مسلم 4967.

[2] صحيح البخاري 3211.

[3] سنن ابن ماجه 2612.

الله توبتهم، وكانت الزيادة في المنة والكرم بعد القبول هو أنه بدل سيئاتهم حسنات. وقيل إن المقصود من التبديل أنه في الدنيا، بأن يتغير حالهم من المُفسد في الأرض إلى مُصلح في الأرض ويعطيه الله من الإيمان بدل الشرك، واليقين بدل الشك، والتقوى بدل الفجور.

وقيل إنه في الآخرة أيضًا، وهذا راجحٌ في حال صدق التوبة، بأن يبدل الله سيئاته حسنات، سواء بعضها أم كلها، والله أعلم، فهو يفعل ما يشاء. فلم يبلغ كرم الله أنه يعفو عن العبد التائب فقط حتى يدخل الجنة، فينال من المكافآت ما لا يتناسب مع عمله الصالح (أي يفيض الله عليه بالمتاع في الجنة أكثر مما يستحقه العبد)، بل فاض كرم الله هذا فبلغ عطاءه تعالى إلى حد أنه يُبدل سيئات ذلك التائب إلى حسنات! حقًّا، إن الله ليُعطي عطاء من يملك خزائن السماوات والأرض، ولا يمتنع عن البسط لعباده في النعم والفضل.

وحقًّا، إذا كان عطاء سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) الذي أرسله تعالى، كما وصفه أحد العرب (بعدما سأل العطاء منه صلى الله عليه وسلم، فأعطاه صلى الله عليه وسلم قطيع غنم كبير، فرجع إلى قومه يُنبئهم) قائلًا: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخَافُ الْفَاقَةَ[1] (الفاقة هي الفقر). هذا لأنه صلى الله عليه وسلم مَا سُئِلَ عَلَى الإِسْلامِ شَيْئًا إِلا أَعْطَاهُ[2]، فكيف توقعنا بعطاء رب الرسول (صلى الله عليه وسلم)؟!

ويؤيد نقطة أن الله يُبدل السيئات حسنات، لمن تاب، حديث شريف نقله سيدنا أبو ذر (رضي الله عنه): قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولا الْجَنَّةَ وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لا أَرَاهَا هَا هُنَا!" فَقَالَ أبي ذر (رضي الله عنه): فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ[3]. فالحمد لله الذي اتسعت رحمته وعفوه إلى هذا الحد، بل وأكثر، فما بالنا بمن لا يزال يظل في النار حتى بعد كل هذا الكرم؟ ما مدى الفُحش الذي بلغه؟

وقال الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ رَبَّكُمْ رَحِيمٌ، مَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ عَشْرًا إِلَى سَبْعِ مِائَةٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ

[1] مسند أحمد 13518.

[2] صحيح مسلم 4275.

[3] صحيح مسلم 277.

حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ وَاحِدَةً أَوْ يَمْحُوهَا، وَلا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلا هَالِكٌ"[1] (يَمْحُوهَا أي يمحو السيئة؛ وَلا يَهْلِكُ عَلَى اللَّهِ إِلا هَالِكٌ أي إلا من ختم على قلبه الله من شدة فجوره فيفوته ذلك الفضل ويهلك). فالحمد لله على سعة رحمته بنا وكرمه علينا وعفوه عنا. بعد علمنا بهذا الحديث، ماذا نقول فيمن يلقى الله ولديه كمٌّ من السيئات تؤهله لدخوله النار؟!

قد رأينا سهولة تحصيل الحسنة، وأن فُرَص نيل السيئة أقل من فُرص اكتساب الحسنة، وكثرة سبُل مُكفّرات السيئات من الأعمال الصالحة. ومما يصيب المسلم من أذى يُكفّر السيئات أيضًا مثلما بشَّرنا الحديث "مَا يُصِيبُ الْمُؤْمِنَ مِنْ وَصَبٍ وَلَا نَصَبٍ وَلَا سَقَمٍ وَلَا حَزَنٍ، حَتَّى الْهَمِّ يُهَمُّهُ، إِلَّا كُفِّرَ بِهِ مِنْ سَيِّئَاتِهِ"[2] (وَصَبٍ أي وجع لازم؛ نَصَبٍ أي تعب ومشقة؛ سَقَمٍ أي مرض). بل وأيضًا قد يتجاوز الله عن السيئة من الأصل، كما يؤيد ذلك رواية أخرى عنه (صلى الله عليه وسلم) "وَالسَّيِّئَةُ بِمِثْلِهَا، إِلا أَنْ يَتَجَاوَزَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا"[3].

فما بال الذين لديهم جبال من السيئات، كيف كان عملهم ليركموا كل تلك السيئات بالرغم من عفو وكرم الله المذكور؟! الراجح أن أغلبهم لم يكن يدرك أن لديه هذا الكم من السيئات، أُغري بالمعاصي وهو لا يلقي لها بالًا، فأخذته الدنيا تدريجيًّا حتى يُفاجأ بهذا الكم من السيئات التي أحصاها الله له. وقد أكون مثلهم بمنتهى السهولة إن لم أُجاهد نفسي، فيجب أن نتقي الله ونراجع أنفسنا تكرارًا ومرارًا، مع دوام مراقبة النفس ومحاسبتها، والاستغفار لما سلف منا، وكل ذلك حتى لا ننزلق في متاع الدنيا ونحن لا نشعر، فنلقى الله بذنوب لم تكن في اعتبارنا ونُفاجأ بها. وقد رأينا مدى رأفة الله بنا في هذا الحديث، فلماذا لا أستحيي من الله وأترك معصيته.

وفي بيان لمدى إرادة الله في العفو عنا والرحمة بنا والتكرم علينا، وعن المدى الذي يصل إليه ليدعونا إلى اللجوء إليه، وعرضه علينا ما نحتاج إليه نحن. جاء عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"[4].

فتلك هي رحمة الله بنا وحبه لنا، فهو يحب عباده المجتهدين له اللاجئين إليه السائلين والمستغفرين منه، ينزل للسماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل ويصبر على عباده، لعل أن يأتي منهم مذنب ليتوب ويستغفر، فيغفر الله له، أو ذو حاجة ماسة فيطلبها، فيعطيه الله. ويكأن الله يدعونا لمقابلته في هذا المعاد كي يعطينا ما نريد من مسألة أو مغفرة، فلماذا كثيرٌ منا لا يغتنم تلك

---

[1] سنن الدارمي 2667.

[2] صحيح مسلم 4670.

[3] سنن النسائي 4912، جزء من الحديث.

[4] صحيح البخاري 1077.

الهدية؟ وهذه من الأوقات التي لا شك فيها من قبول التوبة إن أخلص العبد في طلبه، ومن إجابة مسألة الطالب الذي أخلص لله ورزقه من الحلال.

السؤال المُحيّر هو.... لماذا يفعل هذا ربنا؟ لماذا يصل الله إلى ذلك الحد في دعوتنا إليه، وفتح لنا أبواب النجاة بترحابٍ بهذه الدرجة من السعة والتسهيلات؟ هل هو في حاجة إلى العبد أو توبة العبد؟! إنما هي رحمة ومِنَّةٌ من الله علينا، فهل أنا بقابل هديته ومغتنم عرضه؟ أما حال النبي (صلى الله عليه وسلم)، فهو كما ترويه أم المؤمنين السيدة عائشة (رضي الله عنها): كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلاهُ، فقلت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ؟ فَقَالَ "يَا عَائِشَةُ، أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورا"[1] (تَفَطَّرَ أي تتشقق). فهذا رسول الله وهو من هو، وأنا عبد غير مُمَيَّزٌ عند ربي وسط جموع من عباد الله الذين لا نُحصيهم، وما أنا إلا أنا، ومع هذا فإني لا ألاقي ربي في آخر الليل كي أستغفره على معصيتي له. يا حسرتي ويا فداحة خسارتي على كل يومٍ يفوتني.

ويكفينا علمًا قدر رأفة ربنا بنا كي نخجل مما نرتكبه من معصيته. ففي بيان عن مدى لطفه ورأفته بنا جاء عن سيدنا أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه قال: مَرَّ رَسُول اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى رَهْط مِنْ أَصْحَابه وَهُمْ يَضْحَكُونَ فَقَالَ "لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَم لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا"، فَأَتَاهُ جِبْرِيل فَقَالَ: إِنَّ رَبّك يَقُول لَك: لا تُقَنِّط عِبَادِي، فَرَجَعَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ "سَدِّدُوا وَقَارِبُوا"[2] (لا تُقَنِّط أي لا تجعلهم ييأسون).

من رحمة الله بنا أنه حجب عنا تفاصيل عذابه حتى لا نُلَمَّ بمدى وكيفية عذابه كاملًا، ويشمل ذلك حين الموت وفي القبر ويوم القيامة والحساب وفي النار وغير ذلك، الذي لا يخطر على عقل أظلم الظالمين ولا على أقسى وأغلظ قلب من قلوب الناس. وفي حديث آخر "إِنِّي أَرَى مَا لا تَرَوْنَ وَأَسْمَعُ مَا لا تَسْمَعُونَ، إِنَّ السَّمَاءَ أَطَّتْ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلا وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا لِلَّهِ. وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى اللَّهِ"، فقال أبو ذر (رضي الله عنه): وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ[3] (أَطَّتْ/تَئِطَّ أي صوَّتت وضجَّت، الصُّعُدَاتِ هي الطرقات، تَجْأَرُونَ أي تتضرعون، تُعْضَدُ أي تقطع).

فذاك أبو ذر (رضي الله عنه) يود لو أنه شجرة تعضد كي لا يكون عليه حساب يوم القيامة، بالرغم من أنه من الصحابة العظام ومن أول خمسة دخلوا في الإسلام. وقد قدَّم لإرساخ الإسلام في

---

[1] صحيح مسلم 5046.

[2] صحيح ابن حِبَّان 358.

[3] سنن ابن ماجه 4180.

الأرض ما قدَّم، فما ينبغي لي أن أخشى على نفسي؟! أفلا أتعظ؟ وقد جاء أن الله يقول: لا تُقَنِّط عِبَادِي، فهذا يدل على مدى رحمة الله بنا، فإنه أرحم وأرأف بنا أكثر حتى من الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي يعز عليه أن نُعاني وحريص علينا من الضرر وبالمؤمنين رؤوف رحيم، فهل أستغل تلك الرحمة والرأفة في معصية الرحمن؟! فإنه لا يفعل ذلك إلا سفيه أو غدَّار، الذي إن أُحسن إليه رد بالإساءة.

وفي النهاية، يتجلى لنا مدى حب ورحمة وعفو الله لعباده الذين شهدوا له بشهادة الحق، وكيف أن شأنهم عنده عظيم. قد قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ نَفْسٍ تَمُوتُ تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَرْجِعُ ذَلِكَ إِلَى قَلْبٍ مُوقِنٍ، إِلَّا غَفَرَ اللَّهُ لَهَا"[1]. أما من قَصُرَ به عمله ممن شهد بالتوحيد، أي أن سيئاته بلغت أنها أضعفت من إيمانه ب"لا إله إلا الله" فدخل النار، تأتي لحظة لا يدع الله فيها أحدًا منهم مهما صدر منهم من عمل. نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو يتحدث عن شفاعته لأهل النار "ما زِلتُ أشفعُ إلى ربِّي عزَّ وجلَّ ويُشَفِّعُني، وأشفعُ ويُشَفِّعُني، حتَّى أقولَ: أي ربِّ شفِّعني فيمَن قالَ 'لا إلهَ إلا اللهُ'، فيقولُ: هذه لَيسَت لكَ يا محمَّدُ ولا لأحدٍ، هذه لي، وعزَّتي وجلالي ورحمتي لا أدعُ في النَّارِ أحدًا يقولُ: لا إلهَ إلا اللهُ"[2].

تلك هي رحمة ربي، ولا يسع عقل أحد منا تقدير رحمة وعفو ربنا، فصفاته أعظم من أن نستوعبها. وقد رأينا مدى رحمة وحرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمته حيث يتردد إلى الله كي يُخرج المسلمين من النار، فما بالنا برحمة الله. هذا من الأحاديث التي تشير إلى مدى رحمة الله. ومن رحمة الله العظيمة، أنه خلق النبي صلى الله عليه وسلم حريصًا علينا بالمؤمنين رؤوف رحيم. فالذي خلق نبيًّا بهذه الرحمة لا بد أنه أرحم من ذلك بأضعاف مُضَاعفَة، بل إنه الرحمن.

وأختم بحديثين يُبينان بدرجة بالغة مدى رحمة وعفو الله. الأول هو قوله (صلى الله عليه وسلم) "لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي"[3]، فلنتخيل مدى رحمة الله في أنه كتب هذا القانون فوق عرشه ليبين أنه الساري يوم الحساب وقبله، ولن يُخالفه الله أبدًا مثلما أنه لن يظلم أبدًا، فمن رحمته تعالى أنه كتب على نفسه قانون الرحمة السبَّاقة! فالرحمة هي صفته الأساسية من بين جميع صفاته تعالى. الحديث الثاني هو "إِنَّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَجَعَلَ مِنْهَا رَحْمَةً فِي الدُّنْيَا تَتَرَاحَمُونَ بِهَا، وَعِنْدَهُ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ رَحْمَةً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ضَمَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ إِلَى التِّسْعَةِ وَالتِّسْعِينَ رَحْمَةً ثُمَّ عَادَ بِهِنَّ عَلَى خَلْقِهِ"[4].

---

[1] سنن ابن ماجه 3786.

[2] رفع الأستار للألباني 132؛ وقال عنه: صحيح.

[3] صحيح البخاري 6899.

[4] مسند أحمد 1039.

الله اللطيف. ينبغي لنا أن نعي أن الله لطيف بنا، أي يرفق بنا في شتى المواضع، ثم ينبغي أن نُدرك أن لولا أن الله يلطف بنا لهلكنا. فمثلًا، من لطف الله أنه يَقبَل من العبد الذي يُقدِّم الطاعة ولكنها تكون معلولة أو ناقصة بغير تعمد من العبد {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [البقرة 143] (إِيمَانَكُمْ هنا تعني صلاتكم التي صليتموها تجاه بيت المقدس، قبل نزول الأمر باتخاذ الكعبة قِبلَة). ومثالًا على هذا هو عدم الخشوع في جزء من الصلاة، ولهذا حُث على الاستغفار بعد تقديم الطاعات لأنه لا يمكن تقديمها على الوجه الذي يليق بقدر وعظمة الله. بل إن الله قد يقبل عملًا فيه ما يُبطله، مثل من يصوم ولكنه يأكل ويشرب ساهيًا ثم يتذكر، أُمِر أن يكفّ عن الأكل ويُكمِل صيامه، وهذا أيضًا لطفٌ من الله بنا إذ رفع مؤاخذة عباده على الخطأ والنسيان.

ومن لطف الله أنه يُعاقبنا في الدنيا فقط بجزء من ذنوبنا وإلا لهلكنا {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الروم 41]، يُعاقب لنتوقف عن العصيان ولنتراجع ونتضرع بالتوبة، فالعقاب يمنع العبد من التمادي في المعاصي المُضرَّة. ومن لطفه أنه يُمهلنا قبل مؤاخذتنا على كثير من ذنوبنا، لعنا نتوب فتُمحَى فلا نُعاقب عليها. فإذا تاب العبد، لا يزال اللُّطف متجليًا إذ يَقبل الله توبة العبد ونَدَمه، ويرفع العقاب {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [الشورى 25].

بل يلطف بنا أكثر عند التوبة بإعطاء أجر عليها، مع أن المقصود منها عند العبد هو تحقيق عفو الله عن الذنب وتجنب العقاب عليه. وهذا يُستدل عليه من قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن رجل قد تاب من الزنا بتقديم نفسه لإقامة الحدّ عليه "لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ"[1]، مما يدل على أن إخلاصه في توبته فاق قدر ذنبه، ومن ثمَّ سيأخذ أجرًا على توبته لأن الله عادل ولا يُضيع أجر العاملين. وهذا يظهر أيضًا في حديث الثلاثة الذين حُبسوا في غار بصخرة، حتى إن أحدهم ناشد الله بحق انصرافه عن الزنا في آخر لحظة لخشيته من الله، عندما قالت له المرأة "يَا عَبْدَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ"[2]، ففرَّج الله عنهم الصخرة شطرًا. فهذا أيضًا يدل على أن كان له أجر حسن مُدَّخر عند الله لإعراضه عن الزنا لله، بعدما كان مهَّد الأوضاع للزنا.

بل الأكثر والأكثر في اللطف هو أنه تعالى قد يعفو عن ذنب لعملٍ صالحٍ بلغ غاية الإحسان قد قدَّمه العبد، وهذا دون استغفار، فيمحو الله ذنبًا ويُعطي أجرًا. ومثالٌ على هذا يوجد في حديث سيدنا محمد "بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثَّرَى مِنْ الْعَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبَ مِنْ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي؛

---

[1] صحيح مسلم 3207.

[2] صحيح البخاري 2165.

فَنَزَلَ الْبِئْرَ فَمَلَا خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ"[1] (الثَّرَى هو التراب الرطب). ومُحصِّلة كل هذا هو أن الله يتجاوز عن كثير من الذنوب {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} [الشورى 30].

إضافةً، فإن الله لم يجعل السبيل إلى محو الذنوب واحدًا: عن طريق الاستغفار والتوبة؛ بل جعل السُبُل لمحو الذنوب مُتعددة، مثل فعل الصالحات كما ذكرنا، ولكن من لطفه تعالى أنه أنشأ سبيلًا لتكفير الذنوب وإن لم يفعل العبد شيئًا! كيف؟ هذا عن طريق إصابة عبده بالبلاء كما نبأنا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حُزْنٍ وَلا أَذًى وَلا غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إلا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ"[2] (نَصَبٍ أي تعب؛ وَصَبٍ أي مرض)، وما على العبد إلا الصبر على بلاء الله الذي سينفذ على العبد سواء صبر أو جزع.

ومثلٌ من تلك الابتلاءات، والذي يجهل أغلب الناس أنه في الحقيقة لطفٌ وخيرٌ من الله –بل ويسهو الكثير عن استيعاب القضية فيُسيء الظن بالله أنه شر من عند الله–، هو أمراض البدن. قال الشيخ عبد العزيز ناصر في كتاب "ولله الأسماء الحُسنى فادعوه بها": ومن آثار اسمه سبحانه (الشافي): النظر إلى ما يُقدِّره الله عز وجل على عبده المؤمن من أمراض ومكروهات على أنها في ذاتها شفاء لأمراض في القلب قد تفتك به لو استمرت فيه، فيأتي المرض أو المصيبة ليكونا سببًا في التخلص منها، وبذا يكون المرض ذاته شفاء، وليس الشفاء بالضرورة هو المُعافاة من المرض[3].

ويقصد من هذا الكلام أن الله يُرسل المرض على الإنسان ليُعاين المرء ضعفه ويُراجِع نفسه وسلوكه، فيشفي اللهُ –بمرض البدن– أمراضًا أخطر تكون في قلب عبده، مثل الكبر والغرور والحقد والحسد والحرص على الدنيا وحُب الشهوات وعدم الصدق مع الله وغير ذلك. من ثمَّ، تكون المُحصلة أن العبد ينتفع أكثر مما يُضَرّ، فتكون حقيقة مرض البدن خيرًا للعبد وليس شرًّا، ما دام العبد ينتفع بالمغزى من مرض البدن.

ثم حتى عندما يغضب الله على الإنس فيُنزل عذابه الذي يَعُمّ على الناس في الدنيا، مثل نزول الوباء، يكون في طَيَّاته لطفًا من الله، يُبصره من يتأمل، مثل وجود دواء للوباء لكننا نجهله بعد، وأنه لا يُهلك جميع الناس به. بل والأوضح هو مثل ما في قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما سُئل عن الطاعون (نوع من الوباء) فقال "كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ. مَا مِنْ عَبْدٍ يَكُونُ فِي بَلَدٍ يَكُونُ فِيهِ وَيَمْكُثُ فِيهِ لَا يَخْرُجُ مِنْ الْبَلَدِ، صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ

---

[1] صحيح البخاري 2286.

[2] صحيح البخاري 5210.

[3] ولله الأسماء الحُسنى فادعوه بها لعبد العزيز ناصر الجُلَيِّل 653.

لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ شَهِيدٍ"[1]، فهو في الواقع عذاب على الكافرين ولكن رحمة للمؤمن (فإما أن يَنجو منه وإما أجر شهيد). ومجرد وجود مخرج من عقاب الدنيا بالتوبة والتضرع هو لطفٌ عظيم من الله، وهذا ظاهر مثل في صلاة الاستسقاء (طلب المطر).

ومن لطفه تعالى أنه يبتلي العبد بوجود أسباب المعصية ويهيئ له القدرة عليها، ولكنه تعالى أيضا يُعين العبد على تجنبها، ثم يُجازيه على هذا مع أن العبد قليل الحيلة والتدبير في هذا كله، فيأخذ العبد حسنات على طاعة الله دون فعل شيء تقريبًا. هذا، واقعيًّا، بمنزلة إيهاب الله أجرًا للعبد الصالح بالمجّاني.

بل ومن الأصل، إن الله يلطف بنا بأن أرسل لنا رُسُلَه (عليهم السلام) وأنزل كُتُبه لنعرفه ونعبده، ولطف بنا بأن أرشدنا إلى السلامة والخيرات بإعطائنا أحكامه التي تُبلِّغنا مصالحنا وسعادتنا إن طبَّقناها. كل هذا وهو تعالى الغني عنا وعن مكافأتنا بالجنة وعن إنذارنا من عذابه، فلن ينقُص شيء إن لم يعبده أحد من خلقه ودخلوا جميعهم جهنم. ثم يزيد لطفًا فوق اللّطف بأن يصبر على عبده حتى ينقاد لتلك الأحكام المُنزلة ويُقلع عن عصيان الله، أي يُمهل العبدَ فرصةً وأمدًا من الدهر حتى يخشع قلبه لذكر الله وما نزل من الحق فيستجيب بترك عصيان الله.

مُجملًا، الواقع هو أن الله لطيف بالناس في الدنيا، وبالمسلمين خاصة في الدنيا والآخرة {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ} [الشورى 19]. فدون كل هذا اللُطف لأصبح موقفنا سيئًا ووضعنا عسيرًا ولهلكنا. لنتخيل حالنا لو أننا نُقدِّم العمل فلا يُقبل لأن فيه علة صغيرة غير مقصودة، وأن المعصية لا تُمحى فيكون العقاب عليها محتومًا، وأن كل معصية يرتكبها أحدنا تُحقق فسادها على أكمل وجه في الأرض، ونُعاقَب عليها فور ارتكابها، وأن عقاب الدنيا عندما ينزل لا يكون فيه سعة من الرحمة والرأفة ولا يوجد منه مخرج ولا مَنجَا، آنذاك سنبدأ نَعِي لطف ربنا بنا.

مدى كرم الله. إن الله هو الكريم، الذي دائمًا يُعطي أكثر وأفضل مما قُدِّم إليه، ويشار إلى هذا في مثل قوله تعالى {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [القصص 84]. وينبغي أن نُدقق في هذه الآية ونُفصِّلها تفصيلًا، فإنها قاعدة وضعها الله لنا نستطيع أن نأخذ بها: أن من عمل صالحًا فإنه سيجد جزاءً أفضل من العمل الذي عمله لا محالة. فيا أيها القارئ، عندما تعمل عملًا صالحًا وترى أنه كان شاقًّا جدًّا، فلتطب نفسك أن الله سيُكافئك عليه بأكثر مما بذلته مصداقًا لقوله "فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا".

[1] صحيح البخاري 6129.

وعلى الصعيد الآخر، إذا أذنب العبد فإن الله سيُعاقبه بقدر ما عمله، فإن الله لا يظلم أبدًا، حتى إن كان المرء قد أغضب الله أشد الغضب، فإن غصب الله لا يمنعه من أن يعدل. وهذا بخلاف الإنسان الذي إذا غضب على أحد، فعادةً لن يستطيع أن يحكم في الجزاء بالعدل، وهذا فقط في الحكم، فما بالنا إذا أُتيحت له القوة على أن يبطش به أيضًا، فهل سيبطش بقدر ما ظُلم فقط؟ فسبحان الله وتعالى عن صفاتنا، فهو حقًّا الكريم في الجزاء إذا أُطيع، ومع ذلك فلن يظلم في الجزاء إذا عُصِيَ بالرغم من أنه ما من أحد يستطيع أن يمنع الله من الظلم إلا نفسه تعالى، إذ حرَّم على نفسه الظلم.

الأمثلة على عِظم كرم الله متعددة، منها ما هو مذكور في القرآن، مثل ما في سورة الأنبياء، والتي ممتلئة بذكر تكرّم الله على أنبيائه فوق ما طلبوه (وأي كرم من الله على الأنبياء هو كرم علينا أيضًا تبعًا). وهذا بدا بذكر سيدنا إبراهيم (عليه السلام) {قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (68) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (69) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (70) وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (71) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (72) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (73) وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (74) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (75) وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (76) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (77) وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (78) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (79) وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ (80) وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (81) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (82) وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (83) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ (84) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ (85) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ (86) وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (87) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ (88) وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (89) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (90) وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ (91) إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ} [الأنبياء 68-92].

وفي السُنَّة الشريفة أيضًا أمثلة متعددة، مثل ما يرويه لنا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَأُنَحِّيَنَّ هَذَا عَنْ الْمُسْلِمِينَ لَا يُؤْذِيهِمْ؛ فَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ"[1]. مثل هذا الرجل قد أكرمه الله لعملٍ نراه يسيرًا، ونرى أن حُسن الجزاء والمكافأة (سلعة الجنة) لا تتناسب مع هذا العمل السهل، ولكنه كرم الله بالرغم من غناه عنا وعما قد نُقدِّمه له، وغناه من أن يُنعم علينا، بل وبالرغم من عصياننا له أحيانًا، فلا يزال يُكرم. حقًّا، هو الغني عن تعذيبنا، ولكن علينا فقط أن نُقدِّم ولو أبسط الأعمال بنيات حسنة.

وهناك حديث لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) يبين لنا مِن المدى الذي يشمله كرم الله، والذي لا يمكن لنا أن نتخيله، فضلًا عن أن نستوعب مدى كرم الله، وهذا بقوله "مَنْ أَذْنَبَ فِي الدُّنْيَا ذَنْبًا فَعُوقِبَ بِهِ، فَاللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عُقُوبَتَهُ عَلَى عَبْدِهِ؛ وَمَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فِي الدُّنْيَا فَسَتَرَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَفَا عَنْهُ، فَاللَّهُ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يَعُودَ فِي شَيْءٍ قَدْ عَفَا عَنْهُ"[2] (يُثَنِّيَ أي يُكَرِّر). معنى الحديث هو أن الله إذا قضى عقابًا للعاصي في الدنيا لذنبٍ مُحددٍ ارتكبه، فإن ذلك يكون كفَّارة له ولا يُعاقَب عليه في الآخرة أيضًا. هذا إذا قدَّر الله أن العقوبة تفي مقدار الذنب، وهذا ينطبق خاصةً في حالات تطبيق الحدّ، أما إن لم تكفِ فيُكمَل العذاب له في الآخرة، كما دل الحديث "مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرُ أَنْ يُعَجِّلَ اللَّهُ لِصَاحِبِهِ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ، مِنْ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ"[3].

ويشير الحديث إلى أن الله إذا ستر على عبدٍ ذنبًا في الدنيا، فهو قريب من أن يعفو عن الذنب أيضًا، وإذا عفا فإن الله لن يُعاقِب العبد على هذا الذنب في الآخرة، لأن الله أعلى من أن يرجع في عفوه وإن فعل العبد ما فعل بعد ذلك! هذا خاصةً إذا تاب العبد بعد ستر الله عليه، وأما من لم يتب فإما أن يعفو الله عنه في الآخرة أو يُعاقِب العبد، كما دل الحديث "بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا تَسْرِقُوا وَلَا تَزْنُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلَا تَعْصُوا فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا ثُمَّ سَتَرَهُ اللَّهُ فَهُوَ إِلَى اللَّهِ: إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ وَإِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ"[4].

كي نفهم بوضوح القضية المتعلقة بالنصف الثاني من الحديث، ينبغي تفصيل القواعد. أولًا، إن الله إذا بلغ مرحلة العفو عن الذنب، فلن يُعاقب العبد عليه في الدنيا ولا الآخرة. ثانيًا، أن ستر الله للذنب مُقدِّمة إلى عفو الله، يوشك حدوثه هو أيضًا. ثالثًا، يجب ملاحظة أن ستر الله على العبد نعمة إضافية في القضية، تُحسب على العبد؛ فهناك فصل بين مسألة الذنب ومسألة الستر. فإما أن يشكر العبد ربه على الستر، بالتوبة مثلًا، فيُعفى عن الذنب ويُحسب له شُكر نعمة الستر، وإما أن يستغله

---

[1] صحيح مسلم 4744.

[2] مسند أحمد 736، وأُشار إلى صحته. ورُوي مثله في سنن الترمذي وابن ماجه.

[3] سنن الترمذي 2435.

[4] صحيح البخاري 17.

فلا يُعفى عن المعصية ويُعاقَب عليها وعلى نعمة الستر التي لم يؤدِّ شُكرها. وقد يُعاقب الله العبد المستغل للستر بقدرٍ يفوق قدر الذنب، لأن استغلال ستر الله جُرمٌ عظيمٌ، ويتناسب الجُرم أيضًا مع قدر المعصية المستورة. أما من نسي التوبة ولكن قد عفا الله عنه في الذنب، فلله أن يعفو عنه حمل نعمة الستر أيضًا.

وإني أدعو القارئ الذي لم ينبهر من هذا الحديث، الذي رواه الإمام أحمد، أن يتمعَّن فيه، كي يزداد من استيعاب أبعاد عظمة الله ورحمته ورأفته وعدله وكرمه وغناه. فمن ضمن رسائله هو أن الله قد يُعاقب عبدًا على معصيةٍ في الدنيا، وذلك رحمةً وكرمًا منه تعالى، حتى لا يُعاقَب العبد عليها في الآخرة حيث يكون العذاب أشد وأثقل.

نموذج آخر عن مدى كرم الله جاء في الآية {إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ} [التغابن 17]، فهي تبين درجة فضل الله علينا. هنا يسألنا الله أن نتصدق من أموالنا، والمُكافأة هي أنه يرد إلينا قيمتها أضعافًا يوم القيامة، مع مغفرة الذنوب، ويشكر لنا ويحلم علينا. قال سيد قطب (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: وتبارك الله، ما أكرمه وما أعظمه! وهو ينشئ العبد ثم يرزقه، ثم يسأله فضل ما أعطاه، قرضًا يُضاعفه.. ثم.. يشكر لعبده الذي أنشأه وأعطاه! ويعامله بالحلم في تقصيره هو عن شكر مولاه..! يا لله!!![1].

كرم الله بعد كرمه مع من أخفق في طاعته إلى حد أنه استحق النار. بعد أن كل شيءٍ تَمَّ وقُضي الأمر، إذا كان عمل العبد الذي يشهد بالتوحيد لم يُكن كافيًا ليستحق الجنة يدخل النار ليُكفِّر عن أعماله، ولكن لا يزال الله يحيطه بالرحمة ويُكرمه. وذلك بعد أن ضاعف الله له حسناته، وأخَّر كتابة سيئاته حتى يرتكبها، ويمحوها إذا استغفر، ويُزال من سيئاته للبلاء الذي أصابه في الدنيا، وأيضًا بعد دعاء واستغفار المسلمين له، وعوامل أخرى مثل صلاة المسلمين عليه بعد موته؛ فلم يُجدِ معه كل ذلك نفعًا أن يُزحزحه من العذاب، تبقى عظمة الله شبكة أمان المسلم من الخلود في النار!

ويتضح لنا كيف يكون ذلك في جزء من حديث قدسي عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وهو يتردد على ربنا في الآخرة، يشفع لنا ويُحاجج عنا حتى يُخرج كل من نطق بالشهادة الحق كما جاء. يقول (صلى الله عليه وسلم) في نهاية المطاف "فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا

[1] في ظلال القرآن لسيد قطب 3591/6.

اللَّهُ، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ"[1]. فالمغزى أن من شهد أنه لا إله إلا الله يكون تحت كَنَف الله فيكون الله وكيله، وكيف يَضيع من كان الله وكيله؟!

من مثل هذا الحديث يتبين لنا مدى أن الشهادة عظيمة الشأن عند الله، إلى حد أنه لا يدع أحدًا يكون الشفيع لمن يخرج لقوله تلك الكلمة (ولا حتى الرسول صلى الله عليه وسلم). إنما يَخرج المرء على إثر تلك الكلمة تكريمًا من الله لقائلها، دون أن يكون لأحدٍ غيره تعالى يدٌ في هذا، ولو بالشفاعة، فكما أن العبد قد شهد لله خالصًا (أي لا يُقِرُّ بتلك الكلمة من أجل أحدٍ إلا الله) أن الله وحده هو الإله، جزاه الله من جنس العمل بأن يُخرجه من النار دون أن يكون لأحدٍ صلةٌ بذلك ولو بقدر أُنمُلة.

هذه من المواقف التي يتجلى لنا مدى كرم الله، إذ إنه تعالى يُخرج منا مِن النار مَن لم يكن في عمله خيرًا قط (إما فعليًّا وإما لأن عمله السيئ طغى على عمله الصالح). ففي رواية أخرى لهذا الموقف، جاء عن آخِر الذين يُخرجهم الله من النار "هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمْ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ"[2]. فلا يزال ربنا يُكرم ويُنعم علينا حتى بعد مُحاسبتنا ومُجازتنا على ما قدّمناه بأيدينا من أفعال... بل للأبد عندما يدخل المرء الجنة.

تفصيليًّا وبالمثال الفعلي كيف يُكرم الله من لم يستحق دخول الجنة من أول فصلٍ، قد نبأنا عنه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديث نقله سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قائلًا: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا وَآخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا، رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ كَبْوا فَيَقُولُ اللَّهُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ. فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ. فَيَأْتِيهَا فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى، فَيَقُولُ: اذْهَبْ فَادْخُلْ الْجَنَّةَ، فَإِنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا (يقول أحد الرواة: أَوْ قال: إِنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا)، فَيَقُولُ: تَسْخَرُ مِنِّي (أَوْ قال: تَضْحَكُ مِنِّي) وَأَنْتَ الْمَلِكُ؟!"، ثم قال ابن مسعود: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ؛ وَكَانَ يَقُولُ ابن مسعود (رضي الله عنه): ذَاكَ أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً[3] (كَبْوا أي زحفا؛ نَوَاجِذُهُ أي أنيابه).

فعطاء الله هو العطاء الحقيقي، عطاء الكريم. هكذا يكون كرم الله معنا، كرم الإله على عباده، أن يُدخل كل من شهد الشهادة الحق الجنة، عاجلًا إن كانوا صالحين، وآجلًا للذين لم تكن أعمالهم كافية. بل إن رأفة ورحمة وكرم الله تتبين لنا أكثر في حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) "يَخْرُجُ مِنْ النَّارِ أَرْبَعَةٌ يُعْرَضُونَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَأْمُرُ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: أَيْ

[1] صحيح البخاري 6956.

[2] صحيح مسلم 269، جزء من الحديث.

[3] صحيح البخاري 6086.

رَبِّ، قَدْ كُنْتُ أَرْجُو إِنْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا أَنْ لا تُعِيدَنِي فِيهَا، فَيَقُولُ: فَلا نُعِيدُكَ فِيهَا"[1]. فبما أن هذا هو مدى رحمة ربي، فأين حيائي؟ ألأن كرمه هكذا أستغل ذلك بالإسراف في معصيته؟ إن كنت أفعله عمدًا، فهذا لتصرفٌ دنيءٌ. فلماذا أعصيه؟ ألشيءٍ أفضل مما عنده، أم لأحدٍ يحبني أكثر من ربي، أم لنفسي التي لا تصبر وتتلهف على الفتاتات الفانية التي تُوشك أن تُفضي بي إلى هلاكي؟

فوالله إن الله يحب عبده أكثر مما يحب العبد نفسه، وكل الأدلة تشير إلى ذلك، مثل أن الله لا يظلم العبد أبدًا في حين العبد قد يظلم نفسه أو يؤذيها. ففي الآية {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} [الأنفال 67] دليل على أن الله يريد ما هو أصلح لنا، إذ إن الإنسان بنظرته القاصرة يريد تحصيل الدنيا، ولكن الله يريد لنا الآخرة وليس الدنيا لأن الآخرة أفضل من كل الجوانب.

وفي الحديث القدسي "قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ"[2] فيه لفتتان على أن الله يُحب العبد أكثر مما يُحب العبد نفسه. أولهما أن الله يفرح بتوبة عبده (وهو رجوعه إلى جنب الله) أكثر من فرحة نجاة العبد بحياته عندما يجد ضالته بالفلاة، أي دابته التي تحمل متاعه بعد أن تاهت عنه في الأرض الجرداء الصحراء. وثانيهما أن الله أكثر إقبالًا على عبده من إقبال العبد على ربه.

وفي ملحوظة جانبية من الحديث، فإن درجة تسابق العبد إلى ربه دليل على مدى حب العبد لربه، وحب العبد لنفسه أيضًا إذ إنه يريد نجاة نفسه بإقباله على الله. فلنتنافس في سرعة الإقبال، والإنابة إذا أخطأنا، على الله إذ إنه مؤشرٌ على مدى حُبنا له تعالى.

فتلك أدلة على أن الله يحب العبد أكثر مما يُحب العبد نفسه، والمنطق يؤدي إلى ذلك الاستنتاج أيضًا، لأن الله هو الذي خلقنا، فكيف أن نحب أنفسنا أكثر من الذي خلقنا؟ إذا كان الأب يُحب مصلحة ابنه أكثر مما يهتمّ الابن بمصلحة نفسه في كثير من الأحيان، فكيف بين الله وعبده الذي خلقه بيديه ونفخ فيه من روحه؟ ثم إن من أطاع الله دخل الجنة، ومن أطاع نفسه قادته شهواته حتى يهلك في الدنيا والآخرة، فأيهما أحرص علينا، الله أم أنفسنا؟

فأين عقلي؟ إني إذا تأملت في مُلك الله ونظرت إلى البحر وسألت نفسي ما مدى عظمة ربي، وحاولت أن أستوعب فلن يستطيع عقلي أن يدرك إلا القليل. ما مدى سعة البحر، وما هو حجمي إليه؟ ثم إذا نظرت إلى السماء التي فيها السحاب الذي أراه يجري بحجمه الهائل إلى المكان الذي قُدّر

---

[1] مسند أحمد 12835.

[2] صحيح مسلم 4927.

له، وأن الوقت يمضي والسحاب ماضٍ لتلبية مقصده، في حين أنا ألهو. فبينما ما هو أعظم خلقًا مني يسعى إلى هدفه الذي كتبه الله له، أنا أسعى وراء تفاهات إرضاء شهواتي، وكل شيء له معنى في هذه الحياة، فأين تحقيقي لمعناي الذي خُلقت له بالعمل، وما أنا لهذه السماء وما حجمي فيها؟

تلقائيًّا يطرح السؤال نفسه، أين أنا من كل هذا؟! أين مكاني في الكون؟ فسبحان الله، المخلوقات العظيمة التي قال عنها الله {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ} [غافر 57] قد علمت واجباتها ومكانها ودرجتها، فلبَّت أوامر الله طوعًا، وخضعت له تمامًا، وتسبح له مع العمل. أما أنا الصغير الضعيف، الذي لا يُذكر في عظمة خلق هذا الكون، لا أقتضي بالمخلوقات الأعظم ولا أتعظ أنها تطيع الله مع عظمتها، فصُغري أمام عظمة تلك المخلوقات التي خضعت لله أدعى لي أن أخشى الله أكثر منها، ولكن ما يصدر مني في الواقع هو العكس!

والبحر في أعماقه يحتوي على مخلوقات لم نرها بعد، فيها من آيات الله ما يجعلنا نتعجب، والسماء وما فيها من طيور لها حياة ومساعٍ، وفوق ذلك الكواكب معلقة في السماء تدور حول الشمس بانتظام كل هذه السنوات دون أن ينهار ذلك النظام، وكل ذلك في تناسق وتوازن دون أن يُهلِك أحدهم الآخر. والنجوم وجمالها. والرمل الذي هو حبة على حبة حتى إني أرى منه مُد بصري، وفي باطن الأرض وعلى سطحها كائنات متنوعة تعيش على نهج مجتمعي، نماذج لأُممٍ شبيهة بنا {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام 38].

كل هؤلاء عرفوا دورهم في هذه الحياة وخضعوا لله إلا الإنس والجن، فأنا الغريب في هذا الكون، أنا في هذا الكون الهائل الذي يُسبِّح كالنملة التي نشزت عن مجتمعها وتنشق عنه. أنا في هذا الكون كالذي يدخل المسجد ببضاعة لبيعها وسَطَ المصلين والذاكرين وراح ينادي بها وبثمنها، أنا كالذي يُحطِّم في مبنى تحت الإنشاء والعمال يكدّون فيه...

كل ما في الكون أعظم من أن أدركه، وهناك قوة خلقت كل هذا، وخَلقي أبسط من خَلقهن، ولكن الله كرّمنا وفضلنا فوق سائر مخلوقاته! فإذا نظرت وتأملت لكل هذا يدركني سؤال... أين أنا من كل هذا، وما هي وظيفتي، أي ما المُراد منى؟ ودون شك ستكون الإجابة أن مكاني ووظيفتي في هذا الكون أن أكون عبدًا لله، كما أن كل شيء عبدٌ لله ويسبح له، والحمد لله الذي بيّن لنا هذا بأن يرسل رسلًا، وينزل كتبه، وجعل لنا فطرة تُدرك وتُميِّز الحق من الباطل إذا عُرض علينا. فكيف يكون حالي إن لم يبين لي الله ماذا عليَّ فعله وأين هو الصواب وما هو الباطل؟ أبعد أن بيَّنه لي وأنا في حاجة لذلك البيان أُعرض عنه؟! من أين تلك الجرأة والغرور.

فلمَ التكبر إذًا عن الخضوع لله بطاعته وتجنب معصيته؟ ولمَ الإعراض عن ربي ورب كل ما أراه من مخلوقات التي هي أكثر مني تعقيدًا في نظامها وخلقتها. فإني مهما فعلت ومهما بلغت، ومهما علوت وهبطت، ومهما ذهبت وعدت في هذه الحياة، ومهما حققت، فما أنجزته من علم فهو من علم الله، وما أنجزت من عمل أو بنيت من ساطحات في الأرض كمعالم فهو في ملك الله، وما أنجزت من مال فهو من خزائن الله، وما أنجزت من سلطة فهو فقط على عباد الله وبعون الله، وما أنجزت جملةً فهو بعد إذن الله ومن عطاء الله، وكل شيء ماديٍ سيجعله الله منثورًا يوم يَدُكَّ الأرض!

فأنا في هذا الكون كالطفل الذي يلعب في حوض رمل في المتنزه، فمهما فعل وأنجز هذا الطفل من مبانٍ أو أنفاق، فلا فائدة من ذلك للعالم، وفي الأول والآخر إنما هو مكان صُمم له كي يلعب فيه، ولكن الطفل مأخوذًا جدًّا بهذا المكان! إنما الذي ننجزه في الأرض من إعمارها شيءٌ مؤقت لنا وهو إلى زوال، فلا ينبغي أن ننشغل به عن المقصد الأهم، وهو طاعة الله.

فلا مكان لي في هذا الكون العظيم المعقد إلا عبدًا لله، وإن رغبت في غير ذلك، مثلًا بأن أدَّعي أني مِلك نفسي فأضع رغبتي فوق كل الاعتبارات متوهمًا أن تلك هي الحرية أو قوة الشخصية، فليس لي مكانٌ في هذا الكون حقيقةً. وماذا أتوقع إن سلكت ذلك الطريق، أن أجد ثغرة أتفادى بها المحاسبة من الله؟! ولماذا، ألأستمتع بالدنيا دون قيودٍ؟ فإنما القيود التي وضعها الله عليَّ في الدنيا إنما وضعها عما يضُرّني، فكل منهيٍ عنه ضرره أكثر من نفعه ولو بعد أمد بعيد، والله أعلم بما ينفعني وما يضُرَّني أكثر من نفسي. وإلى من أهرب من الله؟ فإنه لا ملجأ من الله إلا إليه، أفلا أقبل دوري المحتوم وأستقبله بصدرٍ رحبٍ، فالعبودية لله شرف لي إن تفكرت في ذلك.

ومن أعرض فقد شذ عن نظام الكون المُسَبّح، وكما قالت الملائكة تعجبًا عندما قال لهم الله إنه سيجعل في الأرض خليفة (أي نحن) {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة 30]. تعجبوا لأن الإنسان بطبعه مُتبعٌ لشهواته إلا من هداه الله، وبذلك يُعرض عن عبادة الله ويُفسد في الأرض، فما الداعي لذلك وهم يعبدون الله ويسبحونه ويقدسونه ولا يعصونه أبدًا ولا يُفسدون.

إضافةً إلى ذلك، فإن الله لا يُحب الفساد، فكان ذلك يدعو للتعجب أكثر، ولكن الله أراد أن يريهم أنه سيكون هناك من يعبد الله على يقين ويطيعه اختياريًّا، بالرغم من قدرته على العصيان وتعرضه لإغراءات الدنيا، فيكون في منزلة أعلى منهم. أفلا أكون من الذين يُباهى بهم الله على ملائكته؟! فالحمد لله أنه من أدرك أنه لا إله إلا الله أدرك تبعيًّا أنه عبدٌ لله، ولهذا يُدخل الله كل من شهد بذلك الجنة، وإن كان قد استحق النار وقضى وقتًا فيها بناء على أعماله القاصرة.

إن الله يغار على من شهد له أنه لا إله إلا هو من أن يخلد في النار، فينصره. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال "إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ مَاجَ النَّاسُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِإِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ؛ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُوسَى فَإِنَّهُ كَلِيمُ اللَّهِ؛ فَيَأْتُونَ مُوسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِعِيسَى فَإِنَّهُ رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ؛ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ: لَسْتُ لَهَا، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا. فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لاَ تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ؛ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ. ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ 'لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ'، فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ 'لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ'"[1] (مَاجَ أي ازدحم واضطرب واختلط).

كما في الحديث، بعد أن يشفع النبي صلى الله عليه وسلم لكثير من المسلمين الذين في النار، يُخرج الله كل من قال 'لا إله إلا الله'، بعد أن قضوا ما شاء الله فيها. هذا والله يُقسم بصفاته، ويُبين ثبوت عزته وجلاله وكبريائه وعظمته فوق كل الخلائق ولا ينازعه على هذا أحد، أنه ليُخرجنهم بهذه الكلمة، لأنها كلمة لها وزنها، إلى حد أنها تجعل الله يمن على قائلها بالرحمة والمغفرة. إن الله يغار على من شهد له بالتوحيد من أن يخلَّد في العذاب، فيخرجهم من النار مهما كانت معاصيهم!

هذه الشهادة هي الفيصل بين أن يُعذَّب المسلم العاصي في النار أمدًا وبين خلوده في النار! ويؤكد هذا أكثر حديث لسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "إنَّ أُناسًا مِن أهلِ 'لا إلهَ إلَّا اللهُ' يدخُلونَ النَّارَ بذُنوبِهم، فيقولُ لهم أهلُ اللَّاتِ والعُزَّى: ما أغنى عنكم قولُكم 'لا إلهَ إلَّا اللهُ' وأنتم معنا في النَّارِ؟ فيغضَبُ اللهُ لهم، فيُخرِجُهم فيُلقيهم في نَهَرِ الحياةِ، فيبرَؤونَ مِن حرقِهم كما يبرَأُ القَمرُ مِن كسوفِه، فيدخُلونَ الجنَّةَ ويُسمَّوْنَ فيها 'الجَهنَّميِّينَ'"[2] (اللَّاتِ والعُزَّى هي أسماء لأصنام عُبِدَت). هكذا

---

[1] صحيح البخاري 6956.

[2] المعجم الأوسط للطبراني 209/7.

تكون رحمة الله وحبه لنا، فهو يريد أن يرحمنا بهذه الشهادة ويُجنّبنا عذابه، فإن الله يقبل القليل من العمل كحجة لنا، ويُقابله بالجزيل من العطاء.

أما دخول من قال لا إله إلا الله النار مدة، فذلك بسبب أنه ظلم الله، وظلم نفسه، وظلم الناس، وجلب على نفسه النار بسبب معاصيه، فذلك هو الحق والعدل، أن يأخذ جزاءه، ويكون هناك فرق بين من عمل صالحًا وهو مؤمن ومن استسهل وعمل سيئًا وهو مؤمن... {أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} [القلم 35-36]. ويجب أن يُعلم أن في الأصل أن الله يحبنا، ولا يكره أحدًا من عباده إلا من يسلك طريق الكفر أو التمادي في المعاصي والإفساد. والدليل على أن الله يحبنا منذ بداية ما خلقنا هو أن أي طفل يموت قبل البلوغ فإن الله يُدخله الجنة.

إذا فلماذا أُكَرِّه ربي مني ومن لقائي؟ لماذا أُبعد نفسي عنه؟ لماذا أُرد كرمه عليَّ بالإساءة في صيغة مخالفة أوامره والإعراض عنه والتغافل عن فضله عليَّ؟ قولوا لي... هل أستحق الجنة إن عصيته بعد كل ما قدمه لي؟ قد بادرني ربي بالإحسان، وإن عصيته سيظل يُكرمني مُمهلًا لي لعلي أُنيب وهو الغني عني وعن الصبر عليَّ، وذلك حتى ينفد أجلي. فكيف أنا راد على هذا الفضل والكرم؟ بالمعصية؟ من الذي أتحدَّاه عندما أعصي ربي، فالمنطق الوحيد أني أتحدى مصيري إن ظللت على معصيتي لله، ومصيري هو الغالب دائمًا لأن الله قد وضع قوانين، وهو غالبٌ على كل شيء، فما المغزى من تحديه؟ سبحان الله الذي لا إله إلا هو العلي العظيم.

تعرَّف على الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ماذا قدَّم، وماذا فُعل به، وماذا سيفعله يوم القيامة لنا

في الأساس، يجب أن نبدأ بمحاولة إدراك قيمة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ومن ثمَّ قد نُدرك مدى نعمة الله علينا به، ونعمة أن الله جعله ولي الأمة الإسلامية ورأسها وقائدها وقدوتها؛ أي الراعي لنا، ونحن رعيته. نحن أُمّته التي تكفل مسؤولية نجاتها بتبليغنا الهدى في الدنيا، وبالشفاعة لها في الآخرة. فكم هي نعمة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وله ما له من مكانة عند الله، أنه هو الذي يُمثّلنا يوم القيامة، وكونه إمامنا يومئذ، فنسير في ركابه، هي ميزة بالغة، ووجودنا في ظله منفعة عظيمة لنا ويقينا الكثير من المعاناة.

مدى قيمة هدية الرسول (صلى الله عليه وسلم) لنا، بل وللمخلوقات. قد بشرنا تعالى {لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ} [آل عمران 164]. هذه الآية من مؤشرات نعمة بعث الرسول (صلى

الله عليه وسلم) لنا، وأنه إمام الأمة الإسلامية، والمسؤول عن مصالحنا ونجاتنا إذا اتبعنا منهجه. إضافةً إلى هذا، في الآية توعية لنا على مدى نعمة أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) هو من هو بصفاته المتميزة، ما بين رحمته علينا، ورأفتة بنا، وإخلاصه معنا، وحرصه علينا، واهتمامه البالغ بشؤوننا ونجاتنا. فهو قائمٌ على هذا ولو على حساب نفسه، بأن يقع الضرر عليه في سبيل تحقيق مصالحنا، ويُهمه فلاحنا وإن لم نكترث نحن لفلاحنا، فهو يكترث نيابة عنا!

وجاء في كتاب الله عز وجل {تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ} [البقرة 252]، فهذا خطاب إلى نبي الله (صلى الله عليه وسلم) المرسل إلينا. وجملة "وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" تعطي الانطباع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما يعاني من السب والأذى الجسدي، والصد والتشكيك فيه، والذي يؤثر في نفسه، تكون تلك مواساةً من الله لما هو فيه "وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ". وهذه الجملة فيها عدة رسائل، فمنها أنها من باب المساندة، أي إعلاء لعزيمة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ومنها تفسير لما يحدث للنبي (صلى الله عليه وسلم) مما يتعرض له من محاربة وأذى، فتلك سُنة ما يُفعل بالأنبياء وطبيعة حال المرسلين.

ولكن المعنى الذي يتعلق بموضوعنا هو بمعنى أنه يحمل رسالة، الأمر الذي ليس بالسهل ولا البسيط. أي من باب التكليف وتحديد المهام مباشرةً من الله على أنه يجب عليه تبليغ الرسالة إلى الناس، ودعوتهم إلى الحق، بما يشمل أن يتمثل للناس كقدوة، بطاعة الله وتجنب المعصية. وإنه (صلى الله عليه وسلم) قد قَبِل أن يحمل على عاتقه مشقة تبليغ تلك الرسالة لأناس يتعنتون للعادات وللتقاليد. وفي هذا السياق، فإن عبارة "وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ" تفهم أنها عبارة تكليف ومسؤولية، وليست فقط تكريمًا، لأن التكريم لن يتم إن لم يتحمل كُلفة التبليغ، فإنه إن لم يُبَلغ فما هو برسول. بمعنًى آخر، أن عامة الناس واجبهم في الحياة ليس كواجب الأنبياء والرُّسل، فالحمل الذي على الرسل من مسؤوليات، قد وضعه الله عليهم، يفرض عليهم واجبات أكثر مما على عامة الناس، ولذلك كانت أُجورهم مُضاعفة لأن أحمالهم مُضاعفة أيضًا، متمثلة في عبْء الرسالة.

فنستنتج من هذه العبارة صفة قيمة في النبي (صلى الله عليه وسلم)، وهي أنه تحمل هذه المسؤولية وأدّاها حق أدائها ما لا يستطيع تأديتها أحدٌ مثله. بل إنه أدى أكثر مما وجب عليه، لأنه بلغ من الإتقان في التبليغ ما لم يبلغه أحد من الرسل قبله، والإخلاص لهذا الحد خصلة لا نجده في أغلب الرجال، إذ إنه يظل يحرص على نجاة أمَّته حتى بعد أن يدخل الجنة، وذلك حتى يُخرج مَن تبقى من أمته من النار.

وما يدل على أن كونه من المرسلين زاد من همه، لثقل هذه التكلفة، هو أنه كان يقول للناس في بعض أحاديثه "أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟" فيقولون: نعم، فيقول "اللَّهُمَّ اشْهَدْ"، وفي آونة أخرى كان

يُشهد الله ويسأله "اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟". وقد اختاره الله من بين سائر مخلوقاته لعلمه أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) أهل لهذه المسؤولية الثقيلة التي سيقترن معها أذى كثيرًا.

وأذى الناس يأتي من طبيعة الإنسان في مقاومة ما يغير ما اعتاد عليه لزمن طويل، أو ما يُخالف هواه، فمنهم من أقر بالحق وخضع للتغيير، ومنهم من أعرض عن الرسالة واكتفى بذلك. ولكن منهم من لم يكتفِ بالإعراض، فتَمَلَكَه كِبَره أو انغماسه في الباطل وعشقه له لدرجة أنه حارب الحق وعزم على القضاء عليه، لأنه يخالف معتقداته وهواه، واغتاظ أن الناس تمشي على منهجٍ غير منهجه، وأن هناك من أصبح أعزّ منهم، فتعدى على الداعي لهذه الرسالة، حتى إن كثيرًا منهم عزم على قتل النبي (صلى الله عليه وسلم).

وهكذا كان حال المشركين مع رسولنا (صلى الله عليه وسلم)، إذ ادَّعوا أنه مبتدع، وفي الحقيقة هم يخشون أنه سيهدم عليهم حياتهم الضالة الشهوانية، وربما يُساويهم مع الفقراء والمساكين والضُعفاء. فأين أنا من كل هذا العناء؟ هل تأذيت في سبيل هذه الرسالة؟ بالطبع لا، لأنني وُلدت في زمن أصبح فيه الإسلام معروفًا، وما يصيبني من بلاء لأني مسلمٌ لا يُقارن بما أصاب أولي العزم من المسلمين. إذًا هل اجتهدت بما يكفي في نشر هذه الرسالة على الأقل؟ أيضًا لا، لأنني مشغولٌ في المعاصي. إذًا، هل طبقت هذه الرسالة على الأقل بعد أن وصلتني؟ لا تزال الإجابة لا، لأني أحببت الدنيا، فسبحان الله.

أقل شيء يجب أن أحزن عليه هو كم عانى النبي (صلى الله عليه وسلم) لتبليغه لي، وهأنا أتهاون في الحد الأدنى من التكليف، وهو التطبيق، دون التطرق لقضية تحمل عناء التبليغ. فهأنا أعصي ربي دون حياء، فما أكون أنا؟ وهل سيسامحني النبي (صلى الله عليه وسلم) على هذا التقصير عندما أُقابله على حوضه يوم القيامة؟ لا حول ولا قوة إلا بالله، أين أنا من اجتهادك وصبرك يا رسول الله صلوات الله عليك وسلامه.

ومما نبأ الله رسوله به هو أنه بريءٌ من النتائج بعد تبليغ الناس {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ} [النحل 82]، وأن يقول للمشركين إنه بريء من أعمالهم وهم بريئون من عمله إن خالفوه {وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} [يونس 41]. ولكن في هذه الآية مبدأ عام، وهو أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بريءٌ من أعمال من سواه (سيشهد على الناس ولكن ليس عليه حمل أعمالهم الخاطئة)، فإنما عليه فقط البلاغ ولا يُحَمَّل نتائج اختيارات من أبلغهم، وهذا يشملنا نحن. وهذا يعني أن له ثواب ما نعمله من خير، أما ما نعمله من سوء فهو بريءٌ منه، لأنه نهى عنه، بل واحتذى لنا فكان قدوة مثالية لنا إذ لم يعصِ الله قط.

والحمد لله الذي جعل رسوله صابرًا علينا، ومع أن عليه فقط تبليغنا الرسالة إلا أنه ذهب أبعد من ذلك، فصبر على المسلمين حتى حسن إسلامهم، وقد تأذى في سبيل إيصالنا إلى كمال الرشد. فكم أُوذي الرسول (صلى الله عليه وسلم) بسبب أخطاء المسلمين، بالإضافة إلى أذية المشركين له، كما حدث في غزوة أُحد حين نال منه المشركون نيلًا مُبرحًا بسبب عصيان فئة رُماة المسلمين له، ولكن لم ينشق عنهم أو يطردهم أو يقسو عليهم، بل صبر وتحمَّل وعفا.

ومع أنه مُبرأٌ من أعمالنا السيئة، فإنه لا يتركنا حتى في يوم القيامة الذي فيه تتخلى الأم عن ابنها، فلا يزال يدعو الله "اللهم سَلِّم سَلِّم" كي ينجو أكبر عددٍ ممكن من المسلمين. فقولوا لي، بالنسبة إلى من هو مُكلف فقط بالتبليغ، هل يشمل التبليغ شفاعته لنا بعد التبليغ؟ هل يشمل التبليغ أنه يظل مهمومًا عن من تفلت من المسلين إلى النار، فيتوسل إلى الله بالدعاء والسجود ليشفع لمن استحق دخول النار من المسلمين، حتى يَخرج آخر واحدٍ من أتباعه؟! وقد انتقل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى الرفيق الأعلى، إلا أنه يأبى أن يكُف عن تكليف نفسه مسؤوليات ليست عليه حتى يُبَلِّغ كل مسلمٍ منا إلى الجنة!

والدليل على ذلك أن شفاعته للمسلمين في الآخرة لم تكن مفروضة عليه، إنما طلبها من الله، فحمَّل نفسه ذلك التكليف، فأيُّ حرص هذا على أتباعه وإتقانٍ للمسؤولية؟ أين تجد مثل ذلك؟ ومِمَّن؟ فقد جاء في الآثار أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) توسل إلى الله طلبًا أن يسمح له في أن يشفع للمسلمين، كما يرويه لنا أَبِو ذَرٍّ (رضي الله عنه) أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ليلةٍ صَلَّى فَقَرَأَ بِآيَةٍ حَتَّى أَصْبَحَ، يَرْكَعُ بِهَا وَيَسْجُدُ بِهَا {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}. فَلَمَّا أَصْبَحَ سأله أبو ذر: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا زِلْتَ تَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى أَصْبَحْتَ تَرْكَعُ بِهَا وَتَسْجُدُ بِهَا؟ قَالَ "إِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ الشَّفَاعَةَ لأُمَّتِي فَأَعْطَانِيهَا، وَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لِمَنْ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئًا"[1] (نَائِلَةٌ أي تصيب، أي لهذا الشخص حظ منها).

فالحمد لله أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قراراته ذو حكمةٍ بالغة، إذ قد جبله الله على ذلك، وأن مرجعيته هو منهج الله، فالذي اختار شرب اللبن بدلًا من الخمر في ليلة المعراج قد أنقذنا من الانحراف بقراره الصائب ذلك، وذلك بعد أن عرضهما عليه سيدنا جبريل (عليه السلام) في السماء. جاء في جزء من حديثٍ صحيحٍ للرسول (صلى الله عليه وسلم) أنه قال "ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءَيْنِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الآخَرِ خَمْرٌ، فَقَالَ: اشْرَبْ أَيَّهُمَا شِئْتَ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ فَشَرِبْتُهُ، فَقِيلَ: أَخَذْتَ الْفِطْرَةَ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَخَذْتَ الْخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ"[2].

---

[1] مسند أحمد 20365.

[2] صحيح البخاري 3143.

ومن قراراته المُنقذة لجموع الأمة الإسلامية هو أنه اختار الشفاعة بدلًا من ضمانٍ بدخول نصف أمته الجنة، كما جاء في الحديث الشريف "أَتَانِي آتٍ مِنْ عِنْدِ رَبِّي فَخَيَّرَنِي بَيْنَ أَنْ يُدْخِلَ نِصْفَ أُمَّتِي الْجَنَّةَ وَبَيْنَ الشَّفَاعَةِ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ، وَهِيَ لِمَنْ مَاتَ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا"[1]. والحمد لله أنه (صلى الله عليه وسلم) اختار أن يبذل الدعوة المضمونة إجابتها، التي يمنحها الله لكل نبي، في مسألة الشفاعة لأمته ولم يصرفها في طلبٍ آخر، في الرحمة لا في الانتقام. وهذا ما نبأنا به قائلًا "لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا"[2].

باختياره للشفاعة، يستطيع أن يُنجّي جميع أُمته من النار ولو بعد أمد، أي بعد أن يمكث مجموعة منهم في النار فترة من الزمن. وهذا، بلا شك، أفضل لعامة الأمة من أن يدخل نصف الأمة الإسلامية إلى الجنة دون دخول النار أولًا ولكن على حساب نصف الأمة الآخر، إذ قد يمكثون في النار فترة أطول، لأنه ليس هناك من يشفع لهم حتى تَقصُر مدة مكوثهم في جهنم.

فبالشفاعة، يستطيع الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن يُنقذ عددًا أكبر من المسلمين في المُحصّلة، وذلك ما نبأنا به قائلًا "خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ لأَنَّهَا أَعَمُّ وَأَكْفَى، أَتُرَوْنَهَا لِلْمُتَّقِينَ؟ لا، وَلَكِنَّهَا لِلْمُذْنِبِينَ الْخَطَّائِينَ الْمُتَلَوِّثِينَ"[3]، فمن منا لم يُخطئ ويتلوث بالذنوب؟ فالحمد لله حمدًا كَثِيرا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلا مُوَدَّعٍ وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ، والحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سُلطانه، والحمد له كما يُحب ويرضى؛ نعجز حتى عن تعبير أو إيفاء حمدك، فأنت كما أثنيت على نفسك. فشفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم) أصبحت صمام أمامٍ لنا من المكوث مُطولًا في النار، وربما حتى من الخلود فيها.

فالحمد لله على هدية الله لنا بالرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأنه تعالى جبله على الفطرة الصالحة، ووهب له من الصفات النفيسة مثل الحكمة البالغة، والإخلاص الشديد في التبليغ، والحرص الفَيَّاض على أتباعه. حقًّا، قد قالها الله لنا {لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رّحِيمٌ} [التوبة 128]. فلا يليق أن نستغل حرصه علينا بأن نعصي الله، فهذا تناقض شديد يصدر من أحدنا بالنسبة إلى مقصد الرسالة التي بلغتنا، وخذلانا للرسول (صلى الله عليه وسلم).

هذا لأن هدف الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن نتقي الله، ولكن أصبحنا نعصي الله ورسوله بالرغم من احتياجنا إلى رحمة ومغفرة الله، وشفاعة الرسول (صلى الله عليه وسلم). فإن لم تكن

---

[1] سنن الترمذي 2365.

[2] مسلم 296.

[3] سنن ابن ماجه 4301.

تحتاج إلى الرحمة والمغفرة والشفاعة، حينئذ أقول لك اعصِ الله كما يحلو لك، وقولي هذا هو على نفس نهج قول الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلامِ النُّبُوَّةِ: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ"[1].

واعلم أخي أن الله غنيٌّ عنا، وأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بريءٌ من أفعالنا المُفسدة، ولن ننال نصيبًا من فضله في الآخرة إذا تمادينا في الإفساد في الأرض، استدلالًا بجزء من حديثه "وَإِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَأُكَاثِرُ بِكُمْ الأُمَمَ، فَلا تُسَوِّدُوا وَجْهِي؛ أَلا وَإِنِّي مُسْتَنْقِذٌ أُنَاسًا، وَمُسْتَنْقَذٌ مِنِّي أُنَاسٌ فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُصَيْحَابِي! فَيَقُولُ: إِنَّكَ لا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ"[2] (فَرَطُكُمْ أي السابق والمُتقدم؛ مُسْتَنْقِذٌ هو التخليص). فلنحسن عملنا، ولا نخذل الرسول (صلى الله عليه وسلم) أو نُسَوِّد وجهه، واللذان يحدثان عندما لا نكون أهلًا للتباهي بهما يوم القيامة أمام سائر الأمم. ولنُجنِّبه المعاناة في الآخرة من أجلنا بكوننا عبئًا عليه في إخراجنا من النار.

الأنبياء يسعدون كلما كثر أتباعهم يوم القيامة، ويتباهون بين بعضهم في ذلك كما نبأنا النبي (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً"[3] (وَارِدَةً أي المَارّين عليه)، إذ يأمل أن يكون من نجوا بسببه كُثُر. فلنتفادى تخييب رغبته بعد كل ما بذله لنا، ونحقق ذلك بحُسن اتّباعه.

ثم للعلم، إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليس نعمة فقط للمسلمين، لكنه نعمةٌ ورحمةٌ للناس كافة، فقد قال "وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً"[4]. لقد كان حريصًا على الناس أن يؤمنوا بالله، ولو فردًا واحدًا من قوم بأكمله، فقد قال تعالى عنه {فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا} [الكهف 6] (بَاخِعٌ أي قاتل ومُهلك نفسك من الغيظ والحزن والحرص والأسف على أنهم لا يؤمنون بالإسلام). قد كان (صلى الله عليه وسلم) يحزن على كل نفس تتفلت منه بأن تموت غير مؤمنة بالله، لاهتمامه بنجاتها.

وهذا يظهر جليًّا في واقعة مثل يوم غزوة بدر، عندما بلغ المسلمون حَرَّةِ الوَبَرَةِ [هو مكان أربعة أميال من المدينة تقريبًا] في طريقهم للقاء العدو، فأدركه رجل قد كان يُذْكَرُ منه جُرْأَةٌ وَنَجْدَةٌ، ففرح أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأوه، فلما أدركه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: جِئْتُ لِأَتَّبِعَكَ وَأُصِيبَ مَعَكَ. قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟"، قال: لا، قال "فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ". ثم مضى حتى إذا كانوا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال

---

[1] صحيح البخاري 3224.

[2] سنن ابن ماجه 3048.

[3] سنن الترمذي 2367.

[4] صحيح البخاري 323، جزء من الحديث.

أول مرةٍ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم كما قال أول مرة، قال "فَارْجِعْ، فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ"، ثم رجع، فأدركه بالبَيْدَاءِ فقال له كما قال أول مرةٍ "تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ؟"، قال: نعم، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "فَانْطَلِقْ"[1].

بالرغم من أن قد يكون السبب الرئيسي في عدم الاستعانة بمشرك هو ألا يُقال إن الإسلام نُصر في أوله بغير المسلمين، إلا أن لا شك أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يُرد تعريض هذا المُشرك للقتل في الغزوة فيخلد في النار. كل يوم يعيشه هذا المشرك، مع موالاته للمسلمين، هو فرصة جديدة في أن يعتنق الإسلام فينجو ويخلد في الجنة.

ومن النعم التي أُحدثت للناس ببعثة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، حتى للذين لم يؤمنوا به، هي وصيته لأتباعه بالعدل مع كافة الناس، ورد إليهم حقوقهم ممن ظلمهم ولو بالقوة، ولو كان الظالم مسلمًا والمظلوم غير مسلم. قد حذَّرنا صلى الله عليه وسلم قائلًا "أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا، أَوْ انْتَقَصَهُ، أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ، أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بِغَيْرِ طِيبِ نَفْسٍ، فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2] (مُعَاهِدًا أو ذمِّي هو غير المسلم المُأمّن من قتله؛ حَجِيجُهُ أي خصم للمسلم ومُغالبه بالحُجّة). فهذا يعني أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيقف في صف الكافر المظلوم يوم القيامة، يشهد ضد المسلم الظالم، إلى أن تُقتص المظلمة! وقد نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قتل الذمِّي بالأولى، وحتى في الحروب قد نهى عن قتل النساء والصبيان والمُسالمين.

هذا مع العلم أن كل المخلوقات، حتى الكفار، يتوجهون إلى سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) مُقرّون بأنه رسول الله يومئذ، كي يُقدمونه للشفاعة لهم. قد ذكرنا الحديث الذي يطلب الناس من كل رسول أن يشفع لهم عند الله بأن يبدأ الحساب، وهذا بعد إعيائهم من طول الوقوف بعد البعث، فيكون رد الرُسُل "لَسْتُ لَهَا"، إلى أن يبلغوا سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فيقول "أَنَا لَهَا". ولكن ما قد يفوت البعض هو أن هذه الشفاعة يطلبها حتى غير المسلمين ويدخلوا فيها (ولكنها ليست شفاعة أن يدخلوا الجنة، بل أن يبدأ الحساب فقط لكل الناس). جاء في واقعة أن الله قال للرسول (صلى الله عليه وسلم) أن له ثلاث مسائل –دعوات– مُستجابات منه تعالى، فيروي (صلى الله عليه وسلم) "فقُلت: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي؛ وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ، حَتَّى إِبْرَاهِيمُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[3]. فهو يوم يرغب كل الخلق إلى رسولنا (صلى الله عليه وسلم)، من الرُسُل إلى الكفار، لأن قد ميَّزه الله برتبة من الشفاعة ليست لأحد، فكم حظنا عظيم أننا ننتمي إليه.

---

[1] صحيح مسلم 3388.

[2] سنن أبي داود 2654.

[3] صحيح مسلم 1365.

بل إنه (صلى الله عليه وسلم) ليس نعمة للبشرية فقط، فإنه نعمة للجن أيضًا! فإن من الجن من آمن على يديه كما دلت آيات مثل {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (1) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} [الجن 1-2].

لكن، من أكثر الناس إدراكًا لقيمة الرسول (صلى الله عليه وسلم) هم الأنصار، إذ يُروى لنا كلام مؤثر من الرسول (صلى الله عليه وسلم) في واقعة دارت بينه وبينهم، هي لنا تبصرة، وليستوعب المسلمون قيمة الأنصار. هذه الواقعة حدثت بعدما فُتحت مكة، ثم غنم المسلمون مغنمًا في غزوة أخرى، ففرَّق الرسول (صلى الله عليه وسلم) الغنائم في قريش، ومنهم المهاجرون، ولم يُعطِ عامة الأنصار منها، فهذا ما حدث:

قال أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ (رضي الله عنه): لَمَّا أَعْطَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَى مِنْ تِلْكَ الْعَطَايَا فِي قُرَيْشٍ وَقَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الْأَنْصَارِ مِنْهَا شَيْءٌ، وَجَدَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى كَثُرَتْ فِيهِمْ الْقَالَةُ [منهم من قال، كما في رواية أخرى: وَاللَّهِ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْعَجَبُ، إِنَّ سُيُوفَنَا تَقْطُرُ مِنْ دِمَاءِ قُرَيْشٍ وَغَنَائِمُنَا تُرَدُّ عَلَيْهِمْ[1]]، حَتَّى قَالَ قَائِلُهُمْ: لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ. فَدَخَلَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذَا الْحَيَّ قَدْ وَجَدُوا عَلَيْكَ فِي أَنْفُسِهِمْ لِمَا صَنَعْتَ فِي هَذَا الْفَيْءِ الَّذِي أَصَبْتَ، قَسَمْتَ فِي قَوْمِكَ وَأَعْطَيْتَ عَطَايَا عِظَامًا فِي قَبَائِلِ الْعَرَبِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ الْأَنْصَارِ شَيْءٌ. قَالَ "فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ؟" قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَنَا إِلَّا امْرُؤٌ مِنْ قَوْمِي وَمَا أَنَا؛ قَالَ "فَاجْمَعْ لِي قَوْمَكَ فِي هَذِهِ الْحَظِيرَةِ". فَخَرَجَ سَعْدٌ فَجَمَعَ النَّاسَ فِي تِلْكَ الْحَظِيرَةِ، فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ فَتَرَكَهُمْ فَدَخَلُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ فَرَدَّهُمْ، فَلَمَّا اجْتَمَعُوا أَتَاهُ سَعْدٌ فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ لَكَ هَذَا الْحَيُّ مِنْ الْأَنْصَارِ. فَأَتَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، ثُمَّ قَالَ "يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنِي عَنْكُمْ، وَجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلَّالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ، وَأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ؟" قَالُوا: بَلْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمَنُّ وَأَفْضَلُ، قَالَ "أَلَا تُجِيبُونَنِي يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ؟" قَالُوا: وَبِمَاذَا نُجِيبُكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ الْمَنُّ وَالْفَضْلُ؟ قَالَ "أَمَا وَاللَّهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلًا فَأَغْنَيْنَاكَ؛ أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ فِي لُعَاعَةٍ مِنْ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلَامِكُمْ؟! أَفَلَا تَرْضَوْنَ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالشَّاةِ وَالْبَعِيرِ وَتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي رِحَالِكُمْ؟ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْلَا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَأً مِنْ الْأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَسَلَكَتْ الْأَنْصَارُ شِعْبًا لَسَلَكْتُ شِعْبَ الْأَنْصَارِ، اللَّهُمَّ ارْحَمْ الْأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الْأَنْصَارِ وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ"، فَبَكَى الْقَوْمُ حَتَّى أَخْضَلُوا لِحَاهُمْ

[1] صحيح البخاري 3494.

وَقَالُوا: رَضِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ قِسْمًا وَحَظًّا، ثُمَّ انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَفَرَّقْنَا[1] (وَعَائِلًا أي فقيرا؛ لُعَاعَةٍ هي البقية اليسيرة من الشيء).

بل والأكثر والأكثر هو أنه (صلى الله عليه وسلم) هدية ورحمة بالنسبة إلى الحيوانات والحشرات والنباتات أيضًا! ففي عدة أحاديث يتبين هذا، منها أنه قال (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ"[2]. وقال عبد الله ابن عباس (رضي الله عنه): مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم على رجلٍ واضعٍ رجلَه على صفحةِ شاةٍ وهو يحُدُّ شفرتَه وهي تلحَظُ إليه ببصرِها، قال "أفلا قَبلَ هذا؟ أوَتريدُ أن تميتَها موْتتَيْن"[3].

وجاء عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ فَأَخَذْنَا فَرْخَيْهَا، فَجَاءَتْ الْحُمَرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرِشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا"، وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ "مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟"، قُلْنَا: نَحْنُ، قَالَ "إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلَّا رَبُّ النَّارِ"[4] (حُمَرَةً هو طائر صغير كالعصفور؛ تَفْرِشُ أي تُرفرف بأجنحتها فوقهم). وعن سيدنا ابن عباس (رضي الله عنه): نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل النَّحلَة وَالنَّملَة والصُّرَدِ والْهُدْهُد[5] (وَالنَّملَة، قال العلماء بجواز قتل النمل إذا آذى الإنسان؛ الصُّرَدِ هو نوع من الطيور).

وكان يُدافع عن الحيوانات، والتي بطبيعتها لا تستطيع أن تتكلم لتُسمِع شكواها. ذات مرةٍ رأى جملٌ الرسولَ (صلى الله عليه وسلم) فحَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ، فَسَكَتَ، فَقَالَ "مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ، لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ؟"، فَجَاءَ فَتًى مِنْ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ فَقَالَ "أَفَلَا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا؟ فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ"[6] (ذِفْرَاهُ أي أصل الأُذُن وطرفها؛ تُجِيعُهُ أي تُهمل إطعامه إلى أن يجوع؛ وَتُدْئِبُهُ أي تُتعبه بالكد والأحمال).

ثم هناك الواقعة العجيبة، التي يرويها لنا سيدنا جَابر بن عبد الله (رضي الله عنه): أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ، فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا

---

[1] مسند أحمد 11305.

[2] صحيح مسلم 3615.

[3] الترغيب والترهيب للمنذري 161/2.

[4] سنن أبي داود 2300.

[5] مسند أحمد 3073.

[6] سنن أبي داود 2186.

نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ "إِنْ شِئْتُمْ"، فَجَعَلُوا لَهُ مِنْبَرًا. فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ دُفِعَ إِلَى الْمِنْبَرِ، فَصَاحَتْ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ، ثُمَّ نَزَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَضَمَّهُ إِلَيْهِ، تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّنُ، قَالَ "كَانَتْ تَبْكِي عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنْ الذِّكْرِ عِنْدَهَا"[1].

وفي ختام هذا الفصل، أقول إنها تكفي لنا إشارة على مدى قيمة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن الجمادات كانت تُسلِّم على الرسول (صلى الله عليه وسلم) عندما يمر بجانبها، من عظم مكانته! وذلك ما يرويه لنا سيدنا عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ (رضي الله عنه) قَائلًا: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ فَخَرَجْنَا مَعَهُ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا، فَمَرَرْنَا بَيْنَ الْجِبَالِ وَالشَّجَرِ، فَلَمْ نَمُرَّ بِشَجَرَةٍ وَلا جَبَلٍ إلا قَالَ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ[2].

مدى حرصه علينا، فهو كالرجل الذي يمنع الفراش التي تحوم حول النار من أن تقع فيها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَوْقَدَ نَارًا، فَجَعَلَ الْجَنَادِبُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجَزِكُمْ عَنْ النَّارِ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِنْ يَدِي"[3] (الْجَنَادِبُ هو الصِّرَار الذي يُشبه الجراد؛ يَذُبُّهُنَّ أي يدفعهن ويمنعهن؛ بِحُجَزِكُمْ هو موضع عقد الإزار؛ تَفَلَّتُونَ أي تنفذون وتهربون). ما أروع هذا التشبيه، فقد شبهنا النبي (صلى الله عليه وسلم) كالجنادب والفراش حول النار ينجذبن إليها، سائرين نحوها وهما لا يعيان عواقبها، فنحن نحوم حول ما تشتهيه النفس وهي في الواقع معاصٍ لله تحُفُّ جهنم وتؤدي إلى هلاك النفس.

وكثيرًا ما لا نُفكر فيما يلي إسرافنا هذا من عذاب الجحيم، ونخدع أنفسنا بالأمل الكاذب، مثلًا بأننا نستطيع أن نتمتع بالدنيا والآخرة معًا بعد أن يعفو الله عنا، بالرغم من قلة طاعتنا وكثرة معصيتنا له. هذا والنبي (صلى الله عليه وسلم) يسعى لإبعادنا عن النار بأقصى طاقته، ومع ذلك فإن منا من لا يصغى ويقع في النار. فمهما فعل النبي (صلى الله عليه سلم) فإنه لا يستطيع إنقاذ النفس التي تأبى الأخذ بنصيحته، ولا يستطيع أن يفعل لها شيئًا كما أنه لا يستطيع أن يهدي من يُحب لأن الهداية من عند الله، فإني أرجو من الله ألا أكون من أولئك الأنفس المستعصية، وأرجو ذلك لكم أيضًا.

إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أحب أن يُجَنِّب الناس معاناة دخول جهنم، فيجب ألا أُخَيِّب أمله بعد كل ما عاناه لنشر الإسلام حتى يصل إلينا وإلى من بعدنا. وهذا الدين نعمة عظيمة قد

---

[1] صحيح البخاري 3319.

[2] سنن الدارمي 21.

[3] صحيح مسلم 4236.

لا نستوعب مداها، فالحمد لله عليه، ونحن نمتن ونِدين للنبي (صلى الله عليه وسلم) بالسمع والطاعة. فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) يحزن على أهل النار... وبعد يوم القيامة وقد دخل أصحاب الجنة الجنة، وأهل النار النار... يظل الرسول (صلى الله عليه وسلم) يدعو ويئن بإلحاحٍ مناجيا ربنا ساجدًا له أن يُخرج المسلمين من النار، في حين أهل الجنة ينشغلون بالتمتع في نعيم الجنة! فهذا النبي لا يرتاح له بال ولا يستطيع أن يتمتع بالجنة حتى يُخرج كل فرد من أمته من النار، فأي حرص هذا من نبي على أمته؟!

حبيبنا يا رسول الله، صلوات الله وسلامه عليك، فأي إخلاص هذا للنبوة؟! فحتى بعد دخوله الجنة، فإنها لا تلهيه عن الرجاء من الله في الشفاعة للمسلمين الذين في النار! فلماذا أُخذله؟ لماذا أُتعبه في الآخرة أيضًا بأن أُدخل نفسي النار بعد ما عاناه في الدنيا لتبليغ الإسلام؟ والله عيب عليَّ أن أجمع على نبيي حُزنين وهمَّين، في الدنيا وفي الآخرة. هو يحزن (وربما يلوم نفسه) على من تفلت منه في الدنيا من الدخول في الإسلام، ومن ثمَّ يُعذّب في الآخرة؛ وهمَّه أن تصل الرسالة إلى كل الناس في الدنيا، ويوم القيامة على من بقي في النار من المسلمين حتى يقضي هذا مدته في النار.

هذا هو نبينا المكلف بنا من الرحمن الرحيم (كرمًا ورأفةً بنا منه تعالى)، فترى إخلاصه لأمته وأنه حَملِ الرسالة حق حملها بتوفيق الله. فلم يكتفِ النبي صلى الله عليه وسلم على بذل كل جهده فقط في الدنيا لتبليغ الرسالة وإخراج الناس من الظلمات إلى النور، وتحمل من المعاناة ما لا يطيقه بشر عادي لتبليغ الرسالة كما كلفه الله، بل أنه حَمَلَ تكليف حِملِ الرسالة وما يترتب على ذلك من مسؤوليات حتى في الآخرة!

بعد أن كان عند الحوض يوم الظمأ ليسقينا، فها هو يستأذن الله ليبدأ الحساب بعد أن يشقّ يوم القيامة على الناس، وبعد أن اعتذر باقي الأنبياء عن فعل ذلك؛ ثم ها هو يدعو الله لنا لننجو ونحن نعبر جسر جهنم يقول "اللهم سَلِّم سَلِّم". بل يضاف إلى هذا كله أنه يأخذ بأيدي المسلمين الذين نجوا من الحساب فيُدخلهم الجنة بنفسه، ليطمئن مبدئيًّا على مجموعة من أتباعه! كيف؟ قال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) "آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ؛ فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ"[1]، فهو يستأذن بفتح الجنة لنا كي ندخلها، بل وللمؤمنين من سائر الأُمَم.

هذا هو حق حمل الرسالة والوفاء بالتكليف، وقد كان جديرًا بها نبيُّنا بفضل الله وعونه، فلنا الشرف أن نكون من أتباعه (صلى الله عليه وسلم)، ولنا المزايا أنه يُمَثِّلنا يوم القيامة. وفي لفتة

---

[1] صحيح مسلم 292.

جانبية عن مزايا وخصوصيات أتباع الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فله من الله –من باب التكريم والتشريف– أن يَدخل سبعون ألفا من أمته بغير حساب!

قال (صلى الله عليه وسلم) "عُرِضَتْ عَلَيَّ الأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأُمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفَرُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى مَعَهُ كَبْكَبَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَأَعْجَبُونِي فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاءِ؟ فَقِيلَ لِي: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، قُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ لِيَ: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ؛ فَنَظَرْتُ فَإِذَا الظِّرَابُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، ثُمَّ قِيلَ لِيَ: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ؛ فَنَظَرْتُ فَإِذَا الأُفُقُ قَدْ سُدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، فَقِيلَ لِي: أَرَضِيتَ؟ فَقُلْتُ: رَضِيتُ يَا رَبِّ، رَضِيتُ يَا رَبِّ. فَقِيلَ لِي: إِنَّ مَعَ هَؤُلاءِ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ"، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "فِدًا لَكُمْ أَبِي وَأُمِّي إِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنْ السَّبْعِينَ الأَلْفِ فَافْعَلُوا، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الظِّرَابِ، فَإِنْ قَصَّرْتُمْ فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ الأُفُقِ، فَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ ثَمَّ نَاسًا يَتَهَاوَشُونَ". فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْ السَّبْعِينَ، فَدَعَا لَهُ، فَقَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ "قَدْ سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ" ثُمَّ تَحَدَّثْنَا فَقُلْنَا: مَنْ تَرَوْنَ هَؤُلاءِ السَّبْعُونَ الأَلْفُ، قَوْمٌ وُلِدُوا فِي الإِسْلامِ لَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا حَتَّى مَاتُوا؟ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "هُمْ الَّذِينَ لا يَكْتَوُونَ، وَلا يَسْتَرْقُونَ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ"[1].

حول مصطلحات الحديث: الْعِصَابَةُ هم الجماعة من الناس؛ النَّفَرُ أي ما بين الثلاثة والعشرة أفراد، وجاء في رواية أخرى أن هناك من الأنبياء من يكون معه فقط رجل واحد؛ كَبْكَبَةٌ أي جمع كبير من الناس؛ الظِّرَابِ أي الوادي؛ الأُفُقُ أي الجهة أو ما بين السماء والأرض؛ يَتَهَاوَشُونَ أي اختلطوا واضطربوا ووقعت بينهم الفتنة؛ لا يَكْتَوُونَ أي لا يتداوون بالكيّ؛ وَلا يَسْتَرْقُونَ أي لا يطلبون الرُقي، وهو طلب قراءة الأذكار المشروعة عليه عندما يكون مريضًا؛ وَلا يَتَطَيَّرُونَ أي لا يتركون العمل تشاؤمًا.

ونلاحظ من الحديث أيضًا كم أن الأنبياء تكبدوا من عناء للتبليغ، ولكن منهم من لا يتَّبعه أحد! فكم عانى الرسول (صلى الله عليه وسلم) حتى يكون جمع أتباعه كهيئة سوادٍ يسد الأفق (بفضل الله وتوفيقه). أفبعد كل هذا الجهد والنصب والأذى الذي تكبده لتبليغ الرسالة كي تصلني، أتهاون بها أنا ولا ألتزم بها ولا أُراعي حدود الله؟! ءاجتهد النبي صلى الله عليه وسلم كي يخلف في الدنيا أناسًا أمثالي في ضعف الإيمان، مُقصّرين في تفعيل الإسلام؟! هل كانت تلك رغبته؟ فهل أنا ضيَّعت الأمانة؟ أيذهب مجهود النبي صلى الله عليه وسلم هدرًا عبر الزمن حتى لا يكون له أثر بسببي، كما سيكون حال الناس قبل قيام الساعة، فكثير ممن يُشهرون الإسلام لن يعرفوا كيفية الصلاة ولا الصيام؟!

[1] مسند أحمد 3615.

ووالله لئن ظللت أعصي الرسول (صلى الله عليه وسلم) في وصاياه لي بطاعة الله، فأسرفت في المعاصي وفعلت كل ما أشتهيه ويحلو لي، فلن يمنعه ذلك من أن يشفع لي في الآخرة ما دمت أتمسك بشهادة التوحيد. فبالرغم من حُزنه الشديد على مخالفتي لأمره، وأني خذلته، فإنه لن يستطيع جبر نفسه على ترك التوسط لي عند الله والشفاعة لي، وذلك من شدة حبه لأتباعه ووفائه، أفلا أستحيي؟!

بعد علمي بما بذله النبي صلى الله عليه وسلم في تبليغ الرسالة، ألا أستطيع أن أكون على الأقل من الذين لا يكونون عبئًا عليه يوم القيامة؟ فلن يهدأ بال الرسول صلى الله عليه وسلم حتى تَسلَمَ أمته، فلماذا أتهاون بدين الله، ألم يكفِ أنه بلغ، أم أني أُطالبه بالشفاعة أيضًا بعد أن ضيعت أمانة الرسالة؟

فماذا فعلنا مع هذا الرسول الذي وصفه الله {لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رّحِيمٌ} [التوبة 128]، حتى إن أناس من أُمَّته يُجبرونه أن يشهد عليهم يوم القيامة {وَقَالَ الرّسُولُ يارَبّ إِنّ قَوْمِي اتّخَذُواْ هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان 30]، الذين هجروا القرآن من مشركي قريش، وبالتبعية من المسلمين أيضًا؟! أما زلت لا أستحيي؟ أفلا أتقي الله؟ أفلا أكون من الذين ينصرون دين الله ويحملونه بدلًا من أكون من الذين خذلوا الدين ويَجُرُّونَه للاندثار؟ ولولا رجالٌ بحق، تركهم النبي صلى الله عليه وسلم بعده، ما وصلت هذه الرسالة إليَّ في مصر وأكملت إلى تركيا، ولو أنهم كانوا أمثالي لضاعت الرسالة. فلماذا أعصي الله؟ وللأسف الشديد، كل جيل يأتي يتهاون بالرسالة أكثر من الذي قبله، فأصبح نور الإسلام ينطفئ تدريجيًّا عبر الزمن. وكما قال العلماء: إن لله نورًا، ونور الله لا يسكن قلب عبدٍ مُظلمًا بالمعاصي. فلا يمكن أن تكون مجموعة عصاة هم حَمَلَة نور الإسلام.

والله بئس الشخص الذي يخذل النبي (صلى الله عليه وسلم) ويكون عبئًا عليه في الآخرة بعد ما عاناه في الدنيا، وأرجو ألا أكون منهم ولا أنتم. فيجب عليَّ أن أتعب في هذه الدنيا سعيًا لإرضاء ربي بالطاعة، ثم نبيي (صلى الله عليه وسلم)، كما في الآية {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [آل عمران 132]، فإني لم أُخلق في الأساس إلا لعبادة الله، وليس للَّهو. والواقع الذي يجب أن نُصارح أنفسنا به هو أن الحياة شقاق ومعاناة {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ} [البلد 4]. فيجب أن أتخلى عن فكرة العيشة في رخاءٍ في الدينا، وأتقبل واجبي أني سأتعب للدين اقتداءً برسولي (صلى الله عليه وسلم)، الذي أُوذي ليصل الإسلام إليَّ، وكدَّ في تبليغ الدعوة إلى أوسع نطاق ممكن. فعل هذا مُتحديًا من أراد إخماد نور الإسلام، فسافَر –إلى الطائف وإلى الأرقم وغير ذلك ليُعرِّف الناس بالإسلام– وهاجر وقاتل وبذل.

وإن كانت الحياة الدنيا سهلة، ونيل رضا الله ليس فيه مشقة في الدنيا، لكان النبي (صلى الله عليه وسلم) أولى مني في نيل تلك الراحة. فبالرغم من أنه خاتم رُسُل الله وعليه المسؤولية الثقيلة بتبليغ ونشر رسالة رب الناس في الأرض، فإنه لم يكن يشغله هذا ولا يرى نفسه فوق أن يخدم نفسه وأهله، أو حتى من أن يعمل الأعمال المنزلية الرتيبة.

سُئلت السيدة عائشة (رضي الله عنها) عما كان يعمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) في بيته، فقالت: كَانَ يَخِيطُ ثَوْبَهُ وَيَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَعْمَلُ مَا يَعْمَلُ الرِّجَالُ فِي بُيُوتِهِمْ[1] (وَيَخْصِفُ أي يقوم بخياطته وترقيعه). وفي رواية أخرى قالت: كَانَ بَشَرًا مِنْ الْبَشَرِ، يَفْلِي ثَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَخْدُمُ نَفْسَهُ[2] (يَفْلِي أي يُزيل من الثوب ما يؤذي). فكان متواضعًا، بل ومعاونًا لأهله في أعمالهم إذ قالت أيضًا: يَكُونُ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ -تَعْنِي خِدْمَةَ أَهْلِهِ-، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلَاةُ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ[3]. ولكن بما أنه تعب في حياته، فهذا يعني أني يجب أن أتعب أيضًا وأقتدي بسُنَّته للوصول إلى رضا الله، وأقهر نفسي عن الشهوات وأُليّنها وأحايلها لطاعة الله، وهذا أمر شاق ولكنه من الجهاد، وهو جهاد النفس.

إضافة إلى ذلك، فإن حرص الرسول (صلى الله عليه وسلم) علينا جعله مهمومًا في الدنيا باذلًا جُهده وقاطعًا للمشقات، فحتى في أوقات سكونه كان أمْر المسلمين يشغل باله، فقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه) أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم عليه السلام {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} الآية [ابراهيم 36]، وقال عيسى عليه السلام {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة 118]، فرفع (صلى الله عليه وسلم) يديه وقال "اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي" وبكى، فقال الله عز وجل: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؛ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلام فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ وَهُوَ أَعْلَمُ، فَقَالَ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلا نَسُوءُكَ[4].

وهذا نموذج آخر يبين لنا مدى حرص الرسول (صلى الله عليه وسلم) علينا، حتى إنه ليبكي هما علينا من الآخرة، في حين أناس من أمته لا يبكون على ما سيخوضونه شخصيًّا يوم القيامة، ولا يقلقون من مصير أنفسهم في الآخرة... فالحمد لله تعالى الذي مَنَّ علينا وأكرمنا بأن أرسل إلينا وجعل نبينا هو سيدنا محمد عليه أوفر الصلاة والسلام، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده، ونشهد أن محمدًا (صلى الله عليه وسلم) عبده ورسوله، خاتم النبيين، وسيد المرسلين، وإمام المسلمين يوم القيامة.

---

[1] مسند أحمد 23756.

[2] مسند أحمد 24998.

[3] صحيح البخاري 635.

[4] صحيح مسلم 301.

ونشهد له (صلى الله عليه وسلم) أيضًا أنه بلَّغ الرسالة حق التبليغ، وأدَّى واجباته حق التأدية، ووفَّى لنا حق الوفاء بل وزاد. وفي آخر حديث مذكور، يُكلّم ربنا أحب عباده إليه –وهو نبينا (صلى الله عليه وسلم)– عني وعن إخواني المسلمين، وهذا الحديث يتعلق بمصيري ويمسني شخصيًّا، فقد وعد الله فيه أن يكرم هذا النبي في أمته! فما مدى المصائب التي أكون قد ارتكبتها إن دخلت النار بعد كل هذا الكرم والرأفة والعفو؟

ماذا لو أن أعمالي السيئة تعدت فسحة كرم الله وعفوه، وشفاعة النبي (صلى الله عليه وسلم)، وانتهت في نطاق سخط الله وعذابه؟ أي نوع –بل أقول صنف– من المخلوقات أكون حينئذ عندما يحكم الله عليَّ أني لست جديرًا برحمته ولا كرمه، ولا أستحق الشفاعات الأوَّلية من نبيّي (صلى الله عليه وسلم)، فيُدخلني جهنم؟! فهذا ربي، رحمته وسعت كل شيء، وسبقت عذابه، وأَذِن لنبينا (صلى الله عليه وسلم) أن يُخفف عنا في الآخرة متمثلًا بإسقائنا من حوضه، وبطلبه من الله أن يبدأ الحساب بعد أن تشق ابتلاءات يوم القيامة على الناس. وأيضًا أذن الله له (صلى الله عليه سلم) أن يشفع ويستغيث لنا في شتى المراحل. فالسؤال هو، إن تجاوزت ذنوبي كل هذه الفرص للنجاة من النار، أفلا أستحق النار معترفًا بذلك؟!

وفي لفتة جانبية، بعد أن قرأتم هذا الحديث، الذي هو أحد الأحاديث المعبرة عن مدى حب الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) لنا وحرصه على سلامتنا، فما بال أناس يُعلنون إسلامهم ولكن يعرضون عنادًا عن سُنَّته ولا يتبعونها كالذين يقولون: منهجنا القرآن فقط (من دون السنة)؛ فبئس العبد، بئس العبد، ثم لبئس العبد. ولاسيما أن بعضًا منهم لا يُعرضون فقط عن السُنَّة، بل تمادوا فتطاولوا وانتقصوا من السُنَّة الشريفة، بأن يقول إن بعض الأفعال لا تناسب هذا الزمن مثلًا، أو يتمادون أكثر وأكثر حتى إنهم يطعنون في الرسول (صلى الله عليه وسلم) شخصيًّا بأن ينتقدوا تصرفَّاته مثلًا أو ينتقصوا من خُلُقه أو إنجازاته، وما دوافعهم من وراء ذلك إلا الحقد والعناد.

فعجبًا لأمر هؤلاء، يبتغون لقب أنهم مسلمون دون أن يُسَلِّموا لحُكم الله ولوصايا رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ودون أن يقبلوا الإسلام كليًّا، فيبقى المرء متسائلًا: ما الذي يُجبرهم على انتسابهم للإسلام إن كانو معترضين على جوانب منه؟ وبالرغم من ذلك كله، فقطعًا لن تمنعهم تطاولاتهم تلك من أن يتبجحوا بمحاولة الشرب من حوض الرسول (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة، ولن يمنعهم إنكارهم للسنَّة وإجرامهم من طلب الشفاعة منه (صلى الله عليه وسلم) أيضًا، فبأي جرأةٍ وفجورٍ يفعلون ذلك؟ قد تلاشى فيهم الحياء والنزاهة تمامًا. إن لهم أن يرفضوا الإسلام جُملةً أو أن يحتضنوه جملةً، ولكن ما مدى قبح أنفس أشخاص يَتَلَوَّنون بحسب الموقف؟

ورجوعًا إلى الموضوع الأساسي لهذا الفصل عن حرص الرسول (صلى الله عليه وسلم)، سيأتي إن شاء الله الكلام بالأمثلة في الفصل التالي على سعي الرسول (صلى الله عليه وسلم) في

التبليغ، لبيان مدى اجتهاده وحرصه، وهذا مقرونٌ بما لحقه من اضطهادات بسبب حرصه. فكلما حرص واجتهد أكثر في تبليغ الرسالة ثارت نار الحقد والغيظ في قلوب المُفسدين، فصعَّدوا أساليبهم في وأد الدعوة، وازدادوا خُبثًا، وهذه المشقة –مشقة تَعَنُّت الكارهين– مُضافةٌ إلى المشقة المطلوبة للتبليغ في حد ذاتها –مشقة السعي لتوعية الناس–، ولكنه (صلى الله عليه وسلم) لم يُلقِ بالًا لكل تلك المشقات.

وظل على ذلك الحال منذ بدء نزول الوحي عليه حتى بلغ ثلاثة وستين عامًا من العمر، وجاءته البشارات من الله أنه يشرف على الانتقال إلى الرفيق الأعلى، متمثلةً في نزول سورة النصر، والتي كانت بمنزلة إعلامه باقتراب أجله بين سطورها، ونزول آية المائدة عن اكتمال الدين، فظل (صلى الله عليه وسلم) يوصي الصحابة ويحثهم على الثبات قبل انتقاله من بينهم. فكانت تلك الفترة السعيدة الحزينة تجمع بين ذروة السعادة لتحقيق اكتمال وتأسيس الإسلام، وبين ذروة الحزن لوشوك فراق رأس الرسالة للأمة الإسلامية، ومن ثَمَّ أولى مقدمات مرحلة نقصان هذا الدين، نظرًا لابتعاد المسلمين عبر الأجيال عن منهجه، إذ إن نافذة الوحي والقدوة المثالية للأمة الإسلامية سيرحل عنها.

وقد جاء في الرحيق المختوم للمباركفوري عن هذا: بعد أن فرغ النبي (صلى الله عليه وسلم) من إلقاء خطبته في حجة الوداع على عرفة، وبعد أن أوصى المسلمين من وصايا دينهم، نزل عليه قوله تعالى {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا} [المائدة 3، جزء من الآية]. ولما نزلت بكى عمر (رضي الله عنه)، فقال له النبي (صلى الله عليه وسلم) "مَا يُبْكِيكَ"، قال: أبكاني أنّا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص، فقال "صَدَقْتَ"[1].

وهذه حقيقة مُحزنةٌ، فما زال ديننا –تطبيقيًّا– ينقص في الأرض بسبب هجر كثير من المسلمين له (علمًا أو عملًا أو الاثنين معًا)، وسينقص أكثر وأكثر حتى يأتي زمان ينفلت فيه الإسلام من الناس بسبب إهمالهم له، فيكون غريبًا بين الناس. آنذاك سيكون الوضع كما وصفه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من سوء حال الناس مع كثرة المفسدين، إلى درجة أن الله يقبض من تبقى من الصالحين ويذر شرار الناس على الأرض، وهؤلاء الذين تقوم عليهم الساعة. وذلك كما نبأنا الرسول الله (صلى الله عليه وسلم) "لا تَزَالُ عِصَابَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ قَاهِرِينَ لِعَدُوِّهِمْ، لا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ، حَتَّى تَأْتِيَهُمْ السَّاعَةُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ، مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ الإِيمَانِ إلا قَبَضَتْهُ، ثُمَّ يَبْقَى شِرَارُ النَّاسِ عَلَيْهِمْ تَقُومُ السَّاعَةُ"[2].

---

[1] تفسير ابن كثير 15/2؛ الدر المنثور 456/2؛ رواه أبي شيبة وابن جرير.

[2] صحيح مسلم 3550.

وفي بعض أحاديثه (صلى الله عليه وسلم) نجد تفاصيل أكثر عن حال الناس، منها: "لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى لا يُقَال فِي الأَرْض: لا إِلَه إِلا الله"[1]. وجاء "يَدْرُسُ الإِسْلامُ كَمَا يَدْرُسُ وَشْيُ الثَّوْبِ، حَتَّى لا يُدْرَى مَا صِيَامٌ وَلا صَلاةٌ وَلا نُسُكٌ وَلا صَدَقَةٌ، وَلَيُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي لَيْلَةٍ فَلا يَبْقَى فِي الأَرْضِ مِنْهُ آيَةٌ، وَتَبْقَى طَوَائِفُ مِنْ النَّاسِ، الشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالْعَجُوزُ يَقُولُونَ: أَدْرَكْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ 'لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ'، فَنَحْنُ نَقُولُهَا"[2] (يَدْرُسُ أي ضياع علمه ومحو آثاره).

وجاء أيضًا "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا ثُمَّ يَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَنْ الْغُرَبَاءُ؟ قَالَ "الَّذِينَ يُصْلِحُونَ إِذَا فَسَدَ النَّاسُ. وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُحَازَنَّ الْإِيمَانُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا يَحُوزُ السَّيْلُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيَأْرِزَنَّ الْإِسْلَامُ إِلَى مَا بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا"[3]. وفي وصف أشمل قال (صلى الله عليه وسلم) "بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ أَيَّامُ الْهَرْجِ، يَزُولُ فِيهَا الْعِلْمُ وَيَظْهَرُ فِيهَا الْجَهْلُ" (قَالَ أَبُو مُوسَى: وَالْهَرْجُ الْقَتْلُ)[4]. وجاء في أثرٍ ضعيف "لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يَرْجِع نَاس مِنْ أُمَّتِي إِلَى الأَوْثَان يَعْبُدُونَهَا مِنْ دُونِ الله"[5].

وبالطبع ليس غريبًا أن من هجر دينه حتى جهله يصبح يدور ويسرح في الأرض كالتائه، ويتقارب سلوكه من سلوك الحيوانات التي دليلها هو غريزتها. وذلك ما دل عليه أقوال الصحابة (رضي الله عنهم) فيما يتعلق بسوء خُلُق الناس، وانتشار الرذيلة، وقلة المصلحين الناهين عن المنكر في آخر الزمان. وأمثلة على تلك الأقوال ما جاء عن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه): لا تَقُوم السَّاعَة حَتَّى يُتَسَافَد فِي الطَّرِيق تَسَافُد الْحُمُر (يُتَسَافَد هي حالة جِمَاع)؛ وقال سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه): لا تَفْنَى هَذِهِ الأُمَّة حَتَّى يَقُوم الرَّجُل إِلَى الْمَرْأَة فَيَفْتَرِشهَا فِي الطَّرِيق، فَيَكُون خِيَارهمْ يَوْمَئِذٍ مَنْ يَقُول: لَوْ وَارَيْنَاهَا وَرَاءَ هَذَا الْحَائِط[6]، وللطَّبَرَانِيّ في الأَوسَط من حديث أبي ذَرّ نَحوه وفيه: يَقُول أَمْثَلهمْ: لَوْ اِعْتَزَلْتُمْ الطَّرِيق.

فما الذي يجعل الناس تهمل هذا الدين القيّم؟ وكفى بالإسلام نعمة لما فيه من راحة للعقل والنفس ومنفعة لنا، فالإسلام أفيد للإنسان من صحته، فكم من صحيح الجسد يخلد في النار، وكم من عليل الجسد يُشفيه الله في الآخرة ويُدخله الجنة. ولكن ما جعلنا نهمل ديننا هو حب الدنيا، والتهاون بحدود الله بارتكاب المعاصي. اعلموا أن ترك العبادات وارتكاب المعاصي مرتبطان ببعض، فترك العبادة تؤدي إلى ارتكاب المعاصي، والعكس صحيح، فارتكاب المعصية يُثقل العبادات على

---

[1] مسند أحمد 13331.

[2] سنن ابن ماجه 4039.

[3] مسند أحمد 16094.

[4] صحيح البخاري 6540.

[5] إتحاف الخيرة المهرة للبوصيري 99/8؛ قال عنه: ضعيف.

[6] فتح الباري بشرح صحيح البخاري 6588.

النفس فيؤدي إلى ترك العبادة، فيدخل المرء في دائرة مغلقة يصعب الخروج منها، وكسر الدورة يبدأ بإرغام النفس على ترك المعصية أو تطبيق العبادات.

والسؤال الصميمي الذي ينبغي أن أسأله نفسي هو: ءأكون ممن شارك في أن جُهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومعاناته تتلاشى هباءً عبر الزمن بعدم تطبيقي للإسلام؟ يجب أن أُدرك أنه لم يعانِ الرسول (صلى الله عليه وسلم) وحده كي يصلني الإسلام متموماً منتشرًا، فقد احتاج الإسلام إلى مراحل كي يكتمل ويألفه الناس ولا ينفرون منه، لأنه يتصادم مع عاداتهم من شرب الخمر والزنا والقتل لحَمِيّة الجاهلية وغير ذلك. إنما هو (صلى الله عليه وسلم) لَبِنَةٌ في بيت بُني بكد وعناء الأنبياء من قبله (عليهم السلام)، ما بين السخرية من سيدنا نوح (عليه السلام)، وقطع رأس سيدنا زكريا (عليه السلام)، ومحاولة حرق سيدنا إبراهيم (عليه السلام)، ومُحاولة قتل سيدنا موسى (عليه السلام)، ومحاولة صلب سيدنا عيسى (عليه السلام)، وبالطبع ما مر به سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم). هذا كله دون ذكر ما مر به حواريو الأنبياء والصالحون الذين اتبعوا الهدى.

فالرسول (صلى الله عليه وسلم) لبنةٌ في هذا البناء، كما قال عن نفسه "إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ؟ فَأَنَا اللَّبِنَةُ، وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ"[1]. وإني بإهمالي في تطبيق هذا الدين أُضِّيعه، عن طريق المعاصي مثلًا، وآنذاك يكون الواقع بمنزلة الذي يهدم ذلك البيت الذي بناه الأنبياء، والفرق بيني وبين المنافق حينئذ –إن سلمت من النفاق– أو الكافر هو أني أهدمه بغير قصدٍ، في حين المنافق والكافر يهدمانه عمدًا. أفلا أغار على ديني؟!

نماذج مما ناله من الأذى لإخفاء ما يحرص على تبليغه، ومدى عزمه وصبره وعفوه بالرغم من ذلك كله. إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان أشد الحرص على تبليغ الرسالة إلى أكبر عددٍ ممكن، وحرصه ذلك كان يلفت انتباه الكارهين فيعمدون إلى أذيته، وكلما ازداد حرصه (صلى الله عليه وسلم) للتبليغ زاد الحاقدين في أذيته من حيث الكم والنوع، فلا جدال أنه نال الأذى الفائق في مسيرة تبليغه.

وفي إلمامٍ للقضية عامة، ليس هناك ما يُعبّر عن المُعاناة التي لقيها الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثر مما يرويه بنفسه، فقد قال "لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِبِلالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلا شَيْءٌ

[1] صحيح البخاري 3271.

يُوَارِيهِ إِبْطُ بِلالٍ"[1] (ذُو كَبِدٍ أي مخلوق حي له كبد؛ ومعنى هذا الحديث حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربًا من مكة ومعه بِلالٌ، إنما كان مع بِلالٍ من الطعام ما يحمله تحت إبطه).

وفي واقعة يرويها لنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه): كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْكِي نَبِيًّا مِنْ الأَنْبِيَاءِ ضَرَبَهُ قَوْمُهُ فَأَدْمَوْهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ وَيَقُولُ "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ"[2]. وذلك حينما حاربه قومَه يوم أُحُد بعد أن شُجَّ رأسه وكُسرت رباعيته، فلم يزل يترأف بمن حاربه وحاول قتله من حسن الوفاء لقومه الذي نشأ بينهم، ومن حرصه على الناس عامة ورجائه أن يُسلم منهم أحد قبل أن يُهلكهم الله. فهذا هو خُلُق الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي لم يتخلق به بشرٌ بمثله قط، حتى إن الله شهد له برفعة خُلُقه في قوله {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم 4].

حبيبنا يا رسول الله، كم تحملت من أجل أن تصلنا الدعوة... وكم صبرت وعانيت حتى ينتشر الإسلام، ولترشد الناس إلى الهدى والصلاح وتنذرهم من عذاب الله. حقًّا، إن تحملت كل تلك المعاناة من أجل إبلاغي شيئًا، فلا بد أن هذا الشيء عظيم وبالغ القيمة، وبالذات أنك رفعت أهمية التبليغ فوق أهمية حياتك، فقد جعلت الدعوة إلى الله أولى من درء الأذى عن نفسك. وذلك إذ إن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يلتمس لقومه العذر على أمل أن منهم من ينصلح ويسلم فلا يُعذبون، بالرغم من أنهم حاربوه. فأي درجة من الحرص والمحبة تلك بحيث إنه (صلى الله عليه وسلم) حَرِصَ على أمته وعلى غير أمته، ويحرص على إدخال أكبر قدر من الناس في الإسلام دون استبعاد من يؤذيه حتى؟! فهذا الذي أحب المصلحة لغيره، حتى لمن آذاه منهم، بهذا القدر يستحق أن يكون خاتم النبيين وسيد المرسلين وأسمى خلق الله بحق.

وإقرارًا من الرسول (صلى الله عليه وسلم) على مدى الأذية التي طالته، سألته السيدة عائشة (رضي الله عنها) عن هذا يومًا قائلةً: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ فَقَالَ "لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رُدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الأَخْشَبَيْنِ"، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ

[1] سنن الترمذي 2396، قَال أبو عِيسَى: هذا حديث حسن صحيح.

[2] صحيح البخاري 3218.

عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا"[1] (ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلالٍ هو من أكابر أهل الطائف؛ الأَخْشَبَيْنِ هما جبلان يحيطان مكة).

لا إله إلا الله محمد رسول الله، فهكذا كان رسولنا (صلى الله عليه وسلم)، ويُشرِّفنا أن نكون من أتباعه. والله إني لأعتز أن أكون من أمة هذا النبي (صلى الله عليه وسلم)، وأكون من الشاهدين له أنه بلّغ الرسالة حق تبليغها، وأن يكون هو الذي يَقدُمني يوم القيامة. انظروا كم اجتهد النبي (صلى الله عليه وسلم) في تبليغ الرسالة وكم عانى في خلال سلكه ذلك الدرب، حتى إذا لم ينجح مع نفر من الناس فلم ييأس من أن يخرج منهم من يُسلم آجلًا. هذا بالرغم من همّه وغمّه الشديدين الذين أصابوه، فإنه كان في أضعف حالاته عندما لم يُجبه أحد من الطائف للإسلام ولا أن يؤووه من قومه، بل ردوا عليه بأقبح الردود وسلطوا عليه الصبيان ليلقوا عليه الحجارة ويُطاردوه.

وعلى الوجه الآخر، كان قومه يضطهدونه (وقيل في فتح الباري إن هذه الواقعة كانت بعد موت أبي طالب الذي كان يحميه في مكة، وبعد موت السيدة خديجة التي كان يأنس بها)، ولكن بالرغم من ذلك كله فلم يُسوِّغ له ذلك ولم يدفعه إلى أن يدعو على قومه بالهلاك. ونلاحظ صيغة كلامه "مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ"، فلم يقل: مَن يعبدون، ويكأنه يأمل في أن يخرج ولو واحدًا حتى من كل هؤلاء الذين آذوه يقول لا إله إلا الله فينجو، وكان ذلك لَيُسعد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويكفيه.

ولكن الحمد لله أن رمز الإسلام هو الرسول الذي خُلُقهُ كما قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها): كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ[2]. فلهذا الحد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) مهمومًا على نجاة الناس عامةً، فإذا كان حريصًا ولو على فرد من مدينة مكة (قبل أن يسلم عامة أهلها)، فلا شك على أنه كان حريصًا أيضًا على أن يصل الإسلام إليَّ أنا شخصيًّا، ولا شك أنه كان سيجتهد مثل ما اجتهد مع هؤلاء على أن يدعونني شخصيًّا بنفسه إن كنت في زمنه!

الحمد لله الذي جعل رسول الإسلام لديه هذا القدر من العطاء والعفو والرحمة والإخلاص، فقد تحمَّل النبي (صلى الله عليه وسلم) ما لا يحتمله أحدٌ منا، ويتثبت على مقابلة الإساءة بالإحسان حتى يصل الدين إلينا وإلى من يلوننا، فهلا سلَّمت من بعدي الإسلام محفوظًا كما نقله النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى من هم قبلي وسلَّموه إليَّ محفوظًا بدلًا من أن أُدنِّسه وأُضيِّعه بالمعاصي؟! فلو أني أدركت قيمة هذه الرسالة بحق وما بُذل لتظهر على وجه الأرض، ما فرطت فيها بهذا الشكل.

النبي (صلى الله عليه وسلم) خاض الجزء الأصعب، وهو إدخال الإسلام على الناس وتفعيله ونشره، وترك لي الجزء الأسهل وهو اتِّباع المنهج بطاعة الله والبعد عن معصيته ودعوة الناس إلى

---

[1] صحيح مسلم 3352.

[2] مسند أحمد 24139.

هذا الدين القيّم، والمخزي أني أُخفِق في نصيبي في حين أتمّ هو دوره الأصعب... لماذا أُقصِّر في تلبية رغبته بعد كل ما عاناه من أجلي، بل وربما أتمادى في مخالفة أحكام الإسلام.... ألم يكفِ ما عاناه لتبليغ الإسلام، أم يلزم عليَّ أن أُحمّله عبئي في الآخرة أيضًا بأن يظل مهمومًا ويسجد لله راجيًا من الله ومُلِحًّا عليه "يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي" شفاعةً لي كي يُخرجني من النار؟! فلماذا أنا سلبي هكذا؟! لماذا لا أكون صالحًا؟ لماذا لا أكون ممن يُرحب بهم الرسول (صلى الله عليه وسلم) بدلًا من أكون حملًا على عاتقه؟ اللهم اهدنا وحبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

نبي الرحمة (صلى الله عليه وسلم) لم يأذن لملك الجبال أن يُطْبِق الأخشبين، ولو أطبقهما ملك الجبال لهلك أهل مكة، ولكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رفض ذلك بالرغم من إقراره على مدى الأذية التي طالته. والله إني لفخور أن هذا هو نبيي وأنا من أُمَّتِه. من هذا الموقف يجب أن يستيقن كل الناس أن هذا خُلُق رسول حقًّا، الحرص على الناس مع الرحمة والصبر عليهم، فما هو غير رسولٍ؟ ذلك بأن الله مكَّنه على الناس ومع هذا لم يُسئ استخدام القوة بالرغم من أنهم آذوه، وما هو يريد سلطان ولا جاه لأن الله معه ويُسَخِّر له الملائكة، فأي سلطةٍ وعزٍ ونصرةٍ بعد تلك؟

وما هو ببشر عادي، لأن البشر بطبيعته يدمر أعداءه دون إعادة نظر، ولكن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) صبر حتى يُنقذ ولو فقط واحدًا من النار بأن يسلم لله، وفضَّل أن يرحم الناس ويعفو بدلًا من إهلاكهم. فهذا دليل قطعيٌ أنه رسول، وأنه رحيم بمن يدعوه. إن كان أحدنا في هذا الموقف لأطبق الجبال، ولأطبق أيضًا إن استطاع الأرض والسماء والشمس والقمر والكون كله على هذه القرية ثأرًا لنفسه وتنكيلًا بمن خالف نُصحه! فأين نحن من هذه الأخلاق والصفات النبوية؟! أين ذهب تسامحنا وصبرنا وحكمتنا؟ ما تدهورت أخلاق الأمم إلا بالمعاصي والإعراض عن منهج الله.

إن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ليفرح أن يسلم أحد، وإنه ليباهي بنا الأمم يوم القيامة، ويأمل أن أكون أنا من الذين وصلتهم الرسالة وأعبد الله لا أشرك به شيئًا. ومعلوم أن الشرك نوعان، أكبر وأصغر، فمن الشرك الأصغر أن يتبع الإنسان شهوة من شهواته تحركه وتوجهه لا يرفض لها طلبًا ولا يُقاومها ولو مرةً. والأدلة كثيرة على أن من يتَّبع شهوةً يصبح عبدًا لها، منها في القرآن {فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلّ مِمّنْ اتّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مّنَ اللهِ إِنّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ} [القصص 50]؛ {أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا} [الفرقان 43]. هؤلاء وصل بهم اتباع شهواتهم إلى الكفر الأكبر، وليس الأصغر فحسب.

وأما الأحاديث فمنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ"[1] (وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ هما نوعان من الألبسة). وعن عَدِيّ بن حاتم قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ فَقَالَ "يَا عَدِيُّ، اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ"، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ بَرَاءَةٌ {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ} قَالَ "أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ"[2]. فمن أطاع شهوة باستمرار واستحلها أصبح عبدًا لهذه الشهوة.

ولننظر كيف كان حال سيدنا نوح (عليه السلام) عندما لم يجبه قومه بعد ما يقرب من ألف سنة، فقد دعا عليهم كي لا يُضلوا الذين آمنوا، بعد أن نبأه الله أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن. جاء في القرآن {وَقَالَ نُوحٌ رّبّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيّارا (26) إِنّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلّواْ عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوَاْ إِلاّ فَاجِرًا كَفّارا} [نوح 26–27]. ومع مراعاة اختلاف المواقف والفترة الدعوية بين سيدنا نوح (عليه السلام) وسيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم)، وكونهما يشتركان في أنهما رسولان، إلا أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) لم يدعُ على أقوام عامة، بل كان يدعو على أفرادٍ بعينهم أو فئةٍ حملت السلاح لمقاتلته، مما دل عليه رده عندما قِيلَ له: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، قَالَ "إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً"[3].

وفي دلالة أخرى على مدى رحمته يروي سيدنا أبو هُرَيرَة (رضي الله عنه) قائلًا: قَدِمَ الطُّفَيْلُ بْنُ عَمْرٍو الدَّوْسِيُّ وَأَصْحَابُهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ عَصَتْ وَأَبَتْ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا ["دَوْسًا" هو اسم القوم]، قال أبو هريرة: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَيْهِ فَقُلْتُ: هَلَكَتْ دَوْسٌ! فَقَالَ (الرسول صلى الله عليه وسلم) "اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَأْتِ بِهَا"[4]؛ وقد كان! إنما كان يدعو على الذين يُصِرُّون على محاربة الإسلام بإجرامٍ أو بالغوا في أذية الناس، ولم يكن ليدعوا على من أعرضوا عن رسالته ليهلكهم وهم لم يُحاربونه، بل كان يأمل في أن يتغير موقفهم فينجون.

فقد كان نبينا (صلى الله عليه وسلم) أرأف من سيدنا نوح (عليه السلام) وكان يرجو أن يخرج ولو واحد من قريش يقول: لا إله إلا الله، فلا إله إلا الله حقًّا! والحمد لله على الهدى وإرساله لنا نبيًّا عنوان سيماته هو الرحمة، مما يدل على رحمة الله بنا. ورحمة النبي (صلى الله عليه وسلم) بالناس في الدعوة دليل أن الله هو الإله ولا إله غيره، لأن من الذي يقدر على محاسبة الناس وعقوبتهم ومع ذلك يرسل لهم رسولًا رحيمًا بهذا القدر؟ فالذي أرسل رسولًا رحيمًا بالرغم من قدرته اللا محدودة فلا شك أنه أرحم من المرسول للناس.

---

[1] صحيح البخاري 5955.

[2] سنن الترمذي 3020.

[3] صحيح مسلم 4704.

[4] مسند أحمد 10122.

وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) واصفًا لنا الله فيما نقله سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قائلًا: قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنْ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟"، قُلْنَا: لا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ "لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا"[1]. فمن يفعل هذا مع خلقه ويتَّصف بتلك الصفات وجبت له الرُبُوبية والأُلُوهية وحده لا شريك له. فإرسال النبي (صلى الله عليه وسلم) دليل على أن الله هو الله، ويبين للناس أن من أرسل هذا النبي يستحق أن يكون إلهًا واحدًا لا شريك له ويستحق أن يُعبد وحده!

وفي واقعة أخرى يتبين لنا مدى إصراره (صلى الله عليه وسلم) على إقامة هذا الدين، إذ بلغ اضطهاد المشركين له حتى تكالبوا عليه بشتى الطرق، منها مكايدتهم له عن طريق عمِّه أبي طالب. جاء في كتاب الرحيق المختوم للمباركفوري (رحمه الله): جاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفًا ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين.

عَظُم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليَّ وعلى نفسك، ولا تُحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله، وأنه ضعُف عن نصرته، فقال: وَاللَّهِ يَا عَمِّ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي شِمَالِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ، مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ[2]، ثم استعبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له: اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُك لشيء أبدًا (انتهى)[3].

فهذا رد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عندما شعر أن الدنيا تضيق عليه بسبب نصرته لهذا الدين، فقد أدرك (صلى الله عليه وسلم) قيمة هذا الدين وتحمل المآسي والاضطهادات من أجل نشره وإقامته، حتى يصل إليَّ. إنه لم يستسلم، فلم يُجب هؤلاء بترك تبليغ هذه الرسالة، ولو كان فعل ذلك فكيف يكون وضعي الآن دون نور الإسلام؟ وهذا بالضبط ما أفعله أنا بمعصيتي لله، فبمعصيتي أُسَلِّم ديني للمشركين لقمةً بلقمة، إذ لا أقيم أركانه فيضعف لأن رسوخ الدين يكون بإقامته، وتنتهز هذه الفرصة أعداء الإسلام فتتكالب الأمم ليقضوا عليه، كما أصبح واضحًا على ألسنتهم وبأفعالهم سعيًا للانتقاص منه.

---

[1] صحيح البخاري 5540.

[2] الحديث ضعيف لأن به موضع إرسال؛ ورواه الألباني بصيغة أخرى وقال عنه: ضعيف. نقلته من كتاب الرقة والبكاء لابن قدامة بدلًا من الرحيق المختوم.

[3] السيرة النبوية لابن هشام 1/265-266.

ألم أدرك حتى الآن أني أيضًا قيمةٌ لهذا الدين؟ والدليل على هذا هو أن دم المسلم عزيزٌ عند الله، وأن في آخر الزمن عندما يكون الدين موجودًا ولكن يقل المتمسكون به فحينئذ يرفع الله القرآن ويقبض أرواح المسلمين حتى لا يُعانوا من شدائد العلامات الكبرى لقيام الساعة. ألم يأن الوقت أن أُقر بأن ما أرتكبه من معاصٍ إنما يُثبّط من نصرة ورسوخ هذا الدين في الأرض؟

وإليكم نماذج مما ناله بسبب رغبته الطيبة وسعيه الفائق في تبليغ هذا الدين، وحتى يُوصل الرسالة إلينا، وذلك من كُتب سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم):

- **من الاعتداءات على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أن أبا لهب كان يجول خلف النبي صلى الله عليه وسلم في موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب، بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه[1] (انتهى).**

هكذا كان حال نبينا صلى الله عليه وسلم لنشر الدعوة، فقد كان يُكذبُه أبو لهب (وهو عَمّهُ) وأمثاله ويعتدي عليه، فما بالنا بشعور النبي صلى الله عليه وسلم ووراءه من يتبعه ليُكذِّبه ويتَّهمه بالجنون والسحر، وفيهم من هو من نَسَبَه، ولكنه لم يأبه لذلك لأن كان أمامه هدفٌ أسمى أن يُحققه. فقد كان أبو لهب يحاول هدم كل مجهود للنبي صلى الله عليه وسلم في نشر الدعوة للناس وبلغ إلى أنه كان يضرب نبينا. أنشدكم بالله ماذا تظنون أن أحدنا كان ليفعل إذا رأى أحدًا يضرب الرسول صلى الله عليه وسلم، رسولنا؟ أبعد كل هذه المعاناة من النبي صلى الله عليه وسلم وكل هذه الحمية مننا تجاه رسولنا نتراخى عن دين الله الذي عانى الرسول صلى الله عليه وسلم ليبلغه لنا؟ أمنطقي هذا؟!

- **وفي البخاري أن عبد الله بن مسعُود (رضي الله عنه) روى: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يُصَلِّي عِنْدَ الْبَيْتِ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابٌ لَهُ جُلُوسٌ إِذْ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْض: أَيُّكُمْ يَجِيءُ بِسَلَى جَزُورِ بَنِي فُلانٍ فَيَضَعُهُ عَلَى ظَهْرِ مُحَمَّدٍ إِذَا سَجَدَ؟ فَانْبَعَثَ أَشْقَى الْقَوْمِ فَجَاءَ بِهِ، فَنَظَرَ حَتَّى سَجَدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَضَعَهُ عَلَى ظَهْرِهِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ، وَأَنَا أَنْظُرُ لا أُغْنِي شَيْئًا، لَوْ كَانَ لِي مَنَعَةٌ؛ فَجَعَلُوا يَضْحَكُونَ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَاجِدٌ لا يَرْفَعُ رَأْسَهُ حَتَّى جَاءَتْهُ فَاطِمَةُ فَطَرَحَتْ عَنْ ظَهْرِهِ، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ ثُمَّ قَالَ "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ" ثَلاثَ مَرَّاتٍ، فَشَقَّ عَلَيْهِمْ إِذْ دَعَا عَلَيْهِمْ وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ الدَّعْوَةَ فِي ذَلِكَ الْبَلَدِ مُسْتَجَابَةٌ، ثُمَّ سَمَّى "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ**

[1] **كنز العمال 449/12.**

وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ" وَعَدَّ السَّابِعَ فَلَمْ يَحْفَظْ. قَالَ عبد الله: فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ رَأَيْتُ الَّذِينَ عَدَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَرْعَى فِي الْقَلِيبِ – قَلِيبِ بَدْرٍ[1] (بِسَلَى جَزُورٍ هي بقايا من نحر الإبل؛ وَيُحِيلُ بَعْضُهُمْ أي يميلون على بعض؛ أَشْقَى أي أكثرهم خبثًا؛ مَنَعَةٌ أي من ينصره ذو سلطة وقوة؛ الْقَلِيبِ هو البئر القديم) (انتهى).

من تلك الواقعة يتبين لنا كم تضرر الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أذية المشركين له، إلى درجة أنه دعى عليهم بالهلاك مع أنه أرأف وأعفا البشر.

- كان أُبَيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط متصافيين (أي قرينين)، وجلس عقبة مرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسمع منه، فلما بلغ ذلك أُبيًّا أَنَّبه وعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعل[2] (انتهى).

لا إله إلا الله. هذا أشرف الخلق عند الله، وأكرم خلق الله، يُتفل في وجهه... وإني لم أكن في ذلك الزمن العصيب، ولكن شاء الله أن أكون في هذا الزمان الذي أنا فيه الآن، وأقدر أن أفعل شيئًا مفيدًا، وهو تمسكي بديني حتى لا يذهب ما عاناه رسولي المرسل إليَّ (صلى الله عليه وسلم) هباءً بارتكابي معاصي. فإن العاصي أو المتراخي أو المتساهل أو المستخف بحدود الله لا يساهم في رفع وإقامة هذا الدين ولا الدفاع عنه، بل يهدمه ويكون عبئًا على الذين يحملونه حقًّا.

ومع تقدم الزمن نرى كمًّا كبيرًا من المعاصي في العلانية، وهذا أقبح من المعصية سرًّا لأن الجهر بالمعصية إعلانٌ بتحدي حدود الله ويُفتن الآخرين. ومن الجهة الأخرى، هناك تهاون من بعضنا في إصلاحهم أو النهي عنها، أو حتى إبداء التمعر منها، فهذا مما يشجع العصاة على الجهر بها وبمعاصٍ أخرى أقبح وأقبح ما دام لا يعترضهم أحدٌ. ويظل الوضع، ما دام يمتنع المصلحون عن النهي عن المنكر، يتفاقم حتى يكون ما كان بالأمس منكرًا يصبح اليوم معتادًا عليه، بل ومقبولًا وربما مألوفًا، فإن السكوت عن زجر المعصية هو بمنزلة الموافقة وقبول الوضع بالنسبة إلى العاصي المجترئ.

فهكذا يصبع الذي كان قبيحًا بالأمس يصبح العادة اليوم، كما نرى في بعض الدول ذات الأغلبية المسلمة كيف يمشي الولد يمسك بيد "صاحبته"، أو واضعًا يده على كتفها ولا يعترضه أحد! وتدريجيًّا يتجرأ الولاد عبر الأجيال في الجهر بمثل هذه الأفعال حتى نصبح يومًا فنرى الولد يفترش "صاحبته" في الطرقات دون حياء، وإن زجره واعظ رد عليه وربما

[1] صحيح البخاري 233.

[2] ابن هشام 361/1.

نال منه لأنه يرى نفسه على الصواب، أن هذه من الحرية الشخصية، وليس الواعظ، ولا يعترضه إلا القليل.

وقد ذُكر قريبًا أقوال الصحابة بأن الأمر سيصل إلى الجماع في العلانية في طرق بلاد المسلمين، والناهون عن المنكر ضعفاء آنذاك. نعم إخواني، هذه المصائب آتية بسبب إهمالنا وتقصيرنا ومعصيتنا لربنا، حتى يكون المتمسك بالدين يُستهزَأ به كما كان مشركو قريش يَستهزئون بالصحابة، وكان يُسخر من سيدنا نوح (عليه السلام) لأنه يبني الفلك بعيدًا عن البحر وهو على وحيٍ من الله.

ووصف ربنا تعالى مدى داهية تلك الفتن على لسان رسوله (صلى الله عليه وسلم) في أحاديث مثل "سَتَكُونُ فِتَنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفْهُ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْهَا مَلْجَا أَوْ مَعَاذًا فَلْيَعُذْ بِهِ" (تَشَرَّفَ أي تعَرَّض أو تطلَّع)[1]؛ "تَكُونُ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ فِتَنٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنْ الدُّنْيَا"[2]؛ "يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الصَّابِرُ فِيهِمْ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِضِ عَلَى الْجَمْرِ"[3].

هذا وقد أُوحي إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما ستقع فيه أمّته من الفتن فقال "أَلا إِنِّي فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ وَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمْ الأُمَمَ، فَلا تَقْتَتِلُنَّ بَعْدِي"[4]. وللأسف نحن الآن نرى كثيرًا من المسلمين أيديهم مُلطَّخة بدماء مسلمين آخرين، ما بين صراعات قبائلية فيها جاهلية، واقتتال على تولي الحُكم –وسبحان الله، مع أن الصحابة الكرام كانوا يُعرِضون عن تولي الحكم من ثقل عبئه يوم القيامة–، وجهل في فقه تطبيق أحكام الدين، والتجبر في فرض الرأي والهوى.

قولوا لي إذًا، كيف نرفع دين الله كما رفعه أبو بكر وعمر وعلي وعثمان والصحابة وقد استُبدلوا بأُناس يتركون سُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ويُكثرون المعاصي؟ أم أن الدعوة اقتصرت فقط على النبي والصحابة وأني لست مُطالبًا بالحفاظ على هذا الدين؟! أم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن مراده إقامة الدين إلى زمني هذا وبعده!؟! أم أن حُجَّتي لنفسي "هذا ليس زمني، ولو كنت في زمن النبي (صلى الله عليه وسلم)

---

[1] صحيح البخاري 6554.

[2] سنن الترمذي 2123.

[3] سنن الترمذي 2186.

[4] مسند أحمد 18289.

لفعلت كذا وكذا" أقعدني عن الحفاظ على ديني الآن، واتخذتها مبررًا لفعل ما أشاء من معاصٍ وأُخمد ضميري؟

فلماذا تهاونت بديني؟ ألدنيا فانية أصيبها؟! فما فائدة إصابتها إن كانت تفنى؟ إن الصحابة كان عندهم من الإيمان ما يجعلهم يحملون هذا الدين على أكتافهم ولو كلفهم حياتهم، ومن العزيمة ما يكفي لتغيير الظروف المحيطة بهم حتى يُقيموا شرع الله في الأرض. فيجب أن أسأل نفسي: لماذا قد أترك نفسي حتى أكون سلبيًّا، أسير مع سيران عامة الناس، إذا اتقوا الله اتقيته، وإذا عصوا الله عصيته... أذهب كما تقودني الرياح! لماذا قد أفعل بنفسي ذلك، أكون بلا شخصية ولا كيانٍ مُستقل ولا أُقرُّ بالحق؟

وأين أنا إذًا من وصية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الذي يريد فلاحي "لا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ: إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا، وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاءُوا فَلا تَظْلِمُوا"[1] (إِمَّعَةً هو من يُقلِّد غيره في القول والعمل، والمراد اتباع الناس بلا مبدأ ولا حدود؛ وَطِّنُوا أي تهيئة النفس وتمهيدها). ملحوظة: الحديث يشير إلى الخُلُق الرفيع للمؤمن، أنه يُحسن إلى الناس عامة، وإن أساءوا إليه ألا تكون ذلك ذريعةً له أن يظلمهم، ولكن له وجه تطبيق فيمن يكون سلوكه في الدين كما يكون سلوك الناس حوله. فما بالنا بمن يتبع الناس دون عقل كالأنعام، بل وما بالنا فيمن يؤثر اتباع نهج الكُفار على نهج المسلمين؟

وكيف أكون حافظًا لدين الله، من المُعتدين عليه، وأنا لا أحميه من نفسي بالإقلاع عن المعاصي؟ كيف للعاصي أن يصلح المجتمع ويحمل دين الله على كتفيه، إذ إن الذين يدعوهم للانصلاح يرون أن الداعي نفسه فيه انتقاض وفساد؟ فإنه لن يزيد الدين إلا ضياعًا، الدين الذي عانى الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أجل إقامته ونشره يتسرب ويؤتى من قِبَلَ أمثالي. فما فائدة حياةُ مَن ترك دين الله يتلاشى؟

- وجاء عن عروة بن الزبير قال: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ الْمُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الْكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ {أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ}[2] (انتهى).

---

[1] سنن الترمذي 1930.

[2] صحيح البخاري 3567.

كاد عقبة أن يقتل النبي (صلى الله عليه وسلم) لإقامة هذا الدين، وهذه محاولة من المحاولات لقتل رسول الله (صلى الله عليه وسلم). كل هذا العداء له وهو لم يؤذِ أحدًا، بل جاء بالرسالة من الله التي تحمل الرحمة والعزة والخير للناس، وود النبي (صلى الله عليه وسلم) أن تسلم قريش فينجون من النار. ما أراد إلا خيرًا للناس ولي، وهأنا أعرض عما جاء به بارتكابي المعاصي، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

- ويروي (في حديث ضعيف) عبد الله بن جعفر: لمَّا ماتَ أبو طالبٍ، عرضَ لرسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ سفيهٌ من قُريشٍ فألقى عليْهِ ترابًا، فرجعَ إلى بيتِهِ فأتت بِنتُه تمسحُ عن وجهِهِ التُّرابَ وتبكي، فجعل يقولُ "أي بنيَّةَ لا تبْكينَ فإنَّ اللَّهَ مانعٌ أباك"، ويقولُ ما بينَ ذلِكَ "ما نالت منِّي قريشٌ شيئًا أَكرَهُهُ حتَّى ماتَ أبو طالبٍ"[1].

هذا إقرارٌ من النبي (صلى الله عليه وسلم) شخصيًّا أنه عانى وأُذي من المشركين، مما يدل على أن الأذى بلغ به إلى مرحلة أنه لم يستطع كتمه فاشتكى على أثره. وها هو حزين مما أصابه ومع ذلك لم يزغ ولم يستسلم عن تبليغ الإسلام، فمن هذا الرجل الذي حريص عليَّ لهذا الحد وعانى كل هذا من أجلي؟ إن المرء عندما يخرج من بيته ليقضي مصالحه يلاقي أحيانًا من ينال منه بلسانه، ومن يظلمه، ومن يمكر به، ومن يريد استغلاله والخروج منه بمصلحة شخصية له، ومن يستهزأ به، وغير ذلك، لا يوجد أحد يخاف عليه أكثر من أبويه، ويرى ذلك بوضوح عندما يرجع البيت.

فقولوا لي... أين أجد من يخاف عليَّ ويريد سلامتي، ويرأف بي، ويسعى لمصلحتي وسعادتي، ويتحمل المتاعب لهذا الحد، ليس لنفسه، ولكن لمصلحتي أنا؟ هو هذا النبي (صلوات الله عليه وسلامه) الذي قدم إليَّ أكثر مما قدمه إلي والدَيَّ؛ أرشدني إلى الطريق المستقيم وكان سببًا في أن يزحزحني ربي من النار (بإذن الله) إذ وجَّهني إلى "لا إله إلا الله". فأين شكري وامتناني لهذا الرجل؟ بعد كل هذه المشقة والمعاناة، ماذا سيظن بي النبي (صلى الله عليه وسلم) وكيف سيكون شعوره تجاهي عندما ألقاه على الحوض فيُبَلِّغ بما فعلته من معاصٍ وإهمال لديني؟

والمصيبة الكبرى... أن الله يعلم كل ما فعلت ونويت، وكل ما أسررت وأعلنت، وكل صغيرة وكبيرة، ولي معاد محدد مع ربي ألقاه ليحاسبني على ذلك كله... يا ويلتي. اللهم سلِّم سلِّم. فأين أنا من الآية {وَاتَّقُواْ يَوْما تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمّ تُوَفّىَ كُلّ نَفْسٍ مّا

[1] تاريخ الإسلام للذهبي 235/1؛ حكم الحديث: غريب مُرسل.

كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [البقرة 281]. فكيف أتقي الله حق تقاته وأُعِد لذلك اليوم، أبالمعاصي؟!

- في مرحلة من مراحل نشر الرسالة والدعوة إلى الإسلام خارج مكة أيضًا، ذهب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى الطائف، فأقام بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدَع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا: اخرج من بلادنا؛ وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سِمَاطَين (أي صفين) وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختصب نعلاه بالدماء. وكان زيد بن حارثة يقيه بنفسه حتى أصابه شِجَاج في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة بن ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى حُبلَة من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار.

فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه همًّا وحزنًا مما لقي من الشدة، وأسفًا على أنه لم يؤمن به أحد، قال (الحديث ضعَّفه الألباني): اللَّهمَّ إليكَ أشكو ضَعفَ قوَّتي، وقلَّةَ حيلَتي، وَهَواني علَى النَّاسِ، أنتَ أرحمُ الرَّاحمينَ، أنتَ ربُّ المستضعفينَ وأنتَ ربّي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيدٍ يتجَهَّمُني، أَمْ إلى عدُوٍّ ملَّكتَهُ أمري؟ إن لم يَكُن بِكَ غضبٌ عليَّ فلا أبالي، غيرَ أنَّ عافيتَكَ هيَ أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهِكَ الَّذي أشرَقت لهُ الظُّلماتُ، وصلُحَ علَيهِ أمرُ الدُّنيا والآخرةِ، أن يحلَّ عليَّ غضبُكَ، أو أن ينزلَ بي سخطُكَ، لَكَ العُتبى حتَّى تَرضى، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلا بِكَ.

وتحرَّكت عاطفةُ القرابةِ في قلوبِ ابني ربيعةَ فدعَوا غلامًا لهُما نصرانيًّا يدعى "عدَّاسًا" وقال لهُ: خُذ قِطفًا منَ العنَبِ واذهب بهِ إلى الرَّجلِ. فلمَّا وضعَهُ بينَ يدَي رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ مدَّ يدَهُ إليه قائلًا "باسمِ اللَّهِ"، ثمَّ أكلَ. فقال عدَّاسُ: إنَّ هذا الكلامَ ما يقولُهُ أَهْلُ هذِهِ البلدةِ! قال لهُ النَّبيُّ "مِن أيِّ البلادِ أنتَ؟" قال: أَنا نصرانيٌّ من نينَوى، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ "أمنَ قريةِ الرَّجلِ الصَّالحِ يونسَ بنِ متَّى؟" قال لهُ: وما يُدريكَ ما يونسُ؟ قال رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ "ذلكَ أخي، كانَ نبيًّا وأَنا نبيٌّ"، فأَكَبَّ عدَّاسٌ علَى يدَي رسولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسلَّمَ ورجليهِ يقبّلُهُما. فقال ابنا ربيعةَ أحدُهُما للآخرِ: أمَّا غلامُكَ فقد أفسدَهُ عليكَ، فلمَّا جاءَ عدَّاسُ قال لهُ: ويحَكَ ما هذا؟ قال: ما في الأرضِ خيرٌ مِن هذا الرَّجلِ[1] (انتهى).

[1] فقه السيرة للألباني 126؛ قال عنه ضعيف؛ والقصة مأخوذة من ابن هشام 1/419-421.

في لفتة جانبية، يجب أن نلاحظ الصلة بين ما لقيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من أذًى وخيبة الظن في الطائف وبين إسلام الغلام عدَّاس، فهي بمنزلة مواساة من الله للرسول (صلى الله عليه وسلم) بعد دعائه لله، ولم يُرد الله أن يذهب الجُهد الذي بذله الرسول (صلى الله عليه وسلم) سُدى من رحلته للطائف دون أن يُسلم على الأقل فرد واحد، فإسلام فرد واحد كان يكفي الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأقرَّ عينه. فتلك رحمة ورأفة وحب الله لرسوله (صلى الله عليه وسلم)، وذلك نموذج من عونه ونُصرته له. أفلا نسلك ذلك المنهج مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) فننصره بتفعيل رسالته؟

رجوعًا إلى موضوع الكتاب، انظروا ماذا فعل الناس لنبينا صلى الله عليه وسلم. انظروا ماذا أوصلوه إليه، فقد جعلوه يبلغ مرحلة من الحزن والمعاناة ما أصبح واضحًا في تضرعه لله! حبيبنا يا رسول الله، كم عانيت وأُذيت؟ كم سعيت واجتهدت؟ كل هذا ولم يتنازل عن الدعوة ولم يكترث لما يصيبه ما دام أن الله ليس غاضبًا أو ساخطًا عليه. كان حاله يدعو للشفقة لدرجة أن ابني ربيعة اللذين كانا يكرهان الرسول (صلى الله عليه وسلم) أشفقا عليه وأهدياه العنب، فماذا ينبغي أن نشعر نحن وهو نبينا؟

- في غزوة أُحُد، كان المسلمون ينتصرون حتى نزل من الجبل الرماة الذين كانوا يحرسون ظهر المسلمين، فانكشف ظهر المسلمين وانقلبت المعركة لصالح المشركين. في هذه اللحظة أُحيط برسول الله (صلى الله عليه وسلم) وكان مكشوفًا للمشركين، وكما جاء في "الرحيق المختوم" أنها كانت أحرج ساعة في حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذ كاد أن يُقتل. ولم يتأخر المشركون في انتهاز تلك الفرصة، فقد ركزوا حملتهم على النبي (صلى الله عليه وسلم)، وطمعوا في القضاء عليه، رماه عتبة بن أبي وقاص بالحجارة فوقع لجنبه، وأصيبت رباعيته اليمنى السفلى، وجرحت شفته السفلى، وتقدم إليه عبد الله بن شهاب الزهري فَشَجَّه في جبهته.

وجاء فارس عنيد هو عبد الله بن قَمِئَة، فضرب على عاتقه بالسيف ضربة عنيفة شكا (صلى الله عليه وسلم) لأجلها أكثر من شهر، إلا أنه لم يتمكن من هتك الدرعين، ثم ضرب على وجنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ضربة أخرى عنيفة كالأولى حتى دخلت حلقتان من حلق المِغفَر في وجنَتِه. ويروى بأثرٍ ضعيف أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ رماه عبدُ اللهِ بنُ قَمِئَةَ بحجَرٍ يومَ أُحُدٍ فشجَّه في وجهه وكسَر رَباعِيَتَه وقال: خُذْها وأنا ابنُ قَمِئَةَ، فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يمسحُ الدَّمَ عن وجهِه "ما لك أقْمأكَ اللهُ!" فسلَّط اللهُ عليه تَيْسَ جَبَلٍ فلم يزَلْ يَنطَحُه حتى قطَعه قِطعةً قطعةً[1].

[1] مجمع الزوائد للهيثمي 120/6؛ قال عنه ضعيف.

وفي صحيح مسلم أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ يَوْمَ أُحُدٍ وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ وَيَقُولُ "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ؟"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ}[1]. وقال يومئذ "اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، وَاشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ دَمَّى وَجْهَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[2]، ثم مكث ساعة ثم قال "رَبِّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ"[3] (انتهى).

هذا هو الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي أرسله الله ليُرشد الناس إلى الرجوع إلى الله، يُعادي ويُحَارَب المشركين المُقاتلين لكلمة الله دون اعتبار أنهم قومه وأنسابه، فيحارِبهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في سبيل الله ويصاب كما ذُكر. أنحن أحق منه بالراحة والسلامة؟ بل هو الذي يستحق الجلوس وأن يُحمَى حتى لا يخاطر بحياته فيموت وتنتهي الدعوة، ويترك المحاربة لمن حوله فداء له، ولكنه يرفض ذلك ولم يكن سلبيًّا، بل كان في مقدمة الصفوف في الحروب ليكون قدوة لمن تبع منهجه، وليُنَفِّذ ما جاء به كي يكون صدوقًا بالعمل.

فما لنا اليوم ثقلت عزيمتنا لحماية ديننا من الأعداء بتطبيقه؟ الإسلام ليس زينة من زين الدنيا، فإنه ليس مصحفًا يُخزَّن في السيارة مهجورًا، ولا فانوسًا يُعلق في رمضان، ولا كلمة تملأ خانة في البطاقة الشخصية، ولا آية من كتاب الله أو حديثٍ عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يُعَلَّق في البيت أو مكان العمل دون تصديقه بالعمل؛ إنما الإسلام منهج يُطَبَّق. ولو أن الإسلام عاملناه معاملة الزينة فتزينا به دون تطبيقه، أصبح قشرة يطمع فيها من يَدُقُ عليها من أعداء الله. وهذا كثيرًا ما نراه اليوم، كلام دون فعل، وعلم دون عمل... فأقول لنفسي كما قال الله تعالى لي {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (2) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ} [الصف 2-3]، فهذا شيء انتقاصي ومحزن لمن كان مسلمًا.

أصبح الوهن ينمو مع قلوبنا فتشابك به كما تتشابك الخلايا السرطانية مع الخلايا السليمة. قال تعالى {يَأَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدّنْيَا مِنَ الاَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدّنْيَا فِي الاَخِرَةِ إِلاّ قَلِيلٌ} [التوبة 38]. وكما جاء عن رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال "يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ

[1] صحيح مسلم 3346.

[2] صحيح البخاري 3768.

[3] صحيح البخاري 6417.

تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا"، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ "بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزَعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ الْوَهْنَ" فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ "حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ"[1]. ذلك لمن جعل الإسلام زينة يُلَقِّب به نفسه ولا يعمل به.

فما لنا اثاقلنا عن الجهاد وعن إعلاء كلمة الله والدفاع عن الإسلام وأنفسنا وإخواننا؟ هذا وبالرغم ما قاله سيف الله المسلول خالد بن الوليد (رضي الله عنه) بعد أن خاض مع المسلمين حروبًا كثيرة فلم يخسر حربًا قط بإرادة الله، إلا أن شاء الله أن يتوفاه في فراشه وليس في أرض المعارك. قال سيدنا خالد (رضي الله عنه) متحسرًا باكيًا على موته على فراشه، وأنه لن يلقى الله شهيدًا على أرض القتال بالرغم من كثرة الحروب التي خاضها: لَقِيتُ كَذَا وَكَذَا زَحْفًا، وَمَا فِي جَسَدِي شِبْرٌ إِلا وَفِيهِ ضَرْبَةٌ بِسَيْفٍ أَوْ رَمْيَةٌ بِسَهْمٍ، وَهَأَنَا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي حَتْفَ أَنْفِي كَمَا يَمُوتُ الْعِيرُ، فَلا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ[2]. فقد انتقد من خاف مواجهة أعداء الإسلام بعد كل ما رآه ومر به وفاتته فرصة الشهادة في المعركة، في حين شاهد أناسًا عمدًا يتهربون من هذا الشرف جُبنًا ويموتون على فُرُشهم.

بل قد بلغ الهوان والمهانة في بعض الدول ذات الأغلبية الإسلامية إلى حد أنها تقف في جانب أعداء المسلمين ضد المسلمين في القدس، فتقطع المعونة عن المسلمين هناك الذين يُجاهدون ضد المغتصبين من اليهود والنصارى، في سعيهم أن تضعف المقاومة، وربما يمُدون العدو بمعلومات عن المجاهدين غدرًا ليقضوا عليهم، ذلك ومع انتقاد المقاومة الإسلامية وتكبيلهم! وذلك أنهم يخشون قوة غير المسلمين ويريدون التملق لهم والامتثال بهم والسير في دربهم، ويسعدون باعتراف المشركين بهم! وذلك لأن هؤلاء الساسة يرون أن العزة مع غير المسلمين بما أنهم متقدمون في مجالات كثيرة من معايير الدنيا، منها الاقتصاد والعلم وعدة الجيوش، فينظرون لهم نظرة الامتثال، ويرون أننا يجب أن نوافقهم، بل ونسير على خطاهم حتى ينهض مجتمعنا!

وبذلك فإنهم يطمعون في جوانب الدنيا فيُقلدون غير المسلمين تقليدًا أعمى دون فهمٍ أو تدبرٍ للأمر، ودون تنقية ما يتلقونه عما إذا كانت يتوافق مع الشريعة الإسلامية أم لا. وقد قال الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هؤلاء المُفتخرين بغير المسلمين والمُتَّبعين لهم النابذين لدينهم "لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا

[1] سنن أبي داود 3745.

[2] سير أعلام النبلاء لمحمد الذهبي 382/1.

جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ"، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ "فَمَنْ؟"[1] (يقصد التأكيد، أي من غيرهم).

ولكن، مع أن هؤلاء الغربيين متقدمون في مجالات الحياة عنا فإنهم قد نبذوا دينهم، فكيف يكونون أعزاء وقد تخلوا عن نزاهتهم بالإعراض عن تمكين دين الله في حياتهم؟! هؤلاء تمامًا مثل تاجر المخدرات بالغ الثراء، فأنَّى ينظر إليه كرمزٍ يُمتثل به؟! والعجيب أن هذا ما يفعله الساسة الذين يدعون لفصل الدين عن الجانب السياسي من الحياة والاحتذاء بمنهج وأوامر حكَّام الدول غير الإسلامية.... أين هم من قول الله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوَاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ} [آل عمران 100]؟

لا حول ولا قوة إلا بالله، ففي صميم المشهد تستبصر مسلمين يريدون من اليهود والنصارى، بل والملحدين، أن يرضوا عنهم ويعترفوا بهم، ولن يرضوا عنا حتى نتورط في الهلاك بالكفر أو بعد أن نكون أداة لأغراضهم، وذلك ما نبأنا الله به. هؤلاء اعتزلوا فكرة أننا يجب أن نسعى إلى رضا الله في الأساس، ومن ثم نحن الذين ينبغي لنا أن نُقرر ونُقيِّمهم، من منزلة عزٍ بالله، أنرضى عن هؤلاء المشركين والكفرة أم لا!

ولو أن هؤلاء تَمَعَّنوا في آيات الله التي فيها الحكمة البالغة وخلاصة قراءة الوضع لأدركوا أنهم أصبحوا أذلاء للكفار؛ لأنهم ابتعدوا عن تعلُّم الشريعة –فقد أصبحت مواد التربية الإسلامية وحفظ القرآن من المواد التي لا قيمة لها للطالب إذ لا تُزيد أو تنقص من مجموع درجاته–، وتركوا تفعيل منهج الله. والمصيبة أن بعضهم يخشون نظرة الكفار لهم ولا يخشون نظرة المسلمين لهم، فيستقوُون على المسلمين الذين يقولون كلمة الحق فيعثون فيهم ذبحًا، ومع ذلك لا يجترئون أن يقولوا كلمةً تنتقد أو حتى تُخيِّب رغبة الكفار، لا سيما محاربتهم، فإنهم يتجبرون على المسلمين في حين أنهم يتذللون للكفار. فواقعيًّا، قد طلبوا رضا الكفار وأعرضوا عن إرضاء الله، فأذلهم الله بهؤلاء الكفار لأن العزة لله جميعًا يؤتيها لمن تمسك بمنهجه.

وأمثلة لتلك الآيات المنيرة المُوعية عن كل هذا: {وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ} [البقرة 120]؛ {وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ} [البقرة 217]؛ {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ

[1] صحيح البخاري 6775.

إِيمَانِكُمْ كُفَّارا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ} [البقرة 109]؛ {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتَّمُوهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا} [النساء 89].

أصبحنا لا ندافع عن إخوانا يُقَتَّلون، أو نساء يُعتدى عليهن، أو مساجد تُهدم وتنتهك، أو إسلامٌ يُسخَرُ منه، بل ومن بني جلدتنا من يشمت في أذيتهم بل وقتلهم الوحشي. هذا بعد أن كانت الأمة الإسلامية قد بلغت من العزة أن جيوش المسلمين تتحرك لرد حق امرأة نُصبت لها مكايدة لإهانتها فكُشفت عورتها عندما قامت من مجلسها؛ وفي واقعة أخرى عندما لُطمت امرأة، أفلا أريد عزةً لأُمَّتي مثل تلك ثانيةً؟ يا حسرتاه على حال أمة رسولنا (صلى الله عليه وسلم)، فكيف لو رأى حال المسلمين الذي نحن عليه الآن؟ هذا كله والله ما هو إلا من أنفسنا من كثرة المعاصي، كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إِنَّ هَذَا الأَمْرَ لا يَزَالُ فِيكُمْ وَأَنْتُمْ وُلاتُهُ حَتَّى تُحْدِثُوا أَعْمَالا، فَإِذَا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَ خَلْقِهِ فَالْتَحَوْكُمْ كَمَا يُلْتَحَى الْقَضِيبُ"[1] (فَالْتَحَوْكُمْ هي كناية عن شدة التعذيب، واللحاء هي قشرة ساق الشجرة؛ يُلْتَحَى الْقَضِيبُ أي يؤخذ القشرة من ساق أو عود الشجرة).

الدين قطعة واحدة غير متجزئة، فإنه لا يجوز قبول بعض أحكام الإسلام دون بعض {أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} [البقرة 85]. ولا يجوز للمرء أن يأخذ من الإسلام ما يتناسب مع هواه ويترك الأحكام التي لا يقتنع بها، لأنه إذا فعل ذلك فليس هو بمسلمٍ فعلا إذ إن المسلم يُسلِّم نفسه لأحكام الإسلام ويأخذ بما أمر به الله {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً} [البقرة 208، جزء من الآية].

وفي أثر ضعيف عن واقعة للرسول (صلى الله عليه وسلم) حين كان يدعو قومًا للإسلام، فوافقوا على كل الشروط التي عرضها (صلى الله عليه وسلم) حتى نصرته على العرب، ولكن دون نُصرته على العجم، وذلك أن كسرى قد أخذ منهم عهدٌ ألا يُحدِثوا حدَثًا ولا يُؤوا مُحدِثًا. فأعلموه (صلى الله عليه وسلم) بذلك وقالوا: فان أردت أن ننصرَك ونمنعَك مما يلي العربَ فعلنا. ومع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يرغب بشدة أن يدخل الناس في الإسلام، وكان في أمس الحاجة إلى من ينصره، ولو على فقط بعض الفئات، فإنه صارحهم بكلمة الحق قائلًا "ما أسأتمُ الردَّ إذ أفصحتم بالصدقِ، إنَّهُ لا

[1] مسند أحمد 21323، ضعفه الأرناؤوط.

يقومُ بدِينِ اللهِ إلا من حاطَه من جميعِ جوانبِه"[1]. وفي آخر القصة أنهم قبلوا ذلك الشرط أيضا، والحمد لله دخلوا الإسلام وناصروا الرسول (صلى الله عليه وسلم).

وكذلك المعصية، فإنها لا تنعزل وحدها عن باقي الأعمال، ولكنها تؤثر على كل شيء، على عزيمة الجهاد والإقبال على الصلاة والصبر في الصوم والمحافظة على الأخلاق وصفاء القلب (يصبح قاسيًا وظالمًا) وغير ذلك. وكما جاء في صحيح مسلم: قَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ "تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إلا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"[2] (أَسْوَدُ مُرْبَادًّا هو شِدَّةُ الْبَيَاضِ فِي سَوَادٍ؛ الْكُوزُ مُجَخِّيًا أي مَنْكُوسًا، وهو الكوز المقلوب، فيقع كل ما في داخله من ماء ولا يدخل فيه الماء بعد ذلك، كناية على أن الماء هو الخير).

فالعاصي يُضعف همته لطاعة الله، ويضع الحواجز بينه وبين ربه، فيُبعد نفسه عن الله، ويصبح مائلًا إلى هواه فيتَّبعه لمعصية أُخرى. فالمعصية قد تبدأ سلسلة متشابكة من المعاصي لا تنقطع إلا بالعمل الصالح، والعكس صحيح، فإن العمل الصالح يؤدي إلى عملٍ صالحٍ آخر بتوفيق من الله ولا ينقطع إلا بمعصية. فياليت الناس يرون الأمور كما يراها المُتقون، أن احتلال فلسطين وتفشي الأمراض الحديثة وجور السلاطين وسب المشركين للإسلام وتعديهم على الرسول الشريف (صلى الله عليه وسلم)، وغير ذلك ما هو إلا الرجل الهاجر للمسجد والقرآن ومسؤولية رعيته، العامل الذي يغش أو يسرق أو يأخذ الرشوة، الرجل الذي يكتسب مالًا بالربا، المرأة المُتخلية عن حجابها، الشاب الذي يجلس على المقاهي والناس يُصلون في المسجد المجاور، الطفل الذي يدرس كل العلوم الكونية دون دراسة عقيدة وفقه (أحكام) الإسلام، الرجل الذي يتَّبع شهواته وعلى الوجه الآخر لا يفعل ما أمره الله به، وما شابه ذلك.

وكما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ، خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرْ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمْ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير 139/3، وقال عنه: غريب جدًّا وقد ورد من طرق أخرى؛ وذكر الألباني الحديث وقال عنه "ضعيف" في كتاب: السلسلة الضعيفة 6457؛ وذكره البيهقي في أدلة النبوة 422/2 و427/2 وقال عنه: إسناده مجهول/متروك.

[2] صحيح مسلم 207.

أَسْلافِهِمْ الَّذِينَ مَضَوْا، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنْ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ"[1] (بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ أي يقتتلون فيما بينهم). إني أسألكم بالله، وأرضى بشهادتكم، كم من هذه العقوبات الخمس نراها في زمننا هذا؟

ورجوعًا إلى واقعة غزوة أُحُد، بعد كل هذا الأذى الذي أصابه (صلى الله عليه وسلم) في الحرب، بعدما مكث ساعةً وهدأ من غضبه، استغفر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لقومه الذين حاربوه وأذوه وأرادوا قتله! أي بشر هذا؟ أي رحمة ورأفة وتسامح وتركيز على هدفه هذا؟! إنه نبيُنا الذي قال تعالى عنه {وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاّ رَحْمَةً لّلْعَالَمِينَ} [الأنبياء 107]، ولنفتخر بذلك. هذا هو حرص رسول الله (صلى الله عليه وسلم) على أمته وعلى غير أمته حتى بعد ما ناله ممن كرهوه، سبحان الله، إني حقًّا لا أريد أن أخذل نبيي (صلى الله عليه وسلم) يوم القيامة. أستغفر الله لي ولكم.

صُوَر من منهجه تبين لنا نظرته للحياة. إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لم يكن يقود الصحابة بأن يأمرهم بالعمل في حين يرتاح هو كما هو حال كثيرٍ من السلاطين مع تقدم الزمن، وحتى ممن يتولون سلطة صغيرة، إنما كان (صلى الله عليه وسلم) يقود الصحابة بالمثال. يروي سيدنا سَهْل بن سعد (رضي الله عنه): كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَنْدَقِ وَهُمْ يَحْفِرُونَ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ عَلَى أَكْتَادِنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَهْ، فَاغْفِرْ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ"[2] (أَكْتَادِنَا هو ما بين الكاهل إلى الظهر). فكان هو (صلى الله عليه وسلم) يحفر معهم، هذا وقد تجاوز عمره الأربعين عامًا.

ومن صور مثل تلك أردت إبراز نقطتين، الأولى أنه (صلى الله عليه وسلم) كان زاهدًا عن الدنيا أقصى الزهد، فترك الترفه فيها وقَبِل المشقة، والثانية هي أنه لم يرضَ أن تكون تعاليمه وتوجيهاته لأتباعه من المسلمين أن تكون فقط إرشادات شفهية، بل إنه ألزم نفسه بأن يكون لهم قدوة عملية يرونها وإن كان في ذلك مشقةً زائدة عليه. وحرصه أن يكون لنا قدوة نحتذي بها هو من تمام الإخلاص في مُهمته التبليغية وصدقه في الرسالة التي يحملها، فمن الصدق أن يُصدِّق المرء ما يقوله بالفعل، فحقًّا إنه إنسانٌ كاملٌ لا يُوجد عليه زلة تُمسَك كحُجة عليه.

---

[1] سنن ابن ماجه 4009.

[2] صحيح البخاري 3789.

على سبيل المثال، بالرغم من أنه كان ناجحًا في التجارة وأنه كان تحت تصرفه أملاك كثيرة من غنائم الحروب، فإن ما يبقيه لنفسه كان قُتاتًا، لأنه كان يؤثر الفقراء والمساكين على نفسه، ويُنفق منها في سبيل الله وتأليف قلوب غير المسلمين للإسلام. فحاله كما كانت تروي لنا السيدة عائشة: لَقَدْ مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَا شَبِعَ مِنْ خُبْزٍ وَزَيْتٍ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ[1]. بل وأحيانًا كان يظل جائعًا طوال اليوم كما أشارت (رضي الله عنها): مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مُنْذُ قَدِمَ الْمَدِينَةَ، مِنْ طَعَامِ بُرٍّ ثَلَاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ[2] (بُرّ هو القمح). وفي نهاية حياته، قال لنا عمرو بن الحارث (رضي الله عنه): مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ مَوْتِهِ دِرْهَمًا وَلَا دِينَارًا وَلَا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَلَا شَيْئًا إِلَّا بَغْلَتَهُ الْبَيْضَاءَ، وَسِلَاحَهُ، وَأَرْضًا جَعَلَهَا صَدَقَةً[3].

وجاء عن سيدنا عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً، فَقَالَ "مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وتَرَكَهَا"[4]. ومن هذه الواقعة يتبين لنا أن الدنيا في نفسها لا تساوي عنده شيئًا نهائيًّا إذ إنه يراها على حقيقتها. أفلا نكون مثله؟

فأي قدوة نقتديها أفضل من رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأي تواضع أمثل من تواضع رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وأي راحة نبغاها في هذه الدنيا ونحن أتباع لمن لم يعمد للراحة، ولو كان في الأمة من يستحق أن تُرفع عنه المشقة لكان حامل رسالة هذه الأمة هو الأولى بذلك، إذ يكفي على العبد مهمةً أن يكون ناقل الرسالة من الله إلى الأمة بأسرها. أما أنا، فلا أعمد فقط إلى الراحة، بل أعمد إلى معصية الله أيضًا، فما مصدر هذا التفاوت؟!

وختامًا، فلن أستطيع أن أُحصر ما قدَّمه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) للأمة الإسلامية كاملًا في عدة صفحات، فلمن يرغب في أن يستوعب أكثر فعليه بكتب السيرة النبوية.

نماذج من خُلُقه الذي جعل من يُقابله أن ينبهر.

كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) خُلقه كما قال تعالى {وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ} [القلم 4]، فقالت السيدة عائشة (رضي الله عنها) إنه (صلى الله عليه وسلم) كان خُلُقه القرآن، وفي خلال هذا الكتاب تم عرض نماذج مختلفة تُبين لنا درجة خُلُقه الرفيع، حتى كان يتعجب الناس من ذلك عندما

---

[1] صحيح مسلم 5283.

[2] صحيح البخاري 5973.

[3] صحيح البخاري 2534.

[4] سنن الترمذي 2299.

يُلاقونه، فيرغبون في دخول الإسلام. فكان على سبيل المثال ينتظر من يناظره حتى يتم كلامه وإن كان فيه من الإساءة، فقد ترك أحد المشركين يُفرغ كل ما يريد قوله وهو يُعرض عليه (صلى الله عليه وسلم) المال والسلطة ليرجع عن الدعوة إلى الإسلام، فلم يتكلم النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى تأكد أن المشرك قد قال كل ما يرغب في قوله. ومنها أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يعمل ويُقاتل مع المسلمين مثلهم، ولم يُعلِ من شأنه في الأعمال فيفصل نفسه عنهم على أساس أنه حامل الرسالة وقائد المجتمع، فلم يؤثر نفسه على أحد من الناس قط.

ومنها أنه (صلى الله عليه وسلم) كان يُخالط الناس بالإحسان، كما حدث بعد دعوته لأهل الطائف الذين لم يُجيبوه إلى الإسلام فقابل وهو عائد فتى من قوم سيدنا يوسف (عليه السلام)، فأثنى على سيدنا يوسف فأسلم الغلام لما رآه من علم وخُلق الرسول (صلى الله عليه وسلم). ومنها أنه لم يدعُ على قوم دوس عندما أعرضوا عن الإيمان، بل دعى لهم فأسلموا؛ ولم يكن يدعو على عامة قوم بالهلاك عسى أن يخرج منهم ولو واحد يقول "لا إله إلا الله"، فكان يؤكد لنا أنه بُعث رحمةً ولم يُبعث لعَّانًا.

ومنها أنه كان يعفو عن بعض أعدائه بعد أن يُمكِّنه الله عليهم وينتصر عليهم، فيُفاجئهم ذلك السلوك حتى إن الحق يتدفق إلى نفوسهم ويُقرون به فيُسلمون، مثل ما حدث مع عكرمة بن أبي جهل (رضي الله عنه) بعد فتح مكة. والنتيجة هي أن كثيرًا ما كان يُلاقيه أعداؤه وبعد أن يتعاملوا معه ويكتشفوا حقيقة شخصيته، وأنه ليس مثل الملوك لأنه لا يسعى وراء السلطة والجاه والأملاك، وليس عنده من الكبر أو الغرور أو الظُلم، كانوا يُحبونه ويرتاحون له ويثقون فيه لدرجة أرواحهم.

ومن ضمن تلك الصفات التي جذبت الناس إلى الإيمان به، وأن من آمن به ازداد له حبًّا، هو تواضعه (صلى الله عليه وسلم). لم يمنعه أنه أشرف الخلق عند الله، وأن عليه تكليف وعبء تبليغ رسالة الله إلى الناس وسيُسأل عن هذا، وأنه بلغ أن اتباعه زادوا في العدد والتعظيم إلى درجة لا يبلغها الملوك حتى، من أن يضع جناحه للناس ويتعامل معهم ببساطة. ونسرد بعض الروايات التي تذهلنا من مدى تواضعه. قال سيدنا أنس (رضي الله عنه): إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ[1]. ويروي أيضا: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَيْهِ بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ غَلِيظُ الْحَاشِيَةِ، فَأَدْرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ فَجَذَبَهُ جَذْبَةً شَدِيدَةً، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَى صَفْحَةِ عَاتِقِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَثَّرَتْ بِهِ حَاشِيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جَذْبَتِهِ، ثُمَّ قَالَ: مُرْ لِي مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي عِنْدَكَ؛ فَالْتَفَتَ [الرسول صلى الله عليه وسلم] إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ[2].

---

[1] صحيح البخاري 5610.

[2] صحيح البخاري 2916.

وروى لنا سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص (رضي الله عنه): فَدَخَلَ عَلَيَّ [أي الرسول صلى الله عليه وسلم] فَأَلْقَيْتُ لَهُ وِسَادَةً مِنْ أَدَمٍ حَشْوُهَا لِيفٌ [أي كي يجلس أو يسند عليها]، فَجَلَسَ عَلَى الْأَرْضِ وَصَارَتْ الْوِسَادَةُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ[1] (أَدَم هو الجلد المدبوغ). وعن عقبة بن عمرو (رضي الله عنه) قال: أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ، فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ [رهبة وهيبة من الرسول صلى الله عليه وسلم]، فَقَالَ لَهُ "هَوِّنْ عَلَيْكَ، فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ، إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ"[2] (القديد هو اللحم المُمَلَّح المُجَفَّف بالشمس). وذات مرة جاءَه أُناسٌ وبالغوا في مدحه قائلين: يا رسولَ اللَّهِ، يا خَيرَنا وابنَ خَيرِنا، وسيّدَنا وابنَ سيّدِنا؛ فقالَ "يا أيُّها النَّاسُ قولوا بقَولِكُم ولا يستَهْوِينَّكمُ الشَّيطانُ، أنا محمَّدٌ عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ، ما أُحبُّ أن ترفَعوني فَوقَ مَنزِلَتي الَّتي أنزلَني اللَّهُ عزَّ وجلَّ"[3] (قولوا بقَولِكُم أي الْزَمُوا قولَكم الَّذي اعْتدْتُم قولَه ومَعرفتَه: أنه عبد الله ورسوله).

عامةً، في هذا الفصل من الكتاب أردت إعطاء تلخيص شامل للوضع عندما كان الناس يُقابلونه (صلى الله عليه وسلم) ويتعاملون معه فيرون خُلُقه، مع سرد أحد الأمثالة البارزة من خُلُقه لما في ذلك من تبعات مثمرة لا يتوقعها أحد. فنتيجة لهذا الخُلُق أسلم قوم بأكملهم، وكان هذا الخُلُق هو سخاءه وتوكله على الله العملي (وليس فقط الشفهي، فليست وصية خاوية لمن حوله ولا يتبعها صلى الله عليه وسم بالبيان والاحتذاء). فقد بلغ من كرمه أن جاءه رجل يطلب منه صدقه، فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ، فَأَتَى (الرجل) قَوْمَهُ فَقَالَ: أَيْ قَوْمِ أَسْلِمُوا، فَوَاللَّهِ إِنَّ مُحَمَّدًا لَيُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخَافُ الْفَاقَةَ[4] (الفاقة أي الفقر).

وفي واقعة أخرى، أَعطى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من غنائم غزوة حُنين إلى صفوان بن أُمَيَّة –وهو كان من المشركين حين فُتحت مكة– مائة من النَّعَمِ، ثم مائة، ثم مائة. هذا حتى قال صفوان: وَاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا أَعْطَانِي وَإِنَّهُ لَأَبْغَضُ النَّاسِ إِلَيَّ، فَمَا بَرِحَ يُعْطِينِي حَتَّى إِنَّهُ لَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ[5].

وأعطانا سيدنا أنس (رضي الله عنه) على إثر ذلك مبدأ عامًّا عما كان ينتج عندما يُلاقي أحدٌ الرسول (صلى الله عليه وسلم) قائلًا: وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَجِيءُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يُرِيدُ إِلا الدُّنْيَا، فَمَا يُمْسِي حَتَّى يَكُونَ دِينُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ، أَوْ أَعَزَّ عَلَيْهِ، مِنْ الدُّنْيَا بِمَا فِيهَا![6]

---

[1] صحيح البخاري 5805.

[2] سنن ابن ماجه 3033.

[3] غاية المرام للألباني 127.

[4] مسند أحمد 13518.

[5] صحيح مسلم 4277.

[6] مسند أحمد 13518.

والمبدأ الثاني الذي كان ظاهرًا عندما تعامل الكثير مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) جاء على لسان أحد المشركين الذين أسلموا فأصبح صحابيًّا (وهو ثُمامة بن أُثال). قال سيدنا ثُمامة (رضي الله عنه) بعدما أسلم: وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ، فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ؛ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ، فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ؛ وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ، فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلادِ إِلَيَّ.

قال ذلك لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد بَعَثَ خَيْلاً قِبَلَ نَجْدٍ [أي سرية من السرايا] فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ [مأسور] مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ ثُمَامَةُ بْنُ أُثَالٍ [وكان يُحارب المسلمين من قبل]، فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟" فَقَالَ: عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دَمٍ، وَإِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ. فَتُرِكَ حَتَّى كَانَ الْغَدُ ثُمَّ قَالَ لَهُ "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟" قَالَ: مَا قُلْتُ لَكَ، إِنْ تُنْعِمْ تُنْعِمْ عَلَى شَاكِرٍ. فَتَرَكَهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ فَقَالَ "مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟" فَقَالَ: عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ. فَقَالَ "أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ"، فَانْطَلَقَ إِلَى نَجْلٍ قَرِيبٍ مِنْ الْمَسْجِدِ فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ[1]، ثم أكمل بما سردناه آنفًا. وقد تكرر مثل هذا الكلام من أكثر من رجل ممن أسلموا، فكان الرجل يرجع من عند الرسول صلى الله عليه وسلم بوجه غير الذي ذهب به إليه.

فهاتان هما القاعدتان العامتان عندما كان يُقابل أحد الغرباء رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أن يترتب على ذلك أنه يُحب الرسول (صلى الله عليه وسلم) حبًّا جمًّا، وأن ينصرف ودينه أحب إليه من دنياه؛ لأن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كان يُحدِث في أنفسهم أثرًا طيبًا ويترك فيهم انطباعًا جيدًا في حين هو على سجيته، وحتى المتكبرون والمُعاندون كانوا يعترفون بتميّزه بينهم، ولكنهم لا يقبلون الإيمان. فما ظننا في خُلُقه حتى يُلاحظ هذا عامة الناس؟! فلنا الشرف أنه رسولنا وقائدنا (صلى الله عليه وسلم)، أفلا نتبع وصاياه ونلتزم بمنهجه إذًا؟!

تعرَّف على نهج الصحابة والتابعين، كيف كان حالهم

إن لنا في الصحابة (رضي الله عنهم) قدوة غالية، ولنا منهم حِكَمًا إذ إنهم شربوا من نهج الرسول (صلى الله عليه وسلم) مباشرة، فعاصروه ورأوه وتفاعلوا معه، وكان بمنزلة المُشرف عليهم في أفعالهم فيُصوّبهم مباشرة، فكانوا أفضل نماذج تشبهًا بالرسول (صلى الله عليه وسلم). فكلما امتثلنا بنهج الصحابة كنا أقرب لخُلُق المسلم الصحيح، وازداد إيماننا ومن ثَمَّ نبتعد أكثر عما نهى الله عنه.

[1] صحيح مسلم 4024.

إثارهم وتآخيهم ببعضهم. كان الصحابة (رضوان الله عليهم) مترابطين لدرجة بالغة من الإيثار ونصرة بعضهم، وذلك ما أمرهم الله به، فكان من محاور قوتهم وقدرتهم على العلو في الأرض، ولكن بلغوا درجات من الترابط لم تبلغه فئة بعدهم. ومثال على ذلك ما فعله أحد الصحابة عندما ضايف رجلًا أوصى به الرسول (صلى الله عليه وسلم).

عن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصَابَنِي الْجَهْدُ، فَأَرْسَلَ إِلَى نِسَائِهِ فَلَمْ يَجِدْ عِنْدَهُنَّ شَيْئًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "أَلا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ يَرْحَمُهُ اللَّهُ؟"، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ فَقَالَ لامْرَأَتِهِ: ضَيْفُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا تَدَّخِرِيهِ شَيْئًا [أي لا تمنعيه من أي طعام]، قَالَتْ: وَاللَّهِ مَا عِنْدِي إِلا قُوتُ الصِّبْيَةِ، قَالَ: فَإِذَا أَرَادَ الصِّبْيَةُ الْعَشَاءَ فَنَوِّمِيهِمْ وَتَعَالَيْ فَأَطْفِئِي السِّرَاجَ وَنَطْوِي بُطُونَنَا اللَّيْلَةَ [أي لا يأكلون شيئًا حتى يشبع الضيف، ولكنهم كانوا يُمثلون أنهم يأكلون تحت غطاء الظلام كي لا يُحرَج الضيف فلا يأكل براحته]، فَفَعَلَتْ. ثُمَّ غَدَا الرَّجُلُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ "لَقَدْ عَجِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (أَوْ ضَحِكَ) مِنْ –فُلانٍ وَفُلانَةَ–"، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ}[1].

وهكذا كان خلق الصحابة (رضوان الله عليهم)، فصفاتهم ارتقت حتى إن الله أُعجب بصنيعهم وأنزل فيهم قرآنًا. فأين أنا من هؤلاء؟

مدى إقرارهم بالحق وإنفاذه ولو على أنفسهم، وعدلهم نتيجةً لهذا. يكفينا ذكرًا أن كل من تولى الخلافة من الرعيل الأول من الصحابة كانوا يتهربون منها لأنهم أدركوا مدى عبء مسؤوليتها، ومن أدرك عبء تولِي مصالح الناس كان أحرص وأكفأ في الحفاظ على حقوقهم. فمثلًا، جاء أن عُمر بن الخطاب كان يَتَعَاهَدُ عَجُوزًا كَبِيرَةً عَمْيَاءَ فِي بَعْضِ حَوَاشِي الْمَدِينَةِ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَسْتَقِي لَهَا وَيَقُومُ بِأَمْرِهَا، فَكَانَ إِذَا جَاءَهَا وَجَدَ غَيْرَهُ قَدْ سَبَقَهُ إِلَيْهَا فَأَصْلَحَ مَا أَرَادَتْ، فَجَاءَهَا غَيْرَ مَرَّةٍ كَيْلا يُسْبَقُ إِلَيْهَا [مِن هذا الشخص الآخر]، فَرَصَدَهُ عُمَرُ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ الَّذِي يَأْتِيهَا. والعجيب أن أبا بكر (رضي الله عنه) كان آنذاك الخليفة، فَقَالَ عُمَرُ: أَنْتَ هُوَ لَعَمْرِي[2]. فهذا نموذج للوفاء بحقوق الناس ولو كان ذلك فيه مشقة على نفسه، فقد كان من الممكن أن يأمر سيدنا أبو بكر أحد مواليه أن يعتني بهذه المرأة، ولكنه تحمل ذلك الحمل بنفسه على نفسه حتى يُتمَّه حق الإتمام.

---

[1] صحيح البخاري 4510.

[2] تاريخ دمشق لابن عساكر 322/30.

وكيف لأحدٍ أن يستبعد ذلك عن أبي بكرٍ (رضي الله عنه)، فقد كان قبل توليه الخلافة يطيع الله ورسوله (صلى الله عليه وسلم) ولو على نفسه، فلا يرد الأمر الذي يقضيه الله ورسوله ومن ثمَّ كانت نفسه هينة في تلبية حوائج الذين يتولاهم في أثناء الخلافة. ففي واقعة جامعة في البيان عن استجابة سيدنا أبي بكر للحق، بل وفي التفضل أيضًا فوق الحقوق التي عليه، فقد جاء في تفسير القرطبي أن أبا بكر كان يُنفق على رجلٍ اسمه: مسطح بن أثاثة، وذلك أنه كان ابن بنت خالته، وكان من المهاجرين البدريين المساكين، فكان يُنفق عليه لمسكنته وقرابته. فلما وقعت حادثة الإفك وخاض فيها مسطح ما خاض (حادثت الإفك هي حين اتهم الناس السيدة عائشة رضي الله عنها بالبهتان ظلمًا وإفكًا)، فحلف أبو بكر ألا ينفق عليه، ولا ينفعه بنافعة أبدًا.

فجاء مسطح فاعتذر، وقال: إنما كنت أغشى مجالس حسان فأسمع ولا أقول، فقال له أبو بكر: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل؛ ومر على يمينه (أي مضى وتمسك على حلفه ألا يُنفق على مسطح). فنزل قول الله تعالى {وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النور 22] (وَلَا يَأْتَلِ أي لا يُقسم أصحاب الغنى منكم على أن يمنعوا الخير والعطاء عن أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله)، وحينئذ امتثل سيدنا أبو بكر (رضي الله عنه) لقول الله تعالى بالرغم ما شارك فيه مسطح عن ابنته عائشة (رضي الله عنها)، ولبَّى إرادة الله فعاود الإحسان بالنفقة.

وجاء أنه (رضي الله عنه) قال: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة؛ فلما نزل قول الله تعالى {أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ} قال أبو بكر: والله إني لأحب أن يغفر الله لي؛ فرجّع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال: لا أنزعها منه أبدًا[1]. فإلى هذا الحد كان سيدنا أبو بكر يُقدِّم أمر الله، فقد انصاع لنصيحة الله وداس على شرف نفسه، وذلك مع أن حميته على عِرض ابنته قد أُثير، وطُلِب منه أن يُنفق من ماله على من أساء إليه، بل وشرع في التكفير عن يمينه لأنه قد حلف ألا يُنفق على مسطح ثانيةً. فأين نجد مثل ذلك النموذج من تقديم الحق (بل والتفضل) على حساب نفس المرء؟

وكان عمر بن الخطاب حين كان الخليفة يقلق أن تتعثر دابة في أرض بعيدة لأنه الوالي في الأرض، فيحاسبه الله على أنه لم يُمَهِّد الطريق لها. فقد بلغ همّ وفائه لحق الخلافة أنه لا يراعي فقط حقوق الناس، بل حقوق الدواب أيضًا! وروى لنا سيدنا أنس بن مالك (رضي الله عنه): سمعت عمر بن الخطاب –وخرجت معه، حتى إذا دخل حائطًا فسمعته يقول، وبيني وبينه جدار، وهو في جوف حائط–: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين، بَخٍ بَخٍ، والله يا ابن الخطاب لتَتَّقِيَنَّ الله، أو لَيُعَذِّبنَّك[2]. فهو

---

[1] تفسير القرطبي 191/12.

[2] موطأ مالك 992/2.

يُخاطب نفسه زاجرًا لها لئلا يستعظم نفسه ويغتر أنه أمير المؤمنين فيتكبَّر على من يتولاهم، ويُذكِّر نفسه أنه ليس فوق عذاب الله إن عصى الله.

وكان في عام الرمادة (وهو عام ضاق على المسلمين مطعمهم ومشربهم) لا يأكل إلا الخبز والزيت حتى اسودَّ جلده ويقول: بئس الوالي أنا إن شبعت والناس جياع! وعن أنس (رضي الله عنه) قال: تقرقر بطن عمر عام الرمادة، فكان يأكل الزيت وكان قد حرَّم على نفسه السمن، فنقر عمر بطنه بأصبعه وقال: تقرقر، إنه ليس عندنا غيره حتى يحيا الناس[1].

فإنهم أبوا أن يعيشوا في نعيم وتعيش رعيتهم في الكرب، ففضَّلوا أن يُعايشوا رعيتهم في فترات كروبهم وأزماتهم، وذلك كي يشعروا بمعاناتهم ويكونوا متساوين معهم في الحال، وألا يُفتتنوا بالدنيا عن دينهم وينسوا واجباتهم.

ذلك كان حالهم، لكن حال كثير من السلاطين اليوم أنهم يباتون مرتاحين في رفاهية وأمان على حساب ما تجني رعيتهم لهم، فبدلًا من أن عمل الرعية يعود بالمنفعة عليهم، يُصرف إلى ذوي المناصب كي يعيشوا في رغد وطرف، فسبحان الله مُغيِّر الأحوال بعد أن غيَّرنا نحن حالنا مع الله. وكان سيدنا علي (رضي الله عنه) يتجنب أن يأكل حتى يشبع وهو أمير المؤمنين، وكان يقول: أَبِيتُ مِبْطَانًا وَحَوْلِي بُطُونٌ غَرْثَى؟![2] (مبطانًا أي كثير الأكل عظيم البطن؛ غرثى أي جوعى). فهكذا كان إخلاصهم لمسؤولية الخلافة.

وذلك كله التزامًا منهم بنهج رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وتحذيره إياهم من التقصير بعد تولي مسؤولية حقوق الناس، فقد قال (صلى الله عليه وسلم) "مَا مِنْ رَجُلٍ يَلِي أَمْرَ عَشَرَةٍ فَمَا فَوْقَ ذَلِكَ إِلا أَتَى اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ مَغْلُولا يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَدُهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَكَّهُ بِرُّهُ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ. أَوَّلُهَا مَلامَةٌ، وَأَوْسَطُهَا نَدَامَةٌ، وَآخِرُهَا خِزْيٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[3] (مَغْلُولا أي مربوطا؛ فَكَّهُ بِرُّهُ أي يُحرره وفاءه بتلك المسؤولية؛ أَوْ أَوْبَقَهُ إِثْمُهُ أي يتفاقم حاله إذا كان قد ضيَّعها؛ أَوَّلُهَا مَلامَةٌ إلى آخر الحديث أي عن ولاية أمور الناس).

استيعابهم أن المنفعة تكمن في الالتزام بمنهج الله، ووعيهم بحقيقة ما يدور حولهم، وذلك مقرون بثباتهم العملي على الحق. هناك محادثة طويلة ولكن شيِّقة وممتلئة بالفوائد، سعدت أن دلَّني الله عليها لأشملها في كتابي، قد دارت في زمن سابق بين أميرٍ للمؤمنين وبين أحد التابعين، والواقعة

---

[1] الزهد للإمام أحمد 150.

[2] لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لمحمد السفاريني الحنبلي 335/2.

[3] مسند أحمد 21268.

ممتلئة بالمواعظ والعبر النفيسة. ففي أثر مقطوع يروى الضَّحَّاكُ بْنُ مُوسَى لنا قَائلًا: مَرَّ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ (وهو كان أمير المؤمنين آنذاك) بِالْمَدِينَةِ وَهُوَ يُرِيدُ مَكَّةَ فَأَقَامَ بِهَا أَيَّامًا، فَقَالَ: هَلْ بِالْمَدِينَةِ أَحَدٌ أَدْرَكَ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ (والمقصد أنه أراد أحد التابعين) فَقَالُوا لَهُ: أَبُو حَازِمٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا هَذَا الْجَفَاءُ؟ (أي غلظة في الطبع) قَالَ أَبُو حَازِمٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَيُّ جَفَاءٍ رَأَيْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَتَانِي وُجُوهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَلَمْ تَأْتِنِي، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُعِيذُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَقُولَ مَا لَمْ يَكُنْ، مَا عَرَفْتَنِي قَبْلَ هَذَا الْيَوْمِ وَلا أَنَا رَأَيْتُكَ؛ فَالْتَفَتَ سُلَيْمَانُ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ: أَصَابَ الشَّيْخُ وَأَخْطَأْتُ، قَالَ سُلَيْمَانُ: يَا أَبَا حَازِمٍ مَا لَنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ؟ قَالَ: لأَنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ الآخِرَةَ وَعَمَّرْتُمْ الدُّنْيَا فَكَرِهْتُمْ أَنْ تُنْقَلُوا مِنْ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ، قَالَ: أَصَبْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ، فَكَيْفَ الْقُدُومُ غَدًا عَلَى اللَّهِ؟ قَالَ: أَمَّا الْمُحْسِنُ فَكَالْغَائِبِ يَقْدُمُ عَلَى أَهْلِهِ، وَأَمَّا الْمُسِيءُ فَكَالآبِقِ (أي العبد الهارب من سيده) يَقْدُمُ عَلَى مَوْلاهُ، فَبَكَى سُلَيْمَانُ وَقَالَ: لَيْتَ شِعْرِي مَا لَنَا عِنْدَ اللَّهِ، قَالَ: اعْرِضْ عَمَلَكَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، قَالَ: وَأَيُّ مَكَانٍ أَجِدُهُ؟ قَالَ: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ}، قَالَ سُلَيْمَانُ: فَأَيْنَ رَحْمَةُ اللَّهِ يَا أَبَا حَازِمٍ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ: {رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ}، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: يَا أَبَا حَازِمٍ فَأَيُّ عِبَادِ اللَّهِ أَكْرَمُ؟ قَالَ: أُولُو الْمُرُوءَةِ وَالنُّهَى، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: فَأَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ: أَدَاءُ الْفَرَائِضِ مَعَ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ، قَالَ سُلَيْمَانُ: فَأَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ: دُعَاءُ الْمُحْسَنِ إِلَيْهِ لِلْمُحْسِنِ، قَالَ: فَأَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: لِلسَّائِلِ الْبَائِسِ وَجُهْدُ الْمُقِلِّ (أي الفقير الذي يتصدق مما معه) لَيْسَ فِيهَا مَنٌّ وَلا أَذًى، قَالَ: فَأَيُّ الْقَوْلِ أَعْدَلُ؟ قَالَ: قَوْلُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْيَسُ؟ قَالَ: رَجُلٌ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَدَلَّ النَّاسَ عَلَيْهَا، قَالَ: فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَحْمَقُ؟ قَالَ: رَجُلٌ انْحَطَّ فِي هَوَى أَخِيهِ وَهُوَ ظَالِمٌ فَبَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَصَبْتَ، فَمَا تَقُولُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَ تُعْفِينِي؟ قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: لا، وَلَكِنْ نَصِيحَةٌ تُلْقِيهَا إِلَيَّ، قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ آبَاءَكَ قَهَرُوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ وَأَخَذُوا هَذَا الْمُلْكَ عَنْوَةً (أي بالقوة والغصب) عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنْ الْمُسْلِمِينَ وَلا رِضَاهُمْ حَتَّى قَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً، فَقَدْ ارْتَحَلُوا عَنْهَا فَلَوْ أُشْعِرْتَ مَا قَالُوا وَمَا قِيلَ لَهُمْ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ! قَالَ أَبُو حَازِمٍ: كَذَبْتَ، إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِيثَاقَ الْعُلَمَاءِ لَيُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا يَكْتُمُونَهُ! قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: فَكَيْفَ لَنَا أَنْ نُصْلِحَ؟ قَالَ: تَدَعُونَ الصَّلَفَ (وهو المبالغة في نسبة الذكاء للنفس مع التكبر) وَتَمَسَّكُونَ بِالْمُرُوءَةِ وَتَقْسِمُونَ بِالسَّوِيَّةِ، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: كَيْفَ لَنَا بِالْمَأْخَذِ بِهِ؟ قَالَ أَبُو حَازِمٍ: تَأْخُذُهُ مِنْ حِلِّهِ وَتَضَعُهُ فِي أَهْلِهِ، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: هَلْ لَكَ يَا أَبَا حَازِمٍ أَنْ تَصْحَبَنَا فَتُصِيبَ مِنَّا وَنُصِيبَ مِنْكَ؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: وَلِمَ ذَاكَ؟ قَالَ: أَخْشَى أَنْ أَرْكَنَ إِلَيْكُمْ شَيْئًا قَلِيلا فَيُذِيقَنِي اللَّهُ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ! قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: ارْفَعْ إِلَيْنَا حَوَائِجَكَ، قَالَ: تُنْجِينِي مِنْ النَّارِ وَتُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ؟ قَالَ سُلَيْمَانُ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيَّ، قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَمَا لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ غَيْرُهَا، قَالَ: فَادْعُ لِي، قَالَ أَبُو حَازِمٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ سُلَيْمَانُ وَلِيَّكَ فَيَسِّرْهُ لِخَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَإِنْ كَانَ عَدُوَّكَ فَخُذْ بِنَاصِيَتِهِ إِلَى مَا تُحِبُّ وَتَرْضَى، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: قَطُّ! قَالَ أَبُو حَازِمٍ: قَدْ أَوْجَزْتُ وَأَكْثَرْتُ، إِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَإِنْ لَمْ

تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ فَمَا يَنْفَعُنِي أَنْ أَرْمِيَ عَنْ قَوْسٍ لَيْسَ لَهَا وَتَرٌ، قَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ: أَوْصِنِي، قَالَ: سَأُوصِيكَ وَأُوجِزُ: عَظِّمْ رَبَّكَ وَنَزِّهْهُ أَنْ يَرَاكَ حَيْثُ نَهَاكَ أَوْ يَفْقِدَكَ حَيْثُ أَمَرَكَ. فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ بَعَثَ إِلَيْهِ بِمِائَةِ دِينَارٍ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: أَنْ أَنْفِقْهَا وَلَكَ عِنْدِي مِثْلُهَا كَثِيرٌ، فَرَدَّهَا عَلَيْهِ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أُعِيذُكَ بِاللَّهِ أَنْ يَكُونَ سُؤَالُكَ إِيَّايَ هَزْلا أَوْ رَدِّي عَلَيْكَ بَذْلا، وَمَا أَرْضَاهَا لَكَ فَكَيْفَ أَرْضَاهَا لِنَفْسِي؟ وَكَتَبَ إِلَيْهِ: إِنَّ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ لَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهَا رِعَاءً يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ جَارِيَتَيْنِ تَذُودَانِ فَسَأَلَهُمَا فَقَالَتَا {لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَائِعًا خَائِفًا لا يَأْمَنُ فَسَأَلَ رَبَّهُ وَلَمْ يَسْأَلْ النَّاسَ، فَلَمْ يَفْطِنْ الرِّعَاءُ وَفَطِنَتْ الْجَارِيَتَانِ، فَلَمَّا رَجَعَتَا إِلَى أَبِيهِمَا أَخْبَرَتَاهُ بِالْقِصَّةِ وَبِقَوْلِهِ فَقَالَ أَبُوهُمَا وَهُوَ شُعَيْبٌ: هَذَا رَجُلٌ جَائِعٌ، فَقَالَ لإِحْدَاهُمَا: اذْهَبِي فَادْعِيهِ، فَلَمَّا أَتَتْهُ عَظَّمَتْهُ وَغَطَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ {إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا}، فَشَقَّ عَلَى مُوسَى حِينَ ذَكَرَتْ {أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا} وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتْبَعَهَا إِنَّهُ كَانَ بَيْنَ الْجِبَالِ جَائِعًا مُسْتَوْحِشًا، فَلَمَّا تَبِعَهَا هَبَّتْ الرِّيحُ فَجَعَلَتْ تَصْفِقُ (أي تضرب مع حدوث صوت) ثِيَابَهَا عَلَى ظَهْرِهَا فَتَصِفُ لَهُ عَجِيزَتَهَا (وهو مؤخر الجسد) وَكَانَتْ ذَاتَ عَجُزٍ، وَجَعَلَ مُوسَى يُعْرِضُ مَرَّةً وَيَغُضُّ أُخْرَى فَلَمَّا عِيلَ (أي نفذ) صَبْرُهُ نَادَاهَا: يَا أَمَةَ اللَّهِ كُونِي خَلْفِي وَأَرِينِي السَّمْتَ (أي الطريق) بِقَوْلِكِ ذَا، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى شُعَيْبٍ إِذَا هُوَ بِالْعَشَاءِ مُهَيَّا فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: اجْلِسْ يَا شَابُّ فَتَعَشَّ، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: أَعُوذُ بِاللَّهِ، فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: لِمَ، أَمَا أَنْتَ جَائِعٌ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنِّي أَخَافُ أَنْ يَكُونَ هَذَا عِوَضًا لِمَا سَقَيْتُ لَهُمَا، وَإِنَّا مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ لا نَبِيعُ شَيْئًا مِنْ دِينِنَا بِمِلْءِ الأَرْضِ ذَهَبًا، فَقَالَ لَهُ شُعَيْبٌ: لا يَا شَابُّ وَلَكِنَّهَا عَادَتِي وَعَادَةُ آبَائِي نُقْرِي (أي نُكرم) الضَّيْفَ وَنُطْعِمُ الطَّعَامَ، فَجَلَسَ مُوسَى فَأَكَلَ، [وأكمل كلامه أبو حازم] فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمِائَةُ دِينَارٍ عِوَضًا لِمَا حَدَّثْتُ فَالْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ فِي حَالِ الاضْطِرَارِ أَحَلُّ مِنْ هَذِهِ، وَإِنْ كَانَ لِحَقٍّ لِي فِي بَيْتِ الْمَالِ فَلِي فِيهَا نُظَرَاءُ (أي من يستحق مثلي) فَإِنْ سَاوَيْتَ بَيْنَنَا وَإِلا فَلَيْسَ لِي فِيهَا حَاجَةٌ[1].

إن في هذه المحادثة فوائد جَمَّاء ومواعظ لا تُقدَّر بثمن، وبيانًا عمليًّا للفرد الذي يمتثل بنهج ووصايا الرسول (صلى الله عليه وسلم). وبينما أنها تتناول عدة مواضيع في هذا الكتاب فإني أذكر الفوائذ مُجمعة بدلًا من إعادة كتابة المحادثة في كل موضعٍ يحتاج إلى لفتة من هذه المحادثة. ونبدأ بأولها وأبرزها هو أن الذي كان ينصح وعنده ذلك العلم الواسع والحكمة البالغة والبصيرة الثاقبة والتصديق لعلمه بالعمل هو أحد التابعين أبو حازم. والفائدة هو أنه كان شديد الحكمة والورع والتقوى مع أنه كان ممن أدركوا صحابة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يكن من الصحابة (رضي الله عنهم)، فما بالنا بحال الصحابة؟! فلا مفر من أن نسأل أنفسنا، أين نحن من مثله أو من تابعين التابعين أو حتى بمن بعدهم، بما أننا أعذرنا أنفسنا أننا لا نُقارب الصحابة (رضوان الله عليهم) الذين رأوا بأعينهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)؟!

[1] سنن الدارمي 645.

ثم ننتقل إلى بعض الحكم والمواعظ التي نستخرجها من الواقعة، أن أبا حازم لم يجتمع مع الناس لملاقاة الأمير لسببين، أولهما أنه لا يريد أن يؤثِّر ذلك في نفسه فيكون أكثر لينة مع الأمير، ويتسلل إلى نفسه التملق للأمير فلا يستطيع أن يقول له كلمة الحق لأنه يرجوه. ووعيه بهذا يتبين في نصيحته "قَوْلُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ"، فكان ورعًا في ذلك بقطع باب أن يرجو الأمير بأن يمنع نفسه من أن يستقبله عندما قدم المدينة. ثانيًا، أن المحافاة لملاقاة الأمير قد يُحدث في نفس الأمير إعجابًا بنفسه فيصبح أكثر غرورًا وتكبرًا ومن ثمَّ أكثر بُعدًا عن تطبيق منهج الله. ولكن بفطنته، قد صاغ أبو حازم للأمير الحقيقة بطريقة لينَّة لعدم الإساءة وإثارة الخصومة مع الأمير، فقال له ما مفاده إنهما لا يعرفان بعضهما.

وفي نصيحة جامعة تدل على بصيرته الثاقبة، قال إن عامة الناس يُعمِّرون دنياهم ويُخَرِّبون آخرتهم (قالها في ذلك الزمان، ولم يرَ ما يصدر منا في زمننا هذا)، ولذلك كرهوا الجهاد الذي فيه نصرة لدين الله لأنه مرتبطٌ بالمشقة بل والموت، فهل يرغب العاصي أن يترك جنته في الدنيا ويُعجِّل لقاء عقابه في الآخرة؟ فلخَّص لنا المشكلة وطرح علينا موضع معالجة ما نحن فيه. وفي تلك السيمة بالطبع ذُلٌ في الدنيا مع التضحية بالآخرة، أي خسارة في خسارة، ومن ثمَّ فإن من يسلك ذلك المنهج يفر من لقاء الله إذ فيه مواجهة صريحة مع أعماله، بخلاف من أحسن عمله في الدنيا فإنه يشتاق إلى لقاء الله لنيل المكافأة من الله على طاعته له، إضافة إلى الانتقال من دار الشقاء والتكليف، سجن المؤمن (أي الدنيا).

وترتبط النصيحة التالية بالحكمة التي سبقت عندما سأله الأمير، ما معناه، أن كيف للمرء أن يعلم ما له عند الله، فدَلَّه أن يُحاسب المرء نفسه ليُقيِّم أعماله عن طريق عرض أعماله على ما يحتويه كتاب الله، وبالطبع سُنة الرسول صلى الله عليه وسلم أيضًا، فإن وافقت كتاب الله فليأمل خيرًا، وإن خالف كتاب الله فإن عمله يحتاج إلى التصحيح. وهنا تأتي نقطة مهمة، أن من سجية المُسرفين أن يُسوِّف إصلاح عمله والتوبة مع الأمل الكاذب في الله، أي أنه يرجو من الله العفو بالرغم من عدم الأخذ بالأسباب المؤدية إلى العفو، بل مع ارتكاب ما يُغضب الله.

وذاك هو الشخص الذي أتبع نفسه هواها وتمنى على الله، فمثل ذلك الشخص دائم السؤال عن رحمة الله مع الاتِّكاء عليها، دون فعل العمل الصالح، ولا أقصد أن الأمير منهم فإني لا أعلمه، وقد يكون سؤاله عابرًا. ههنا رد أبو حازم ردًّا حاسمًا {رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ}، وذلك يعني أن رحمة الله لمن عمل حسنًا ويستبعدها لمن أساء في عمله.

وفي نصيحة أخرى جامعة تشمل موضوع هذا الكتاب كله قال عن أفضل الأعمال: أَدَاءُ الْفَرَائِضِ مَعَ اجْتِنَابِ الْمَحَارِمِ؛ فكتابي هذا بأكمله ينصح باجتناب المحارم، وهو نصف فقط مما ألمَّت به تلك النصيحة وحدها، فهكذا كانت حكمة وبصيرة أبي حازم. ثم أكمل وأجاب عن أي الكلام أعدل

قائلًا: قَوْلُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ، وفي تلك النصيحة حكمة بالغة شاملة تُبيّن أن الذي يجعل المرء يحيد عن قول الحق لمن أمامه، بل وربما مدحه بما ليس هو أهله، هو أحد تلك الحالتين، ونصيحته شملت كلا الطرفين من طيف المشاعر اللذين قد يجعلان المرء يتماشى مع رغبات شخصٍ آخر ولو في الباطل، فالحذر كل الحذر.

ونصيحة أخرى تدل على مدى بصيرته وخبرته مما رءاه في الحياة هو ذَمّ الرجل الذي ينحط في هوى أخيه الظالم، فيتورط ويخوض لذلك الشخص في الباطل إلى درجة ما قد لا يرغب هو شخصيًّا في فعله، وفي تلك الحالة يكون قد باع آخرته لدنيا يصيبها غيره، فأي ذل وحماقة تلك؟! وأهم مثال وأشدها جُرمًا وأسوأهًا مآلا هو العالم في شرع الله الذي يُفتي ويتأول كلام الله والرسول (صلى الله عليه وسلم) على المنهج الذي يواكب أفعال الحاكم وكي يُرضيه، إلى حد أنه يبيح له دماء المسلمين وتغيير منهج الإسلام!

فأي عملٍ أقبح من ذلك، فقد استعمل خير ما في الأرض –وهو نور الإسلام– لأشَرّ غاية، وهي المصلحة الشخصية على حساب أناس ظُلموا وقُهروا ومن وراء تزيين الباطل، مع العلم أنه قد لا يخرج بمكسب مادي أو منصبي بعد ذلك كله إلا أنه أراد أن يرضى عنه الحاكم، وقد لا ينال ذلك حتى. هذا كله وهو يحفظ قول الله تعالى {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أُوْلَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الأَشْهَادُ هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} [هود 18]. وعلى ذلك الأثر قال الأمير: أَصَبْتَ، إذ ‘نه أمير المؤمنين ويرى نماذج من هؤلاء الناس.

وفي انعطاف للأحداث وانقلاب للأوضاع، حيث إن أبا حازم كانت له اليد العلوى بإلقائه النصائح وبنقل ما عنده من العلم، وبذَمّ حماقة أن ينحط المرء في هوى أخيه وهو ظالم فيكون قد باع آخرته لدنيا يصيبها غيره، سأل الأمير سؤالًا قلب الأوضاع. هذا السؤال وضع أبا حازم تحت الاختبار وفرض عليه تفعيل ما قاله من نصائح بالعمل، فأصبح للأمير اليد العليا إذ يتحقق من أمانة ونزاهة أبي حازم، وذلك عندما سأله عن رأيه في الأمير قائلًا: فَمَا تَقُولُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ؟ وقد كان أبو حازم في موقف حرج إذ قال للتو واللحظة (وذلك وهو لا يتوقع ما تختزنه الأحداث له من تطورات): قَوْلُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ تَخَافُهُ أَوْ تَرْجُوهُ، إضافة إلى وصفه تصرفات الشخص الأحمق. هو يعلم أنه إذا جامل الأمير سيكون قد نقض مصداقيته إذ إنه يكون قد وقع فيما نهى عنه وتطابق عليه ما ذمَّ فعله. ولكن أدرك أيضًا أن قول الحق سيُغضب الأمير فقال: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَوَ تُعْفِينِي؟ أي عن الإجابة.

فلما أجابه الأمير أنه سيستقبل الإجابة من باب النصيحة وقبولًا لكلمة الحق وليس تخاصمًا، صارحه أبو حازم بالحقيقة المؤلمة التي اشتملت حتى على انتقاد أفعال آباء الأمير، ولكن من دون الإساءة. وهذا بيان عملي لتصديق أبي حازم عمله مع قوله في قول كلمة الحق للأمير صراحةً بتلك الطريقة، فيجب أن نقتدي بتلك الصفة، وهي صفة صعبة التطبيق لدرجة أن الرسول (صلى الله عليه

وسلم) أعلى من شأنها قائلًا (في جزء من الحديث) "أَلا لا يَمْنَعَنَّ رَجُلا مَهَابَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ، أَلا إِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ"[1].

ومن مفارقات الموقف أن يكون هناك جليس معهما يتملق للأمير مع أنه على الباطل، فبعد أن تفلت أبو حازم من تلك المنزلة، كان هناك من وقع فيها في نفس المجلس! قد قال ذاك الشخص: بِئْسَ مَا قُلْتَ يَا أَبَا حَازِمٍ! فكذَّبه أبو حازم على مقالته تلك، ولا شك أن أبا حازم هو الذي أصاب، واسترسل توضيحًا أنه يوفِّي ما أخذ الله عليه من ميثاق أن يُبيّن للناس الحق ولا يكتمه بعد أن علِمَه، فأي إخلاص ورسوخ هذا، وما أحوجنا إلى تلك الصفات في زمننا هذا كي ينصلح حال الأمة الإسلامية، فنحن نفتقر إلى مثل تلك الصفات.

ثم نصح أبو حازم الأمير بعدم التكبر والغرور، وبالعدل في تقسيم ما هو مسؤول عنه مثل المال والمناصب وغير ذلك، ورد الحقوق إلى أصحابها. وختامًا، فإن الجزء المتبقي يُبين لنا مدى فرار أبي حازم من الوقوع تحت تأثير بريق سلطة الأمير، ومن فتنة ما في أيدي الأمير، ومدى حيطته من أن يصبح ممتنًّا للأمير أو وَدِّيًّا معه، وليدرا أن يُعجَب أبو حازم بنفسه أنه مستشار الأمير فيغتر. وأي من تلك العوامل ستمنعه من يقول كلمة الحق للأمير في المستقبل، بل وقد يجاريه في الباطل إما بالسكوت أو بإصدار فتوى تبيح للأمير أفعال الظلم، أو في أحسن الافتراضات بالاستجابة إلى زجر الأمير له إذا نهاه عن معارضته.

فنرى كيف أنه من الأول امتنع عن السعي لملاقاة أمير المسلمين عندما قدم المدينة، وبعدها امتنع عن مرافقة الأمير عامةً بعد طلبه، ثم رفض أن يطلب من الأمير أمرًا من أمور الدنيا يقضيه الأمير له، ولكن صرفه بطريقة ذكية فيها عبرة للأمير، إذ طلب منه أمرًا من أمور الآخرة، بل وأغلظ عليه بعض الشيء –وربما ذاك دفاعًا عن نفسه لتكرار محاولة الأمير تليينه– بقوله: فَمَا لِي إِلَيْكَ حَاجَةٌ غَيْرُهَا. ويتبين لنا أكثر وأكثر عزة نفس وثقة أبي حازم التي منحا الله إياه بالإسلام في أنه دعا بالهلاك للأمير إن خالف أمر الله بعد أن دعا للأمير بالخير إن وافق أمر الله، بالرغم من أن الأمير طلب منه فقط أن يدعو له ولم يأمره بالدعاء عليه أيضًا! وعندما أصر الأمير في التودد إلى أبي حازم بالرغم من صد أبو حازم له، وذلك بالالتفاف في طريقة تسلله إلى قلب أبو حازم عن طريق إعطائه مالًا في عدم وجوده، كي لا يكون مُحرَجًا بوجود الأمير أو بأخذ المال منه مباشرةً، وأمَّله في المزيد، زجره أبو حازم بل وأغلظ عليه أكثر.

وفعل ذلك عن طريق رد المال عليه إنفاذًا لقول الله {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ} [آل عمران

[1] مسند أحمد 10716، ضعفه الألباني والأرناؤوط.

187]، فتورع عن صدور منه مجاراة ذات سلطة أو بيع علمه الشرعي. ووعظ أبو حازم الأمير بقصة سيدنا موسى (عليه السلام) التي تُلمّح للأمير أنه لن يبيع ولو شيئًا من دينه ولو بملء الأرض ذهبًا، ثم أحرجه بقوله: فَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمِائَةُ دِينَارٍ عِوَضًا لِمَا حَدَّثْتُ فَالْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ فِي حَالِ الاضْطِرَارِ أَحَلُّ مِنْ هَذِهِ، وَإِنْ كَانَ لِحَقٍّ لِي فِي بَيْتِ الْمَالِ فَلِي فِيهَا نُظَرَاءُ فَإِنْ سَاوَيْتَ بَيْنَنَا وَإِلا فَلَيْسَ لِي فِيهَا حَاجَةٌ.

فمع إصرار الأمير للتأثير على أبي حازم ازدادت وتكثفت مقاومته لمحاولات الأمير، فأي رسوخٍ ذلك وأي حكمةٍ تلك وأي خُلُقٍ هذا. فيا ليتنا نتَّصف بمثل صفاته تلك ونثبت إذا تعرَّض أحدنا لمثل ذلك المواقف، والله المستعان وبه التوفيق.

أما على مستوى الصحابة الثقال (رضي الله عنهم)، فإن هناك واقعة مُشوّقة ومُعَبّرة في غاية النصح والاقتداء والخُلاصة حدثت بين سيدنا عمر بن الخطاب، عندما كان أمير المؤمنين، وبين أبي عبيدة بن الجراح (رضي الله عنهما). قال الراوي: خرج عمرُ بنُ الخطابِ إلى الشامِ ومعنا أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، فأتوا على مَخاضةٍ [أي موضع ماء] وعمرُ على ناقةٍ، فنزل عنها وخلع خُفَّيه فوضعَهما على عاتقِه، وأخذ بزمامِ ناقتِه فخاض بها المَخاضةَ، فقال أبو عبيدةَ: يا أميرَ المؤمنين أأنتَ تفعلُ هذا؟ تخلعُ خُفَّيك وتضعُهما على عاتقِك وتأخذ بزمامِ ناقتِك وتخوضُ بها المَخاضةَ؟! ما يسرُّني أنَّ أهلَ البلدِ استشرفوك [أي استقبلوك على هذا الوضع]. فقال عمرُ: أُوَّهْ، لو يَقُل ذا غيرُك أبا عبيدة جعلتُه نكالًا لأمة محمدٍ (صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ)، إنا كنا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا اللهُ بالإسلامِ، فمهما نطلبُ العزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا اللهُ[1].

كم يبلغ مدى ما تحملوه من أعباء ومعانات لترسيخ الإسلام في الأرض. كم عانى وجاهد الرعيل الأول من المسلمين كي يُرسخوا كلمة توحيد الله في الأرض؟ كم دفعوا، بل وحاربوا، مَن اضطهدهم كي لا يُخمد الإسلام ويضيع عمن جاء بعدهم؟ {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (2) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [الجمعة 2-3]، فهذه الآية تتكلم عني وعنك أيها القارئ؛ نحن هم الآخَرون الذين لحقوا بالصحابة في الإسلام.

فما الذي بذلوه حتى يصلني الإسلام معروفًا منتشرًا جاهزًا وسهلًا؟ ما وجه المقارنة بين الصحابة الذين اجتهدوا في نصرة الإسلام، بتطبيقه ونشره والدفاع عنه ممن يهاجمه، وبين أناس جاءهم الدين مُتأسسًا في الأرض معروفًا، ومع ذلك قد يتهاونون بأحكامه ولا يُطبقونه؟ بل وإن فئة

[1] المستدرك على الصحيحين للحاكم 62/1، وصححه ووافقه الذهبي والألباني.

ممن ينتسبون للإسلام يهاجمون بعض الشرائع التي لا تكون على هواهم أو عاداتهم أو منطلق فكرهم أو لا يتحملون تطبيقها، مع أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد أوصانا قائلًا "لا يُؤْمِن أَحَدكُمْ حَتَّى يَكُون هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْت بِهِ"[1].

هذا بينما كان منهج الصحابة (رضي الله عنهم) الالتزام بشرع الله ولو على حساب أنفسهم، يُقدِّمون ما يُحبّه الله فوق رغباتهم وآرائهم الشخصية. ومن ثمَّ أصبحوا يُحبّون ما يُحب الله ويبغضون ما يُبغضه الله، إلى حد أنهم أحبّوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثر مما يُحبون أنفسهم. يروي لنا سيدنا عبد الله بن هشام (رضي الله عنه): كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ"، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "الْآنَ يَا عُمَرُ"[2]. أي أن المراتب العُلى من الإيمان تُبلغ عندما يُحب المرء رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أكثر مما يُحب نفسه، فراجع سيدنا عمر نفسه وأدرك أنه يُحب الرسول (صلى الله عليه وسلم) أكثر من نفسه.

بل وقد بلغ سيدنا عمر (رضي الله عنه) من حُب الله وإيثار رسوله على نفسه إلى درجة أنه كان يُقدِّم ما يُحبه الرسول (صلى الله عليه وسلم) من الأمور الشخصية فوق ما يُحبه هو شخصيًّا. مثلًا، عندما أصبح الخليفة فَرَضَ لِأُسَامَةَ بن زَيدٍ مالًا من الغنائم أكثر مما فرض لابنه عبد الله بن عمر (رضي الله عنهم جميعا)، فقال عبد الله: لِمَ فَضَّلْتَ أُسَامَةَ عَلَيَّ؟ فَوَاللَّهِ مَا سَبَقَنِي إِلَى مَشْهَدٍ (أي في غزوة). قال: لِأَنَّ زَيْدًا كَانَ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَبِيكَ، وَكَانَ أُسَامَةُ أَحَبَّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْكَ، فَآثَرْتُ حُبَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حُبِّي[3]. فإلى هذا الحد بلغ حُبّهم واتباعهم لسُنَّة الرسول (صلى الله عليه وسلم).

أما بنج المُتراخين والمُعرضين عن شرع الله، يَضيع الدين على أيديهم إما بالتقصير في تطبيقه، أو بالتهاون بتعلمه، حتى أصبحت الفقهيات والمناسك مجهولةً عند كثير منهم، وبعدم حمله حمل الرجال متمثلًا في مواجهة من خالفه أو عاداه. وقد شُمِلَ المسلم العام في تلك المسؤولية {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} [الزخرف 44]، وفي التفاسير أنه ذِكرٌ بمعنى شرف لقريش، وحقًّا

---

[1] الأربعون النووية للنووي 41، وقال: حسنٌ صحيح. وذكره العسقلاني في فتح الباري بشرح صحيح البخاري 302/13، وقال عنه: أَخْرَجَهُ الْحَسَن بْن سُفْيَان وَغَيْره وَرِجَاله ثِقَات. ولكن ضعَّفه الألباني في تخريج مشكاة المصابيح 166، وضعَّفه ابن عثيمين في مجموع فتاوى ابن عثيمين 16/91. قال ابن باز في شرح كتاب التوحيد 264: ضعَّف بعض العلماء هذا الحديث ولكن معناه صحيح.

[2] صحيح البخاري 6142.

[3] سنن الترمذي 3749.

إنه لشرف أن يكون المرء ممن يحملونه وينتمون إليه، وسوف نُسأل عامة عن هذا القرآن كيف كنا نتعامل معه وهل أقمناه.

وفي كتاب "الرحيق المختوم" للشيخ المباركفوري (رحمه الله) بعض الروايات عما مر به الرعيل الأول من المسلمين (رضي الله عنهم) لتوطيد الإسلام حتى يصل إلينا. وهذا إضافة لما فُعل بأشرف خلق الله صلى الله عليه وسلم ما بين اضطهاد له وإجهاض لمجهوده إلى محاولات قتله كما ذُكر من قبل. جاء من الأمثلة:

- كان عَمّ عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يُدَخّنه من تحته.

- لما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعته الطعام والشراب، وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا، فتَخَشَّفَ جلده تخشف الحية.

- وكان صهيب بن سنان الرومي يُعذَّب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول.

- وكان بلال مولى أُمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلًا ثم يُسّلمه إلى الصبيان يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ. وكان أمية يشده شدًّا ثم يضربه بالعصا، ويُلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يُكرهه على الجوع. وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك: أحدٌ أحدٌ، ويقول: لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها لقلتها. ومر به أبو بكر يومًا وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بغلام أسود، وقيل: بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه.

وفي لفتة سريعة عن إيمان ودهاء وقوة وقدر سيدنا أبي بكر (رضي الله عنه) للأمة الإسلامية، قد جاء أنه اشْتَرَى بلالًا وَهُوَ مَدْفُونٌ بِالْحِجَارَةِ بِخَمْسِ أَوَاقٍ ذَهَبًا، فَقَالُوا: لَوْ أَبَيْتَ إلا أُوقِيَّةً لَبِعْنَاكَهُ، قَالَ: لَوْ أَبَيْتُمْ إلا مِائَةَ أُوقِيَّةٍ لأَخَذْتُهُ[1] (انتهى). قد استهزء موالي سيدنا بلال بقيمته، وحَطّوا من منزلته، ولكن رد عليهم سيدنا أبو بكر ردًّا رفع قدر بلال وقهر المشركين وحسَّرهم وغاظهم. وأصبح بذلك أبو بكر يُقال عنه: سيدنا الذي أعتق سيدنا.

ويجب ذكر ما رواه عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ عن السابقين الأولين من المسلمين (رضي الله عنهم أجمين)، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبُو بَكْرٍ

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للأصبهاني 38/1 (باب: شراء سيدنا أبو بكر لبلال).

وَعَمَّارٌ وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ وَصُهَيْبٌ وَبِلالٌ وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمْ الْمُشْرِكُونَ وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا إلا بِلالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَخَذُوهُ فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ فَجَعَلُوا يَطُوفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ[1]. فبالرغم مما ناله من عذاب وبؤسٍ فإنه هانت عليه نفسه من أجل الله وحمل رسالته، فأين أنا من تطبيق رسالة الإسلام، لاسيما حملها؟!

- وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولًى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون (وعلى رأسهم أبو جهل) يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء –وهي منطقة صحراوية بالغة الحرارة– فيعذبونهم بحرّها. ومر بهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم يُعذَّبون فقال: "صبرًا آل ياسرٍ، فإنَّ موعدَكم الجنةُ" (وذكره الألباني في فقه السيرة وقال عنه: حسن صحيح). فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية (أم عمار) في قبلها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة.

وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغطه في الماء حتى كان يفقد وعيه. وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمدًا، أو تقول في اللات والعزى خيرًا، فوافقهم على ذلك مُكرَهًا، وجاء باكيًا معتذرًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم لِما اضطُّر لفعله، فأنزل الله {مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ} [النحل 106].

- وكان أبو فُكَيْهَةَ (واسمه أفلح) مولًى لبني عبد الدار، وكان من الأزد. فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حر شديد، وفي رجليه قيد من حديد، فيجردونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ثم يضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك. فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، فلم يزل يعذب كذلك حتى هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وكانوا مرة قد ربطوا رجله بحبل، ثم جروه وألقوه في الرمضاء وخنقوه حتى ظنوا أنه قد مات، فمر به أبو بكر فاشتراه وأعتقه لله.

- وكان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سِباع الخزاعية، وكان حدادًا، فلما أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتي بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه، ليكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وكان المشركون أيضًا يعذبونه

[1] سنن ابن ماجه 147.

فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثم سحبوه عليها، فما أطفأها إلا وَدَكَ ظهره (أي لحم وشحم ظهره).

- وأسلمت جارية عمر بن مؤمل من بني عُدي، فكان عمر بن الخطاب يعذبها –وهو يومئذ على الشرك– فكان يضربها حتى يفتر (أي يتعب هو)، ثم يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة (أي بعد التملل من ضربها)، فتقول: كذلك يفعل بك ربك.

تلك نماذج من معاناة الصحابة، وهناك غير هذا مما يصعب إحصاؤها، مثل ما يرويه لنا سيدنا عتبة بن غزوان (رضي الله عنه) في بداية دعوة الإسلام قائلًا: وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقُ الشَّجَرِ حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا، فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلَّا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنْ الْأَمْصَارِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا، وَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ نُبُوَّةٌ قَطُّ إِلَّا تَنَاسَخَتْ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَاقِبَتِهَا مُلْكًا، فَسَتَخْبُرُونَ وَتُجَرِّبُونَ الْأُمَرَاءَ بَعْدَنَا[1] (أَشْدَاقُنَا هي جوانب الفم؛ فَأُتَزَرَ أي ربط ولبس الإزار). هذا كله لمجرد أنهم اتبعوا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وقالوا إنه لا إله إلا الله.

هؤلاء كانوا روَّاد الإسلام، فنالوا أشد العناء إذ إن الناس رأوا أنهم يُحدثون البدع، مثل الدعوة بنبذ الآلهة وعبادة إله واحد والمساواة بين الأكابر والضعفاء، فسبحان الله. ومع أن الأمور اشتدت على الصحابة، وشكا إليَّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) سيدنا خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ مع بعض الصحابة (رضي الله عنهم) قائلين: أَلا تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلا تَدْعُو لَنَا؟ قَالَ لهم: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إلا اللَّهَ وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ"[2].

وفي لفتة جانبية: في الحديث دلالة على أن لله حِكَمًا في تأخير نصره للمؤمن، منها لزرع في المؤمن الصبر على البلاء، ولتقوية يقينه، ولتمحيص الصادق من الذي يستسلم عند بوادر البلاء. وجاء ذلك في القرآن {أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ} [البقرة 214]، وفي التوصل إلى تلك الحِكَم مجالًا لاجتهاد المتفكرين.

---

[1] صحيح مسلم 5268.

[2] صحيح البخاري 6430.

فذلك، بالإضافة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم يحثهم على الصبر، فيه دلالة أنه كان يُفعل بمن آمن في الأمم التي كانت قبلهم ما هو أشد من ذلك. وأولئك الذين مضوا كانوا كاللبنات في البيت الذي فُرش وهيأ المجال لمجيء الإسلام، كما أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) كاللبنة الأخيرة في بيت الرسالة الذي بناه الرُسل من قبله (عليهم السلام). ونسأل الله لهؤلاء جميعًا أيضًا أن يجازيهم أفضل الجزاء، ولهم وافر الامتنان منًّا على ما قدَّموه لنا ولثبوتهم رغم أنهم مضوا قبل عهد الإسلام، فهؤلاء أيضًا سبب في وصول الإسلام إليَّ.

فيجب ألا أكون من هؤلاء الذين ضيّعوا هذا الدين وأُضعفه، ثم يُسلمه إلى الجيل التالي مُهمَّشًا، وذلك يتطلب اجتهادًا ومعاناةً لمقاومة من يريد النيل من الإسلام ومحوه من الأرض حتى تختفي كلمة "لا إله إلا الله" من الوجود وتبقى كلمتا الشرك والكفر، فلا إله إلا الله رغم أنف الحاقدين! ويجب أن يدرك كل مسلم، أن الحرب للقضاء على الإسلام قائمة حتى تقوم الساعة، فلا راحة لنا أبدًا، فقد تتغير أساليب محاربة الإسلام ولكن علينا رصدها ومدافعتها، فلم يقتصر الكد والبذل على الصحابة والتابعين لإعلاء هذا الدين ونشره بالفتوحات ثم انتهى الأمر على ذلك.

تعرَّف على شياطين الجن، ما غايتهم وما يحدث في نهاية المطاف معهم؟

الله يُحذرنا من الشيطان، فمن يقبل النصيحة؟ قال تعالى {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} [يس 62]. هذا هو حالنا مع الشيطان، كما حذرنا الله منه في القرآن، وحذر سيدنا آدم (عليه السلام) منه في الجنة قائلًا له {هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [طه، جزء من الآية 116]. ولكن للأسف إن الإنسان ضعيف لدرجة أنه يعصي ربه، فإنه يخطئ ويتبع الشيطان، ولكن قد أفلح من استغفر وتاب وهجر، وقد خسر من فرح واشتاق واتبع.

إن اتباع الشيطان مرة يؤدي إلى الاستسرسال في اتِّباعه ثانيةً في أمرٍ آخر، ومن ثم اتباع هواه تلقائيًّا. وهكذا أصبح الفرد عبدًا للشيطان بطاعته للشيطان، فماذا ربح سوى لحظات قليلة من المتعة البرَّاقة الزائلة، التي سيتبعها لحظات طويلة من المعاناة والندم (في الدنيا والآخرة). وهذه اللحظات المتعقبة لا تساوي ثمن المتعة لأن الإنسان يكتشف أنه دفع أكثر مما اكتسب، أي أن الألم والحسرة يفوقان كمَّ المُتعة المُحَصَّلة، في الدنيا والآخرة. فالحذر ألا نكون من هؤلاء الكثرة الذين أضلهم الشيطان، لأن لنا عقلًا ندرك به الصلاح والصواب، وندرك به أين يكمن الخير والنجاة لأنفسنا.

الشيطان تحدى الله بتكبره على الإنسان. قال الله تعالى {لَّعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (118) وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا} [النساء 118-119]. هاتان الآيتان ترويان عن الشيطان وما قاله لله، فيا للجرأة والتكبر والتمرد في قول الشيطان. وجديرٌ بالملاحظة أن ذلك إعلان من الشيطان عن غايته في إهلاك الإنس، وكون أن الله فضح الشيطان لنا كي نحترس يُبين لنا من الذي يُحبنا ويريد مصلحتنا، ومن الذي يريد أذيتنا وهلاكنا.

بعد أن أعلمني الله ما قاله الشيطان، وبعد معرفتي أن خالقي الذي يُحبني قد لعنه... لماذا أتبع الشيطان؟ لماذا أُعاونه على إثبات كلامه بأن أتَّبعه؟ أسفيهٌ أنا أم مُعاند؟ والله لئن اتبعته لأكون أضل من الأنعام، مصداقًا لقول الله {أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا} [الفرقان 44]، والآية {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مّنَ الْجِنّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاّ يَسْمَعُونَ بِهَآ أولئك كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلّ أولئك هُمُ الْغَافِلُونَ} [الأعراف 179]. إن أطعته فهل أكون من النصيب المأخوذ للشيطان من الإنس؟ ما يراني الشيطان إلا كالأنعام بالنسبة إليه.

ما غاية الشيطان معنا وما مراده فينا؟ {يَابَنِيَ آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ إِنّا جَعَلْنَا الشّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} [الأعراف 27]. إن عمل الشيطان لم يكتمل، فقد أخرجنا من الجنة، والآن يريد أن يدخلنا النار خالدين فيها إن استطاع. انظروا إلى مدى الفرق في الانتقال من الخلود في الجنة إلى الخلود في النار، ولكنه يصبر فيستغل الزمن والمثابرة ليُنفِذ أذيته ويبلغ مراده الخبيث الحاقد، ويكأنه سخر كل ما عنده من قدرات فقط لأذية الإنسان، وهذا هو شغله الشاغل، فإنما يختلط معنا ليُهلكنا. فلماذا أنا سائر في خطته؟ هل أنا ضعيف الإرادة إلى هذا الحد، أن أكون دمية للشيطان أو من أنعامه، يحركني كيف يشاء؟

الشيطان هو الذي يُخرج ويُبرز أسوأ ما في الإنسان. الشيطان ولي الذين لا يؤمنون، فكلما أطعت الشيطان كلما نقص إيماني، والاثنان يجلبان بعضهما – ضعف الإيمان وطاعة الشيطان. من يرى الشيطان منه استجابةً له وحُبًا للفساد فإنه يتقرب إليه فيُلازمه ويواليه، وهذا لأنه يرى أن ذاك الشخص سفيهًا ويكمن فيه سبيل تحقيق مُراده، من خلال استغلال ذاك العاصي التائه. فلا يا إبليس، إننا نرفض أن نكون رفقاء معك أو حتى نتلاقى في نفس الطريق، وأنى أن يأخذ برغباتنا في الاعتبار؟! إني لا أريد أن أكون ماشية في هذه الدنيا، لأني لديَّ عقل وفطرة، وأنت تُنكِّس هؤلاء. أريد

أن أبحث عن الحق بنفسي وأفكر وأستنتج بأفكاري خالصةً من وساوِسك، لا إلى دمية تحركها أنت كما تشتهي، وتُغَيِّب عقلي فتكون المعصية أحب إليَّ من من طاعة الله.

أنا سأُحاسب وحدي ولن تكون معي، بل إنك ستغدر بي وتَطّعنِّي في الآخرة ببواحك لي أن الله وعدني وعد الحق وأنك وعدتني فأخلفتني، وتتنصل مني ومن توريطك لي بحجة أنك لم يكن لك سلطانٌ عليَّ وإنما دعوتني فاستجبت لك، فسأشق طريقي دونك، وسأهجرك في الدنيا قبل أن تهجرني في الآخرة. أما من أعرض عن الله بالمعصية فيكون حاله كما وصفه الله {وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (37) حَتَّىَ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ} [الزخرف 36-39].

فالحقيقة هي أنه يريد لكل فرد من الإنس أسوأ منزلة مُمكنة، ولا يزال يعمل على الفرد بتدرج ضئيل ولكن دون توقف، حتى يقلب فطرة الإنسان من توحيد الله والأخلاق الحميدة إلى الكفر بالله والأخلاق القبيحة إن استطاع. يقول ابن القيم تحت عنوان "الشيطان ملحاح بطيء اليأس": فإنه يريد أن يظفر به في عقبة من سبع عقبات، بعضها أصعب من بعض، لا ينزل منه من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلا إذا عجز عن الظفر به فيها.

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردت نار عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على:

العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قَلّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى. فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زينها له، وحسَّنها في عينه، وسَوَّفَ به، وفتح له باب الإرجاء، وقال له: الإيمان هو نفس التصديق، فلا تقدح فيه الأعمال، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: لا يضر مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة. والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه، لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله، وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم، ومعاداة صريح السُنَّة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية من عزله الله

ورسوله، وعزل من ولاه الله ورسوله، واعتبار ما رده الله ورسوله، ورد ما اعتبره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب، ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العوج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة. فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تُنجِّيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكال له منها بالقفزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللَّمَم، أوما علمت بأنها تُكَفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات؛ ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصِرّ عليها.

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لِمَعَاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السُنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات. وأقل ما ينال منه تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوَّت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر. فإن نجا من هذه العقبة طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات، فأمره بها، وحسَّنها في عينه، وزينها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا، لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية. فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له. ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأول. فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لا بد منها، ولو نجا منها أحد لنجا منها رُسُل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه:

العقبة السابعة: هي عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته في الخير، فكلما علت مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط. وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها، فإنه كلما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جدَّ العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأُمَّة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تُسمَّى عبودية "المراغمة"، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له.

وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه، أحدها قوله {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً} [النساء 100] [كلمات مُراغما/رغم/يرغمه مُشتقة من التراب، وهي هنا بمعنى أن المؤمن المُهاجر ينفذ من كيد الكفار به فيرغم أنوفهم على عدم التمكين منه]، سمَّى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته. وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولاحظه في الذنب، راغَمَه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى[1] (انتهى بتصرف).

اعرف مدى بُغض وعداوة الشيطان لنا. {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاء مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف 50]. هذه الآية تدعو للتعجب والاحتراس من الناس الذين يتبعون الشيطان، ففي هذه الآية يبين لنا الله كم يكمن الشيطان لنا من العداوة والكراهية... لدرجة أنه فضَّل عصيان الله –والخلود في النار– على السجود لسيدنا آدم (عليه السلام) والنجاة جميعًا في الجنة. ثم يُبرز لنا الله، بعد تلك الواقعة، فئة من الناس يتخذون الشيطان وليًّا! وذلك بالرغم من أن الله لعن الشيطان لعصيانه له فينا، ثم يأخذ بعض الناس الشيطان وليًّا... فأين العقول التي وهبنا الله إياها؟ ما هذا الذل الذي يرضاه العاصي لنفسه إذ يتبع ويُطيع من أخرجه من الجنة ويتمنى خلوده في النار! سبحان الله، أي إهانة للنفس تلك لمن يفعل ذلك؟

ويتبين لنا سبب ضغينة الشيطان للإنسان فيما يحمله كلام الشيطان {قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ} [الحجر 33]، {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (61) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلاَّ قَلِيلًا} [الإسراء 61–62]. فقد استعظم نفسه على الإنسان ورأى أنه أفضل منه خلقًا فلا ينبغي أن يسجد له، وهنا يتلخص سبب بغضه الشديد لنا، إذ أمره الله أن يسجد لنا فكبر ذلك على نفس إبليس.

وقال تعالى {قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ} [الأعراف 13–18]. هذا سرد لما حدث عندما عصى الشيطان ربنا بعدم السجود لسيدنا آدم (عليه السلام)، فلم

[1] مدارج السالكين لابن القيم 237–242.

يقتصر حسد واستكبار الشيطان على أنه فقط لم يسجد، بل بلغ من الحقد والغل إلى حد أنه تحدى ربه أن يريه مدى قبح الإنسان، وكلَّف نفسه مهمة إضلال الإنسان، ورضي بالمشقة المطلوبة لملازمة إغواء الإنسان، عناء نفسي على عناء جسدي، كي يُبلّغ الإنسان مرحلة الكفر إن استطاع، ولو كانت التكلفة على حساب نفسه بالخلود في النار! فلا مانع لديه أن يُهلِك نفسه ما دام سيجُر معه أناسًا إلى الهلاك معه، فأي كُرهٍ هذا؟

وفي هذه الآيات نرى مدى إصرار الشيطان وغروره، الذي بلغ إلى حد أنه يُعارض أوامر الله ويتجرأ ويقول لله إنه سيحيل بين بني آدم وربه، فيمنع الإنسان من شكر ربه بأن يأتيه من كل جانب من متاع. هذا يبين لنا مدى كره إبليس لنا ومدى رغبته في إلحاق الأذى بنا، يتوعد للإنسان بدلًا من أن يسجد لسيدنا آدم (عليه السلام) وينال رضا الله! فما مدى غِلّه للإنسان؟

قد عماه استكباره، وبغضه لنا وغضبه، عن أن يدرك مُحصلة أفعاله، ورأى أنه عندما يتحدى الله بمنع العباد من عبادة ربهم أنه سيثبت صحة كلامه، وعمي عن إدراك أنه بذلك أصابته لعنة الله، ولم يبالِ أنه سيخلَّد في جهنم. ولو أنه قد تاب بعد أن طرده الله من الجنة لكان خيرًا لنا وله، ولكنه أصر على أن يظل في لعنة الله من شدة بغضه لنا. فهل من المنطق اتخاذ الشيطان وليًّا، أو قرينًا، أو حتى الاستماع إلى رأيه في أمرٍ ما؟! هذا ما يفعله العاصي، عافانا الله من هذا.

مدى غدر الشيطان. إن الشيطان ليقف وراء العبد ويُأَمّنه أنه ظهير له، حتى يُجرّئ المرء على الفجور، فلما تأتي اللحظة العصيبة في مواجهة عواقبها –أي عواقب تلك الجرأة مثل مواجهة المسلمين في ساحة القتال، أو وقت تطبيق الحد على المرء، أو وقت الحساب عند الله– يتخلف الشطان ويُصَدِّر المرء للعواقب واللوم. وجديرٌ بالتذكير أن ذلك ما فعله مع سيدنا آدم عليه السلام، إذ حثه على الأكل من الشجرة وأقسم له بالخير منها، ثم اختفى عندما حان وقت محاسبة الله لسيدنا آدم عليه السلام.

فبعد أن يُطمئن الشيطانُ العبدَ ويُجَرّئه أنه سيتصدى معه، أو حتى سيُجادل بالنيابة عنه، عواقب الفحشاء وسيقف معه يدعمه، يتراجع الشيطان للخلف ويترك المرء مكشوفًا ليصطدم بالعواقب كاملة ولوحده بعد أن ساقه إليها. بل وربما أضاف الحُجج على العاصي ليُغرقه في اللوم والأحمال، ويُبرز كل إخفاقات المرء حتى ينال أقصى عقوبة، مثلما يقول عند الحساب إنه فقط دعا إلى المعصية لكن نحن الذي أقبلنا عليها دون إجبار، ومثل قوله {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ} عند حساب الكافر مع أنه هو الذي كان يحث الإنسان إلى عبادته. ولو صدر ذلك منه دون قصد ولا تخطيط

لكان الأمر ليكون أهون في القبح، مع أنه لا يزال غدرًا، ولكن تلك كانت نيَّته في الأصل، فغدرته مع تخطيطه للغدر تطاول في قدر الغدر، وهي تُبين لنا مدى بُغضه لنا.

وفي الآية التالية دلالة وتفاصيل لتلك المراحل {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لاَ تَرَوْنَ إِنِّيَ أَخَافُ اللّهَ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} [الأنفال 48]. فهذه الآية تتكلم عن أن الشيطان سوَّلَ وغرَّرَ بالمشركين على مواجهة المسلمين وقتلهم، فلما تلاقت الفئتان في أرض المعركة تخلى عنهم. وبذلك يكون قد فاز (في نظره) في كل حالات نتيجة المعركة، على الأقل بمكسبٍ واحدٍ وهو توصيل أفواج من المشركين إلى جهنم خالدين فيها، وكان يُمنِّي نفسه بمكسبٍ أعظم، وهو وأد الإسلام بالقضاء على المسلمين إذا تمكن المشركون من الانتصار، ولكن أنى له ذلك إذ يأبى الله إلا أن يُتم نوره، وقد رأى الشيطان ذلك في أرض المعركة. فهذا حال الشيطان، يُوَرِّط الإنسان في المهالك ثم يبيعه في اللحظة العصيبة الحاسمة حتى يتصدر ذلك الإنسان المضلول بمفرده لبطش الله.

أمثلة من حِيَل الشيطان معنا. قال تعالى {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا} [النساء 120]. هذا إخبار من الله تعالى عن حِيَلَ الشيطان علينا لنحتاط منه، والحمد لله الذي يفضح الشيطان لنتسَلَّح ضده، ويترك لنا اختيار محاربته أو اتخاذه وليًّا. الحاصل أن الشيطان يَعِد ويُمني الإنسان بعهود خاوية وأمانٍ كاذبة، فإنه يلعب على عواطفنا وغرائزنا بأن يزين لنا السعي وراء أمور الدنيا من نساء ومال وسلطة وشهرة ورخاء بالحرام.

الشيطان يُسوّل للإنسان متاع الدنيا فيجعله يتلهف وراءها، ويجعلها هدفه في حياته، مثل زرع فكرة أن المال سِرُ السعادة والتمكين والعزة في الأرض. يعده أنه إذا حصّل المال سيعيش في سعادة الرفاهية، وعندما يصل المرء إلى ذلك، يمنيه في ما ليس عنده من مالٍ أكثر، حتى يتيه المرء في مطاردة الدنيا ولا يفيق إلا وهو واجد نفسه واقف أمام الله يُحاسَب. حينئذ يدرك المرء أن حياته قد مرت وهو ساهٍ عنها، ولم يأخذ منها للآخرة مع أنها كانت بين يديه، ويكأنها شخصٌ غريب عليه مر بجانبه في مكانٍ مُزدحم لم يلتفت إليه لأنه لم يُدرك وجوده أصلًا.

وكل هذه العهود والأماني هي من شيطان خائن يلعب بمزيج من إرادتنا على شهواتنا، فقد يتمنى المرء أن الشيطان يكون صادقًا في هذه النقطة استثنائيًّا لأنه يريد أن يُصدّق الشيطان في هذا، إذ إن الإنسان أكثر عرضةً لتصديق شيء يتمنى أن يكون حقيقيًّا. بمعنى أنه إذا كان كلام الشيطان صحيحًا، فذلك يعني أن المرء يستطيع أن يستمتع بالدنيا مع الفوز بالآخرة، وهذا أجمل حلم باطني لدى الإنسان، فيسهل عليه تصديق الشيطان.

وقد نسينا أن هذا هو ما أخرجنا من الجنة في المقام الأول، لأن هذا ما وقع فيه أبونا آدم (عليه السلام) عندما عهد له الشيطان ومنّاه، بل وأقسم له، إنه سيكون إما مَلَكًا وإما خالدًا إذا أكل من الشجرة. وقد طمع سيدنا آدم (عليه السلام) في الفوز بثمرة الشجرة المُحرَّمة مع بقائه في الجنة، وذلك هو المستحيل إذ إن ثمار الشجرة تجلب سخط الله، ولكن يا للحسرة، فإن الإنسان كثيرًا ما لا يتعظ بما سلف. وقد استولى هذا الوهم على عقول أفواج طائلة من الأنفس عبر الزمن، مثل الذين يدَّعون أنهم نصارى ويفعلون ما يحلو لهم من محظورات تصديقًا منهم أن صلب المسيح (عليه السلام) يُكفّر عنهم سيئاتهم فسيُغفر لهم! فهؤلاء اقتنعوا أنهم يفوزون بالدنيا والآخرة، وكذلك الحال مع كثير من المسلمين، إذ يرون أن قولهم شهادة الحق تعني ضمان دخول الجنة فيُطلقون شهواتهم في الدنيا؛ أمرٌ محزنٌ حقًّا.

فيجب تحكيم العقل على الهوى بالرغم من صعوبة هذا، ولو كان متاع الدنيا والآخرة يمكن جمعهما لرأينا ذلك في النبي (صلى الله عليه وسلم) لأنه أكرم مخلوق عند الله. ولكن حبيبنا كان يشتد عليه الجوع أحيانًا لدرجة أنه كان يخرج من بيته ابتغاء أن يُطعِمَه الله، وأحيانا أُخرى لا يجد فيربط الحجر على بطنه، وأصيب بالأذى بالسب والنبذ والمقاتلة. وكان فرش بيته قحطًا حتى إن سيدنا عمر (رضي الله عنه) بكى عندما رأى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في بيته البسيط، لأنه حدثته نفسه أن هذا البيت لا يليق بخاتم المُرسلين من الله، إذ إن محتويات البيت قليلة وغليظة، فكانت تشق عليه (صلى الله عليه وسلم) أحيانًا.

وهذا كما جاء في (جزء من) ما يرويه لنا سيدنا عمر (رضي الله عنه): فَدَخَلْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ مُضْطَجِعٌ عَلَى حَصِيرٍ، فَجَلَسْتُ فَأَدْنَى عَلَيْهِ إِزَارَهُ وَلَيْسَ عَلَيْهِ غَيْرُهُ، وَإِذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ، فَنَظَرْتُ بِبَصَرِي فِي خِزَانَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِذَا أَنَا بِقَبْضَةٍ مِنْ شَعِيرٍ نَحْوِ الصَّاعِ وَمِثْلِهَا قَرَظًا فِي نَاحِيَةِ الْغُرْفَةِ، وَإِذَا أَفِيقٌ مُعَلَّقٌ، فَابْتَدَرَتْ عَيْنَايَ، قَالَ "مَا يُبْكِيكَ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟". قُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَمَا لِي لا أَبْكِي وَهَذَا الْحَصِيرُ قَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِكَ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ لا أَرَى فِيهَا إِلا مَا أَرَى، وَذَاكَ قَيْصَرُ وَكِسْرَى فِي الثِّمَارِ وَالأَنْهَارِ وَأَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَفْوَتُهُ وَهَذِهِ خِزَانَتُكَ، فَقَالَ "يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، أَلا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَنَا الآخِرَةُ وَلَهُمْ الدُّنْيَا"، قُلْتُ: بَلَى[1] (الصَّاعِ هو قياس للكيل، وهو أربعة أمد؛ قَرَظًا هو ورق شجر يُدبج به؛ أَفِيقٌ هو الجلد الذي لم يتم دباجه؛ فَابْتَدَرَتْ أي سبقته ولم يتمالك منعها من البكاء).

فهكذا كان حال سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) وهو رسول الله، وأنا أتمنى ما أتمنى من الدنيا زيادةً على السعة التي أنا فيها أصلًا، ومع ذلك تحدثني نفسي بالجزم أن مصيري الجنة لا محالة. والله إنهم لفي عالم وإني لفي عالم آخر.

---

[1] صحيح مسلم 2704.

مثال من مكايد الشيطان، والتي تدل على مدى حرصه وحرقته وتربصه لإضرار الإنسان، هو أنه يصرفنا عن الخشوع مع الله والقُربة منه تعالى. نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن الشيطان يأتي إلى الإنسان فيشغله عن صلاته وفي أثنائها بأمور الدنيا، وحين يَذكر الله بعد الصلاة وقبل النوم، قائلًا عنه "إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ، حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ، حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ، حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا، وَاذْكُرْ كَذَا؛ لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ، حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى"[1] (أَدْبَرَ أي ولّى وانصرف؛ ضُرَاطٌ هو صوت الريح الخارج من الدُبُر، وهنا هو إشارة على شدة نفور الشيطان؛ ثُوِّبَ/التَّثْوِيبُ هو نداء إقامة الصلاة).

وفي حديث آخر جاء "خَلَّتَانِ لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ، وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا (وكان يعقدها بيده)، فَتِلْكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ تُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ وَتَحْمَدُهُ مِائَةً، فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ. فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَ مِائَةِ سَيِّئَةٍ؟" قَالُوا: فَكَيْفَ لَا يُحْصِيهَا؟ قَالَ "يَأْتِي أَحَدَكُمْ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا؛ حَتَّى يَنْفَتِلَ فَلَعَلَّهُ لَا يَفْعَلُ، وَيَأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ فَلَا يَزَالُ يُنَوِّمُهُ حَتَّى يَنَامَ"[2] (حَتَّى يَنْفَتِلَ فَلَعَلَّهُ لَا يَفْعَلُ أي إلى أن ينفك عن ذكر الله، وبذلك لعله ينسى وينشغل فلا يرجع للأذكار).

وللشيطان مكايد متعددة لإيقاع الإنسان، من ضمنها –والتي لا يُلاحظها الكثير– أن له أسلوب خلخلة لإيمان وتقوى وثبات العبد على صراط الله. قال بعض السلف: ما أمَرَ الله بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان، إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة (أي الإفراط)، ولا يبالي بأيهما ظَفَر: زيادة أو نقصان[3].

فالشيطان يأتي العبد من باب التفريط تارة، فيُسوّل للعبد أنه ما زال أمامه كثير من الوقت والقوة على العمل الصالح، فلا بأس من تأجيله وارتكاب المعاصي حاضرًا. والتارة الأخرى يأتيه من باب الإفراط بأن العبد ينبغي له أن يُعوّض ما فاته من الصالحات ويُصلح ما ارتكبه من معاصٍ ليُدرك الدرجات العُلى مع الصالحين، فيُشدّد العبد على نفسه ويغلو في الدين حتى يُغلَب فينفر من العمل الصالح، ويُحبَط وييأس حتى يترك مجاهدة معصية الله.

والإفراط في الدين، وهو عن طريق التشديد على النفس، قد نهى عنه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في عدة أحاديث، منها أنه رأى رجل واقفٌ في الشمس فسأل عنه، فقيل له: أَبُو إِسْرَائِيلَ

---

[1] صحيح مسلم 585.

[2] سنن الترمذي 433.

[3] مدارج السالكين لابن القيم 108/2.

نَذَرَ أَنْ يَقُومَ وَلَا يَقْعُدَ وَلَا يَسْتَظِلَّ وَلَا يَتَكَلَّمَ وَيَصُومَ؛ فَقَالَ "مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ"[1]. وأرسخ الرسول (صلى الله عليه وسلم) مبدأً عامًّا، وهذا عندما رأى شيخًا يُهَادَى (أي يتَسَنَّد) بين ابْنَيْهِ فقال "مَا بَالُ هَذَا؟" قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ (وفي رواية: إلى بيت الله)، قال "إِنَّ اللَّهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ"، وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ[2].

في كلتا الحالتين يُحقق الشيطان هدفه، فسواء مال العبد إلى التفريط أم الإفراط فإنه يُقلِّص من عمله الصالح الصائب ويُكثر من المعاصي في نهاية المطاف. ذكر ابن القيم (رحمه الله) أن كِلا الطريقين يؤدي إلى الخروج عن السُنَّة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف (انتهى). فالبدعة قد تكون عن طريق الجهل بسبب التفريط في الدين، مثل الغناء في المساجد، وإما أن تكون عن طريق الغلو بسبب الإفراط في الدين، مثل التشديد على النفس كالذي يعزم على صيام كل أيامه، أو الوسوسة بإعادة الوضوء والصلاة. وكِلا الفريقين، الذي يُسرف والذي يغلو، يظن أنه يتقرب إلى الله بمثل تلك الأفعال.

وقد يُشدد العبد على نفسه فيمنعها من مباحات الدنيا على الدوام، بجانب التشديد على نفسه في الطاعات، إلى حد يبلغ تعذيب النفس وما لا تطيقه نفسه طويلًا، وحتى يكاد يُهلك بدنه. وهؤلاء في النهاية يرتدون عما هم فيه، وربما إلى الأسوأ مما كانوا عليه بأن يُقبلوا على المعاصي أيضًا، مثل الذي يرجع إلى اللحم بعدما منع نفسه منها ويُقبل على الطعام المُحرَّم أيضًا، كرَد فعل النفس للمبالغة في حرمانها من المباحات. أما الذي يأتيه الوساوس في الوضوء فيظل يُعيد وضوءه، ينتج عن هذا أنه يتخلف عن الجماعة الأولى في صلاة المسجد، ثم لعله يترك الصلاة في المسجد بالكلية.

ومثال آخر لأسلوب الشيطان هذا هو أن يُذكِّر العبد بالأوقات المرحة، وأنه قوي ويستطيع أن يُتم أغلب ما يريد بلوغه، ويأتيه بأحلام تُزيد من فرحة العبد، فيصبح العبد في حالة نشوة وغرور، فيُقبل على المعصية من باب أنه مُميز عند الله وسيدخل الجنة فلا ضرر من عصيان الله. ثم يأتيه الشيطان من الجهة المعاكسة، فيُذَكِّره بالأوقات البائسة وفترات ضعفه والمواقف التي ظلمه الناس فيهن حتى يُغضِبه أو يجعله ييأس، ويأتيه في أحلامه بأشياء مُزعجة ومُستَفِزَّة، فإذا يئس العبد ترك العمل الصالح وأقبل على المعاصي ليُخفف من وطأة حُزنه، وإذا غضب فإنه يظلم الناس. فتارة يكون العبد عنده إفراط في السرور فيعصي الله تهاونًا، وتارةً يكون العبد عنده تفريط في السرور فيعصي الله يأسًا أو انفعالًا.

---

[1] صحيح البخاري 6210.

[2] صحيح البخاري 1732.

ومِثل هذا المفعول هو مثل الزجاج الذي يُعرِّضه شخص لدرجة حرارة عالية دون الصهر، ثم يُبرِّده جدًّا، ثم يعيد تسخينه جدًّا، وهكذا. ومع تكرار هذا، يتشقق ويتصدع الزجاج، إلى أن ينكسر نتيجة التقلبات الحرارية القاسية التي يتعرض لها، أو على الأقل يُصبح هشًّا سهل الكسر.

فهذه العوامل تُجهد العبد وتُضعف عزيمته في الثبات على طاعة الله. ويظل الشيطان يَصدع في صور حِصنِ العبد، وهو حَزمِ العبد على مجانبة الشُبهات، إلى أن يتساهل العبد في الإعراض عن عصيان الله، فيقع في معصية الله. فإن كان العبد قويًّا في مقاومة الشيطان من جانب، يأتيه من الجهة المُعاكسة الأضعف ليُأثِّر عليه حتى يُوقعه، ثم يرجع إلى الجانب القوي ويضرب فيه، ويُكرر هذا حتى ينهار الجانب القوي أيضًا لدى العبد. ولعل هذه المكيدة مشمولة في تحذير الآية، والتي تنقل كلام الشيطان، {ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ} [الأعراف 17].

ونموذج آخر من مكايد الشيطان الفَعَّالة هي أنه يتحسس ما الذي يميل إليه العبد من أمنيات، والشهوات التي يسهل وقوعه فيها، فيوسوس له الشيطان فيه. فمثلًا، يوسوس لمن يُحب شرب الخمر أنه ما من بأسٍ في الكميات الصغيرة التي لا تبلغ أنها تُذهب العقل تمامًا، أو يُذكِّر العبد بأوقات مرحٍ قضاها وهو يشرب الخمر، وهذا كي يُضعف مقاومة العبد لشرب الخمر. وربما عمل على باب أوسع، مثل أن يأتي للعبد الذي يتمنى أن يظل يلبي شهواته في الدنيا بالمعاصي ويدخل الجنة سالمًا، فيُوحي إليه قناعات وحُجج أنه قدّم من الطاعات والمنافع للناس ما يكفي أن يكون مُميزًا عند الله فلا يؤاخذ بالمعاصي أو أنها لا تُذكَر أمام محاسنه، وأن العبد سينجو بفعلته، فيُصدِّق ويقتنع العبد.

وهذا النموذج من مكايد الشيطان مُشار إليه في القرآن {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [الحج 52] (تَمَنَّى معناها القراءة والتلاوة. وقيل إن معناها من التمني، وهنا هو تمني الرسول صلى الله عليه وسلم أن يؤمن به قومه). نقل الإمام بن كثير (رحمه الله) في تفسيره: أُنزلت سورة النجم وكان المشركون يقولون: لو كان هذا الرجل يذكر آلهتنا بخير أقررناه وأصحابه، ولكنه لا يذكر من خالف دينه من اليهود والنصارى بمثل الذي يذكر آلهتنا من الشتم والشر.

فلما أنزل الله سورة النجم {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى} ألقى الشيطان عندها كلمات حين ذكر الله الطواغيت، فقال (وإنهن لهن الغرانيق العُلى وإن شفاعتهن لهي التي تُرتجى)، وكان ذلك من سجع الشيطان وفتنته، فوقعت هاتان الكلمتان في قلب كل مشرك بمكة وذلت بها ألسنتهم وتباشروا بها وقالوا: إن محمدًا قد رجع إلى دينه الأول ودين قومه. فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر النجم سجد وسجد كل من حضره من مسلم أو

مشرك. ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان في مسامع المشركين فاطمأنت أنفسهم لما ألقى الشيطان في أمنية رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدثهم به الشيطان أن رسول الله قد قرأها في السورة، فسجدوا لتعظيم آلهتهم. وقد نسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم الله آياته وحفظه من الفرية {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} (انتهى بتصرف).

ولكن ينبغي التنبيه، أن بالرغم من كل أساليب الشيطان الخبيثة وإمكانياته، فإنه ليس لديه سلطة على العبد –أي قدرة إجباره على المعصية–، وإنما يُجرّئه عليها ويُزينها له، فلا يظل ارتكاب المعصية خطأ العبد في الأساس. والعبد المُفلح هو الذي يتحرز من مثل هذه المكايد بالاستعانة بالله، والاستعاذة، والأذكار التي تقي من الشيطان، والتفقّه في الدين، والوعي من مكايد الشيطان، ومُجاهدة النفس عن الشُبهات، وتجديد العزيمة، وغير ذلك.

حقيقة الشيطان تتبين بوضوح للجميع يوم القيامة. قال الله عز وجل {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم مَّا أَنَاْ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [ابراهيم 22]، فإن الله يفضح الشيطان لنا، فهل نحترس؟ لا إله إلا الله.

إني لأتخيل لو أني اكتشفت في الآخرة أني كنت طائعًا للشيطان في الدنيا، وكان أقرب صديق لي، وكنا قرناء، ثم يأتي يوم القيامة ويقول لي هذا. حقًّا، إن الشيطان لخذول خائن، لبئس القرين والرفيق. هذا الكذاب يكفر بما حث الإنس أن يشركوا بالله به من صنم ومخلوقات وغير ذلك، فالكذاب قد وعد وأخلف وعده، فلماذا نتعجب من ذلك وهو كذاب. وذاك الكذاب يتبرأ من أن يستصرخ أحدًا، أي لا يُغيث أحدًا من العذاب متحججًا بكما أنه لن يتقدم أحدٌ ليُغيثه ولن يستطيع مساعدته، وهي حجة باطلة ماكرة إذ إنه هو الذي أضلهم من المقام الأول.

الكذاب لن يحمل أوزار أحد ممن أضلهم ويتضح لنا غايته أن هذا هو ما خطط له، أن يصاحبنا إلى المعاصي ثم يبيعنا لحظة الحساب لنذوق أشد العذاب. وتشبيه لذلك الحال مثل من يقود السيارة على سرعة عالية وهناك راكبٌ بجانبه، ثم يقفز السائق من السيارة مباشرةً قبل أن تصطدم بالحائط، مورطًا الراكب في الهلاك وحده، وهو متعمد لفعلته تلك بسبب حقده وكرهه وكبره. فأنى يكون هذا صديقًا لنا؟

والحمد لله الذي سلَّحنا بالعلم ضد الشيطان، ونبأنا مما يفعله الشيطان من مكايد وحتى مما سيصدر منه في المستقبل! فمَن أولى بأن نطيعه؟ مَن الذي يظهر منه الحب لنا والحرص علينا؟

الشيطان سيفعل فينا ما بيَّنه الله لنا يوم القيامة، فهل يستحق أن أتبعه وأُولِّيه عليَّ؟ فلماذا لا أبادر أنا بالتخلي عنه في الدنيا وأبيعه قبل أن يبيعني هو يوم القيامة؟ فكل واحد منا يا إخواني يختار بنفسه ماذا سيفعل، وأي الطريقين سيسلك: الطريق مع الله أم الطريق مع الشيطان.

وكلٌّ مسؤول عن نفسه واختياراته، وكلٌّ له حسابه الخاص، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه. بعد كل المكايدة والمخادعة فإن الشيطان يؤكد لنا شيئًا، وهو أن ليس له علينا من سلطان –ومن ثمَّ تعني أن ما كان للمرء من حجة منطقية للإقبال على المعصية–، وأن العاصي إنما يتبعه لشهوته وبرضاه. لذلك أقول إن أردت أن تعصي الله ولا بد، فابحث عن حجتك التي ستقولها لله عندما تحاسب عليها يوم القيامة قبل أن تعصيه، ولا تكن حجتك "الشيطان هو السبب"، لأنها حجة خاوية كما تُبين الآية؛ إنما هو يقترح الأفكار ويُحرِّضك عليها ولكن لا يُجبرك عليها.

تعرّف على شياطين الإنس: صاحب السوء، وما عواقب ملازمته أو اتباعه

إن صاحب السوء –أو التمسك بقدوة سيئة مثل رجل نبذ كلام الله ورسوله وأغرته أفكاره وأهواؤه وأُعجب وافتخر بها فقدَّمها على ما أنزله الله، واتَّبعه أفواج من الناس– يجر المرء إلى الضياع ما دام المرء متمسكًا به. وفي أضعف الأحوال فإنه يُدني من منزلة المرء في الجنة، ولكن العادة هي أنه يفيض بأتباعه إلى الخلود في جهنم. ذلك لأن صديق السوء يقود رفيقه إلى أهوائه وشهواته، ويحثه على إطلاق شهواته هو أيضًا واقتراح الأفعال الخبيثة كي يرتكبوها معًا، ويُبعده عن التمسك بنصائح الله. وكثيرًا ما يكون صديق السوء مستكبرًا فيُرغم رفيقه إلى السوء باستضعافه، فيصعب على المُستضعف التصدي لذاك الصديق.

وبهذا يحق لنا أن نقول إن صديق السوء يتقمص دور الصديق، لأنه يكون رفيقًا لك فقط في الدنيا، ولكنه في الآخرة يكون من ألد الأعداء لك إذ يُلقي عليك أثقال المعاصي بلومك على ما صدر منكما. يكون غدَّارًا يوم القيامة، فهل من شيمة الصديق الحقيقي أن يكون غدارًا؟

وقد بيَّن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أن صاحب السوء يكون كله أذًى للمرء، وهو النقيض تمامًا للصاحب الصالح، وذلك في قوله "مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً؛ وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً"[1] (وَنَافِخِ الْكِيرِ هو الرجل الذي ينفخ بأداة في النار، كالذي

[1] صحيح البخاري 5108.

يصنع الزجاج؛ يُحْذِيَكَ أي يعطيك هدية؛ تَبْتَاعَ مِنْهُ أي تشتري منه). ففي المُحصّلة، التخلص من صديق السوء منفعة من كل جهة.

هذا لأن صديق السوء يكون بين الحث على ترك طاعة الله وبين الحث على التجرؤ على حد من حدود الله. ومن أسوئهم من يكون شاربًا للخمر، فهو يدعو رفيقه إلى شرب الخمر، والذي هي مفتاح كل الشرور، لأنه بهذا المسلك يستبيح جميع المعاصي. هذا دون الاستفاضة في أن ذاك الصديق يدعو إلى استحقاق لعن الله، لأن الله لعن شارب الخمر. فأفضل شيء هو مفارقة صديق السوء وعدم مجالسته حتى لا يتأثر المرء منه، حتى إن كان المرء يظن أنه يستطيع صد دعَوَات صديقه السيئ أو تجنب مساوئه.

ومن النماذج المُوَثَّقة التي أفضى بها صاحب السوء برفيقه إلى الهلاك كان لرجلٍ أسلم بين يدي الرسول (صلى الله عليه وسلم)، فلما رجع الرجل إلى صاحبه السيئ أقسم عليه ألا يُكلمه حتى يرجع فيتفل في وجه الرسول (صلى الله عليه وسلم)، ففعل الرجل ذلك كي لا يخسر صاحبه (الذي سيخسره لا محالة يوم القيامة)، فيا للخسارة الفادحة. وستأتي إن شاء الله ذكر القصة بتفاصيلها وبسَنَدِها وغيرها من القصص إن شاء الله في جزء: كيف أحث نفسي على ترك المعاصي؛ فصل: التخلي عن صديق السوء.

تعرَّف على نفسك وانظر إليها بموضوعية، ثم احكم عليها بإنصاف

أصل الإنسان أنه مُكرَّمٌ من الله، فمنهم من يوفي حق ذلك ومنهم من يجحد جحودًا. {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمّ صَوّرْنَاكُمْ ثُمّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُوَاْ إِلاّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مّنَ السّاجِدِينَ (11) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ} [الأعراف 11-12]. إن الله أَمَرَ كل هؤلاء بالسجود لأبينا آدم (عليه السلام) تكريمًا له، ذلك بالرغم من أن الله لا يقبل أن يسجد أحد لغيره تعالى، فإنَّ أمْره للملائكة بالسجود لسيدنا آدم (عليه السلام) دليل على مدى حب الله له، فكرَّمه. والواقع أن هذا أبي، وأنا من ذريته، أبعد كل هذا التكريم لأبي –ومن ثَمَّ أنا أيضًا بطريقة غير مباشرة– أذهب وأعصي ربي؟! فمن عمل سيئًا فقد أهان نفسه ودنَّسها، ورفع عن نفسه التكريم فأصبح من أسفل سافلين المخلوقات. فهو بمنزلة من رفض التكريم، فأي ذلةٍ تلك؟!

وما يدعو للتعجب في الوضع هو أن الملائكة تسجد لسيدنا آدم (عليه السلام) وهم لم يعصوا الله قط، خلافًا لطبيعة الإنسان الذي عنده الإمكانية أن يعصي الله، ولكن هذه من حكمة الله وتكريمه لنا. فالإنسان إن اتقى الله مع قدرته على أن يعصي الله، يصبح في منزلة أرقى من الملائكة، والرسول (صلى الله عليه وسلم) هو أفضل دليل على ذلك، إذ سُمح له بدخول مكانٍ لا يستطيع

الملائكة أن يدخلوه ولم يؤذن لهم بذلك من الله – سِدرة المنتهى. فالملائكة استجابوا لأمر الله طوعًا فسجدوا، فهلا أكون أهلًا لذلك التكريم وأسجد أنا لله؟

طبيعة النفس أنها تُنشئ أفكارًا، فمنها مُصلحة ومنها مُفسدة. قد باحت امرأة العزيز بما نُخفيه قائلة {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ} [يوسف 53]؛ فهذا واقع طبع الإنسان. وهذا ما يجعل الامتناع عن المعصية أمرًا اجتهاديًّا وشاقًّا في الواقع، فإن الإنسان ليقع في المعصية في فترات ضعفه، لأن النفس إذا اقترحت معصية ثم خمدت لكان الامتناع عن المعصية يسيرًا، ولكن النفس لا تزال تُلح على المرء "افعل كذا، وافعل كذا لكذا وكذا". فالأمر لا يشمل فقط العلم لأن الناس عادة ما يعرفون الحرام من الحلال، ولكن يحتاج إلى عزيمة أيضًا لأن مقاومة الإلحاح يحتاج إلى صبرٍ، وهذا ما يجعل مجاهدة النفس في صراع مستمر إلى أن تُفارق الروح الجسد، تارةً تَغلب وتارة تُغلب، ومحصّلة النتائج تعطيك منزلتك يوم القيامة.

وتلك سنّة الله لنا، فهو خلق شهوة الإنسان وأيضًا أنزل الشريعة، فالأولى كالنار التي تريد أن تُمسك بكل شيء لتنتشر، والثانية كالماء تضبط النفس من التوهج، وأمرنا الله أن نتقوى بالثانية على الأولى. فالنفس لا تزال مشتعلة في صيغة أنها تُلح على تلبية الشهوات، ولا تنطفئ إلا بموت الإنسان، والشريعة تُداوي النفوس وهي باقية يحفظها الله حتى قيام الساعة. فنستطيع أن نستشف أنه صراعٌ مستمرٌ نخوضه حتى قيام الساعة، وهذا ما أراده الله منا وتلك وظيفتنا في الحياة كي تُحدَدَ لنا منزلتنا في الآخرة. ولا يُمكن لأحدهما أن تقضي على الآخر كليًّا، فلا يمكن للشريعة أن تُخمد إلحاح الشهوات تمامًا، ولا يمكن للمُفسدين المُطلقين لعنان شهواتهم أن يُطفئوا نور هذا الدين، فلا داعي للأسى على وضع المرء، ومطلوب منا المدافعة بدلًا من ذلك، مع الاستغفار عندما يزلّ المرء.

والمسلم الورع الحكيم هو الذي يأخذ تدابير تُحرزه من نزعات النفس وإلحاحها، فهناك عدة سبل، منها القرآن كما قال الله عز وجل {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} [يونس 57]، ومنها حلقات الذكر والعلم كما بين لنا الله {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد 28]. ومنها أن تُهذب النفس بأن لا تعطيها كل ما تشتهيه من المباحات، وهذه منزلة عالية من الإيمان، كما كان يفعل سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما قال: أَوَكُلَّمَا اشْتَهَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا جَعَلَهُ فِي بَطْنِهِ؟![1]. ونموذج على مقاومة شهوة النفس في المباحات أحيانًا هو ما فعله سيدنا أبو هريرة (رضي الله عنه)، مع أنه كان من أهل الصُّفَة –وهم الفقراء الذين يبيتون في المسجد–، عندما مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ

[1] تفسير القرطبي 188/16.

فَدَعَوْهُ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ وَقَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ[1].

فمقاومة النفس واقعٌ مستمر حتى تخرج الروح من الجسد، لأن طموح الإنسان للاستزادة من الدنيا لا تهدأ كما نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) "لَوْ كَانَ لابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لابْتَغَى ثَالِثًا، وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[2] (وَلا يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ أي لا يُشبع طمعه إلا عندما يدخل التراب فاه عند الدفن، وهي كناية عن بالموت). ودرجة مقاومة العبد للشهوات تُحدد مكانة العبد عند الله، وهذه إحدى متطلبات الوقاية من معصية الله.

وعندما يُعلم مصادر الزج على العصيان تُصبح مقاومة المعاصي أيسر وأكثر فاعليةً، وفي الواقع هما النفس والشيطان. فيجب اتخاذ خطوات للحد من كل واحد منهما، وضربهما مبكرًا أسلم من ضربهما متأخرًا أو علاجهما بعد أن تظهر الآثار. وكما قال العلامة ابن القيم (رحمه الله): دَافع الخطرة، فَإِن لم تفعل صَارَت فكرة، فدافع الفكرة، فان لم تفعل صَارَت شَهْوَة، فحاربها، فَإِن لم تفعل صَارَت عَزِيمَة وهِمَّة، فَإِن لم تدافعها صَارَت فعلًا، فَإِن لم تتداركه بضدّه صَار عَادَة فيصعب عَلَيْك الانْتِقَال عنها[3].

وليست النفس رفيقًا كله خير كما يظن البعض، فمنها ما ينفع ومنها ما يضُر، ووجب الاستفادة مما ينفع –مثل الرغبة في فعل الخير، والضمير الذي يمنع المرء من الشر– مع قهر الجانب الضار الذي يحث على تحصيل الشهوات وتمكين الهوى. وقد جاء في تفسير القرطبي (رحمه الله) لآية سورة يوسف: وَفِي الْخَبَر عَنْ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ "مَا تَقُولُونَ فِي صَاحِب لَكُمْ إِنْ أَنْتُمْ أَكْرَمْتُمُوهُ وَأَطْعَمْتُمُوهُ وَكَسَوْتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى شَرّ غَايَة، وَإِنْ أَهَنْتُمُوهُ وَأَعْرَيْتُمُوهُ وَأَجَعْتُمُوهُ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى خَيْر غَايَة؟" قَالُوا: يَا رَسُول اللَّه، هَذَا شَرّ صَاحِب فِي الأَرْض؛ قَالَ "فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَنُفُوسكُمْ الَّتِي بَيْن جُنُوبكُمْ"[4]. ولولا مجاهدة النفس لما كان هناك داعٍ أن يستمر الإنسان على الأرض، لأنه لا معنى للاختبار في الحياة لانتهاء الفرد إلى أحد الأمرين، إما أنه لا تؤزه نفسه فلا يقع في المعاصي أبدًا، وإما أنه لا يتصدى لنفسه فيقع في كل معصية تقابله.

هناك مسألة من المُهم أن يعيها المرء، ألا وهي الآليات التي تحدث داخل الجسد في أثناء دفع النفس بالمرء إلى المعصية. بمعنى آخر، ما هو تسلسل الأحداث الذي يقع في الجسد، بداية من وسوسة النفس، إلى أن يسعى العبد إلى المعصية؟ فبمعرفة هذا قد يُبطل العبد تأثير النفس بكفاءة

---

[1] صحيح البخاري 4994.

[2] صحيح البخاري 5956.

[3] الفوائد لابن القيم 30/1.

[4] تفسير القرطبي 183/9–184.

أعلى إذ قد يوقف تأثيرها عند مرحلة من المراحل الأحداث. الأحداث باختصار هي أن النفس تعلم ما شهوات الجسد التي يميل إليها المرء تحديدًا، مثل حب السلطة أو الزنا أو غير ذلك، فتبدأ بالوسوسة إلى القلب عن طريق الإيحاء إليه مباشرة. للعلم، يجتمع ما تلتقطه الجوارح في القلب، فيُنشئ بها قاعدة معلومات حول مسألة، وتُضيف النفس عليها وسوسة التحريض، ثم يُصدر القلب القرار المبدئي –متمثلًا في صيغة مشاعر– برغبة الإقبال على المعصية أو بالإعراض عنها، إما بالانجذاب والحماس وإما بالخوف والانزعاج.

والقلب هو المحور الأول والأساسي الذي قد يوقف المعصية، لأنه قد يصد ويرفض اقتراحات وتسويلات النفس. فإن كان القلب معلولًا، بدأ القلب في تصدير الرغبة إلى العقل ليبدأ في التدبير للمعصية، والذي بدوره يُرسل الإشارات إلى الجسد لترجمة الرغبة إلى حركة وفعل. والعقل هو المحور الثاني الذي قد يوقف ما بدأته النفس من أحداث في الجسد، وهذا عن طريق تذكر الفوائد من ترك المعصية وعواقب ارتكابها مثلًا، أو عن طريق استصغار متعة المعصية، أو تقييم عدم إمكانية ارتكاب المعصية.

وهذه الأحداث مُستدل عليها من الكتاب والسُنَّة، فعلى أن الوسوسة تصل القلب (سواء كانت من الشيطان أو النفس) {الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ} [الناس 5]، والحديث "إِنَّ الشَّيْطَانَ يَبْلُغُ مِنْ الْإِنْسَانِ مَبْلَغَ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا شَيْئًا"[1]. واستدلال أن ما تتلقاه الجوارح يجتمع في القلب أُخذ من حديث "كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنْ الزِّنَا مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ"[2]. ودليل أن القلب محور الإقدام أو الإعراض عن المعصية، ويؤثر على باقي الجسد، يوجد في حديث "أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ"[3]. أما الدليل على أن العقل هو محور آخر في منع العصيان يوجد في الحديث الذي ذُكر سابقًا على أن القلم (المؤاخذة على الأفعال) يُرفع عن النائم والغُلام غير البالغ والمجنون، فقد رُفع التكليف عندما تغير عامل العقل وحده، بعدل الله ورحمته.

في بعض الحالات قد يوافق القلب ولكن يعترض العقل فيُوقف الإجراءات، والعكس صحيح (عندما يُجبر العبد جسده على المعصية وهو لا يشتهيها)، ولكن يكون هذا الوضع هو الاستثناء

---

[1] صحيح البخاري 1894.

[2] صحيح مسلم 4802.

[3] صحيح البخاري 50، جزء من الحديث.

وليس القاعدة، إذ إن العقل في العادة يتبع ما يرغبه القلب. وما نستنتجه من هذا هو أن إصلاح المرء لقلبه حتى يُصبح سليمًا أهمّ عامل جسدي في مقاومة المعصية.

ومن يُجادل أن هذا الترتيب معلول، مثل أن إشارات استقبال السمع والبصر وغيرها تذهب للعقل، وهو الذي يتَّخذ القرار ويُرسل الإشارات إلى باقي الجسد لإفراز المواد الكيميائية التي تُحدث السعادة والحركة غيرها، فهذا أمر صحيح من الناحية العضوية، ولا يتعارض مع ما قيل. لا مانع أن تذهب إشارات الجوارح الاستشعارية للعقل، وللقلب –سواء بالتوازي أو يُرسل العقل إلى القلب هذه المعلومات بعده–، ثم يأخذ القلب القرار المبدئي متمثلًا بإثارة المشاعر، بالحماسة أو بالنفور، ثم يرجع القرار إلى العقل الذي يتولى إدارة الأمر بعد ذلك، فيأمر بالتحرك وإفراز المواد المُثيرة لمزيد من المشاعر والحركة وإلخ. أفلم يمر أحدنا بموقف مُفاجئ فيشعر أن قلبه تأثر، بزيادة ضربات القلب أو أنه ينبض بقوة، وهذا قبل أن يأخذ قرارًا بعقله أو يتحرك؟

التقرب والتضرع والإخلاص إلى الله في الشدة مقابل النسيان والتكبر، وربما حتى الإنكار، في الرخاء.

قال الله تعالى {وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [يونس 12]، والمعقصد من قوله تعالى "الإِنسَانَ" أي الكافر، ولكن هذا الطبع لا يزال يُظهر نفسه حتى مع المؤمن، فكم من مؤمنٍ شغلته نعمة طلبها عن ذكر ربه؟ والمسرف هو من فرَّط في طاعة الله وعصى أمره، والمسرف لا يضر إلا نفسه، بالانصراف عن الخير وبالإسراف في المعصية. فذاك طبع الإنسان، أنه يُحب الاستكثار من المُتع والتباطؤ في مشقة الواجبات.

فكم قد أكون هزيلًا وغدّارًا إن لم أضبط نفسي، وكم قد أدعو أن أكون كريمًا آنذاك، لأن الله يكرمنى بأن يستجيب لي دعائي، ثم أشكره بأن أعصيه؟! ثم يكرمني ربي، ثم أعصيه مجددًا، مما قد يسوقني إلى التدني أكثر، ومع ذلك فإن الله يَصبر عليَّ لعلي أرجع، ويُكرر عليَّ كرمه! بل وبعد كل هذا فإن الله قد يعفو عني. اللهم إنك سألتني ألا أتعدى الحدود فلم ألتزم ولم يمنعني ذلك من طلب منك حاجتي، وعرفتني بحقك عليَّ بطاعتك فلم أوفِّ، ولم يمنعني ذلك من أن أتجرأ وأنتظر حقي منك، بل وأطلبه منك وأجزع إن لم توفّني حقي، فلا أجد عذرًا على غدري إلا أني ءأمل في طبيعة الحال بين العبد وربه، وأن تهديني وتشفيني من هذا، فأنا العبد وأنت الرب الذي لا إله إلا هو.

تخيل أخي أنك ستصنع معروفًا لأحد، وأنت الوحيد الذي تستطيع أن تساعده (بإذن الله)، ثم جاء إليك وساعدته؛ أرأيت إن خانك وخذلك ونكر المعروف، ثم يتجاهلك عمدًا بعد أن أخذ غرضه منك، ويكأنه استغلك؟ ألن تبغضه؟ فالمرء قد يكون كذلك... يدعو ربه ليكرمه، وبعد الكرم ينسى

احتياجه لله، بل وقد يشرع في معصيته!!! ما مدى ضعف وسفاهة من يفعل ذلك، فإن الله لا يحتاج إليَّ ولا إليك... ومع ذلك فإنه يستجيب لطلبنا وهو يعلم أننا لن نوفّي حقه! أليس ذلك برب كريم رءوف رحيم؟ سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهؤلاء الذين أسرفوا في الدنيا، أسرفوا في أوقاتهم الثمينة التي سيندمون عليها يوم القيامة. وقد يندم أهل الجنة على عدم ذكرهم لله أكثر، يتحسرون على فوات حظهم في جنة أعلى منزلة... فما بال أمثالي الذين لم يتقعاسوا فقط عن ذكر الله.... بل كانوا يعصونه في أوقاتهم؟

ومن أوضح الأمثلة على هذا الوضع هو الطالب في أثناء امتحاناته، فيدعو الله متضرعًا ويُتقن الصلاة، وقد يذهب إلى المسجد بغير عادته لأنه يحتاج إلى ربه في ضعفه، ويريد أن يشعر أن الله معه. ثم إذا ظهرت نتيجته حسنة فرح وينسى أن يحمد الله، ويعود لما كان عليه من إهمال العبادة، بل وقد يقضي فرحته بمعصية الله. أيطلب ويهجر العبد ربه كما يريد؟! سبحان الله على حال الإنسان عند الرخاء، فإنه يقلِب موازين المعاملة مع ربه إذ إن الله هو الغني عنا ونحن الفقراء إليه. وإن كانت النتيجة سيئة قد يتطاول عن حده بسؤال ربه "لماذا يا رب؟ ألم أدعُك؟ لماذا لم تستجب لي دعائي؟". ما أجهل ما قد يكونه الإنسان... ألا أستحيي من الله من مثل هذه الأفعال؟

إلمامًا بقضية هذا الباب، من راقب نفسه يجد أن النفس عبارة عن خليط من الشهوات والمشاعر، فيها ما هو مُصلِح وفيها ما هو مُفسِد. قال بعض العلماء إن النفس ثلاثة أنواع (أو ثلاثة أقسام، فإلى أيهم غلب وُصف المرء بها): النفس اللوامة التي تلوم صاحبها على التقصير والمعاصي، والنفس المطمئنة التي تسكن إلى ربها فتتحرى ما يأمر به الله لتُرضيه، والنفس الأمارة بالسوء التي تأمر صاحبها بتلبية شهواتها حتى فيما حرَّم الله.

ولكنّ النفس عامةً تميل أكثر باتجاه الشهوات، فتكون أكثر قابلية للتقاعس عن الواجبات وفعل المفاسد. وعلى هذا الأساس فإن النفس محل تُهمَة، كما قال ابن القيم: أما سوء الظن بالنفس فإنما احتاج إليه؛ لأنَّ حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش، ويُلبس عليه، فيرى المساوئ محاسن، والعيوب كمالًا، فإنَّ المُحبَّ يرى مساوئ محبوبه وعيوبه كذلك [أي محاسن]. ثم أجمل بخلاصة بليغة قائلًا: ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه[1].

[1] مدارج السالكين لابن القيم 191/1.

سيدرك المرء أن النفس تشتهي وتتمرد، وأن عليه تهذيبها ومقاومتها باستمرار. قد قال سيدنا أبو بكر الصديق في وصيته لعمر بن الخطاب حين استَخلَفَه (رضي الله عنهما): إن أول ما أُحذِّرك: نفسك التي بين جنبيك[1]. وقال الحسن (رحمه الله): ما الدابة الجَمُوح بأحوَجَ إلى اللِّجَام من نفسك[2]. وقال الغزالي (رحمه الله): إن النفس عدوٌ مُنازِعٌ، وجب علينا مجاهدتها[3].

ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله أن جهاد النفس أربع مراتب: حَمْلها على تعلم أمور الدين، ثم حملها على العمل بذلك، ثم حملها على الدعوة وتعليم من لا يعلم، ثم حملها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق؛ ويتحمل ذلك كله لله[4].

أما عن الوسائل التي تُساعد المرء في مجاهدة النفس، فمِن أهمّها: الدعاء إلى الله، الصبر، الصلاة، الصدق مع النفس، وجود الحافز (وهو التعلم عن الثواب والعقاب)، ومراقبة النفس ومحاسبتها (واللذان هما أساسيان للتمكن من إحجامها)، ومعرفة الآليات التي تتخذها النفس لجعل الجسد يرتكب المعصية.

لكن لننتبه، ينبغي مجاهدة النفس دون بلوغ اليأس من مجاهدتها، لأن اليأس له تأثير عكسي، ألا وهو ترك مجاهدة النفس. وما أُنزِلنا إلى هذه الحياة الدنيا إلا لنُختبر في المشقة المستمرة.

تعرَّف على معنى الحياة وخلاصة الدنيا

رحلتنا في الحياة ببساطة هي مجموعة من الاختيارات، والدنيا هي مكان الاختبار، فخلاصة الحياة في الدنيا هي اختياراتنا في الاختبار. قال الله تعالى {مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاء لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (18) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا} [الإسراء 18-19]؛ {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ} [آل عمران 145].

لكن المشكلة تكمن فيمن يختار طريق المتعة العاجلة، أي الطريق السهل في الدنيا الذي لا يتطلب المسؤوليات والجهاد، فيكون جزاؤهم كما قال تعالى {مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ

---

[1] جامع العلوم والحكم لأبي الفرج بن رجب الحنبلي 172.

[2] إحياء علوم الدين للغزالي 71/3.

[3] إحياء علوم الدين للغزالي 65/3.

[4] زاد المعاد في هدي خير العباد لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي.

إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لاَ يُبْخَسُونَ (15) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} [هود 15-16]. الآية الأولى تدل على عظمة الله، فإنه لا يُمهل إلا مقتدرًا، فالذين كفروا بالله والذين عصوا الله والذين افتروا على الله الكذب، كالذين حرَّفوا كتب الله والذين عابوا الله كالذين قالوا إن الله فقير (تعالى الله عما يقولون)، ما ظنكم أن الله فاعلٌ فيهم؟ أليس الله بقادر على أن يهلكهم أو يعذبهم عذابًا شديدًا في لحظتهم، ليُبين للناس أن الله شديد العقاب وبالغ القوة والقدرة والانتقام؟ نعم، ولكن الله يمهلهم، بل ويزيدهم من نعيم الدنيا، ولكن ينتابنا القلق فنتساءل: لماذا يفعل الله ذلك، وما الثمن؟

هذا لسببين رئيسيين، أولًا الإمهال يدل على شدة القدرة على تحصيل الحق، فإن الله يعلم أنه لا محالة لهم إلا أن يرجعوا إليه، إما بالتوبة قبل الموت أو للعذاب بعد الموت؛ فهذا من رحمة الله، أن الله يصبر علينا ترقبًا لتوبتنا. ثانيًا، الإمهال استدراج للكفار والمنافقين والفجار، وهذا من مكر الله بهم، إذ يرون أنهم ينجون بجُرأتهم وتطاولهم على الله، بل وازدادوا نعيمًا في الدنيا. فاللهم إنا نعوذ برضاك من سخطك، وبمعافتك من عقوبتك، ونعوذ بك منك، فإننا لا نُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك. إن الكافر الذي يسب الله مثلًا ثم لا يجد عقوبة من الله، يتمادى في طغيانه فيكرر ذاك ثانيًا وثالثًا، فيزداد إثمًا، بل وقد يزيد في طغيانه حتى يُفاجأ أنه قد مات بغتة، فيجد نفسه الآن واقفًا أمام الله غير مستعدٍ، بدأ تنفيذ الحُكم عليه {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [النور 39].

تخيل أخي، هذا الشخص الذي يسب الله يجد في لمحة بصر أنه عند الله، والله أمامه يحاسبه! ما بال حاله حينئذٍ؟ مِثل هذا قد مكر الله به حتى يكتشف أنه قد خدع نفسه وخُدع من الله، ولم يفق ولم يستوعب ذاك إلا لحظة الحساب، لحظة لا ينفع فيها إدراك ولا إصلاح! قل لي يا أخي أي طامة أكبر من هذه؟ فهذا كما جاء في الحديث الشريف "إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ"، ثُمَّ قَرَأَ {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}"[1]. وبناءً على هذه النقطة، وجب على التقي أن يزداد قلقًا عندما يُزده الله في النعم بعد أن يكون قد عصاه، فمن الوارد جدًّا أن يكون من مكر الله به، بل وقد يعني أن الله غير راضٍ عنه! ذاك لأن الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضةٍ، فإنه يسقي ويطعم من يكفر به، بل يشفيه من الأمراض ويُكرمه من متاع الدنيا!

وهناك مثال واضح لهذا في القرآن {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا} [مريم 77-80]. وهذا هو المكر المخيف، فإن الله أعطاه من النعم في الدنيا، بالرغم من أن الله كان يعلم أنه سيكفر بها بل ويتمادى في الافتراء، ثم يرجع هذا الشخص إلى الله

[1] صحيح البخاري 4318.

ليُحاسَب وحده بعد أن يسلبه الله كل ما كان لديه في الدنيا. وقول الله عز وجل "وَيَأْتِينَا فَرْدًا" يدل على مطلق القوة والتمكين، والقدرة فوق القدرة، ويكأن الله يستهزء منه لاغتراره بما عنده في الدنيا أن الله سيؤتيه مثله في الآخرة، ولكن الواقع هو أنه سيأتي لله فردًا ويُحاسب فردًا لا محالة. سبحان الله على سلطانه، اللهم سلّم سلّم.

وعلى الوجه الآخر من ميزان التقوى، هناك رجال يخافون مِن نِعم الله عليهم، خشية أن تكون ثواب حسناتهم وُفِّيت لهم في الدنيا. عن سيدنا أَنَسٍ قَالَ: اشْتَكَى سَلْمَانُ [الفارسي] فَعَادَهُ سَعْدٌ، فَرَآهُ يَبْكِي فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: مَا يُبْكِيكَ يَا أَخِي، أَلَيْسَ قَدْ صَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَلَيْسَ أَلَيْسَ؟ قَالَ سَلْمَانُ: مَا أَبْكِي وَاحِدَةً مِنْ اثْنَتَيْنِ: مَا أَبْكِي ضِنًّا لِلدُّنْيَا وَلَا كَرَاهِيَةً لِلْآخِرَةِ، وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا فَمَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ تَعَدَّيْتُ. قَالَ: وَمَا عَهِدَ إِلَيْكَ؟ قَالَ: عَهِدَ إِلَيَّ أَنَّهُ يَكْفِي أَحَدَكُمْ مِثْلُ زَادِ الرَّاكِبِ، وَلَا أُرَانِي إِلَّا قَدْ تَعَدَّيْتُ، وَأَمَّا أَنْتَ يَا سَعْدُ فَاتَّقِ اللَّهَ عِنْدَ حُكْمِكَ إِذَا حَكَمْتَ، وَعِنْدَ قَسْمِكَ إِذَا قَسَمْتَ، وَعِنْدَ هَمِّكَ إِذَا هَمَمْتَ؛ قَالَ ثَابِتٌ: فَبَلَغَنِي أَنَّهُ مَا تَرَكَ إِلَّا بِضْعَةً وَعِشْرِينَ دِرْهَمًا مِنْ نَفَقَةٍ كَانَتْ عِنْدَهُ[1] (اشْتَكَى أي مرض؛ ضِنًّا أي البخل والحرص على شيء؛ زَادِ هي الاحتياجات التي تُحمل للسفر).

ويُروى عن سيدنا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عَوْفٍ (رضي الله عنه) أنه أُتِيَ بِطَعَامٍ وَكَانَ صَائِمًا، فَقَالَ: قُتِلَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، كُفِّنَ فِي بُرْدَةٍ إِنْ غُطِّيَ رَأْسُهُ بَدَتْ رِجْلاهُ وَإِنْ غُطِّيَ رِجْلاهُ بَدَا رَأْسُهُ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ وَهُوَ خَيْرٌ مِنِّي، ثُمَّ بُسِطَ لَنَا مِنْ الدُّنْيَا مَا بُسِطَ (أَوْ قَالَ) أُعْطِينَا مِنْ الدُّنْيَا مَا أُعْطِينَا وَقَدْ خَشِينَا أَنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنَا عُجِّلَتْ لَنَا، ثُمَّ جَعَلَ يَبْكِي حَتَّى تَرَكَ الطَّعَامَ[2].

ولعل هذه الصفة قد أُشير إليها بالثناء في الآية {قَالَ رَجُلاَنِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُواْ عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} [المائدة 23]، أي أنه تكلم رجلان يخافون من نعم الله عليهما، وهذه إشارة إلى مدى تقواهما لأنهما يخشيان مكر الله بهما فيتساءلان عن سبب إنعام الله عليهما، والله أعلم. وما يشير إلى ذلك هو أن هناك آيات شبيهة في الموضوع تشير إلى إيمان الرجال الذين يأتون لنصرة دين الله، فمثلًا {وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ} [القصص 20]؛ {وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ} [يس 20]، فهما رجلان حملهما إيمانهما على تحمل مشقة الانتقال إلى أقاصي المدينة لتأدية واجب النصيحة.

وجاء أيضًا {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا

[1] سنن ابن ماجه 4094.

[2] صحيح البخاري 1196.

يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ} [غافر 28]. في الآية دلالة علي قوة إيمان الرجل، إذ بالرغم من أنه يخشى من أن يُعلم أنه مؤمنٌ فإن ذلك لم يمنعه من أن يُخاطر بالانكشاف عند مدافعته عن سيدنا موسى (عليه السلام).

توضيحًا لنقطة أنه لماذا وجب على المرء أن يقلق إذا كثرت نعم الله عليه سأضرب مثلًا. إني إذا أحببت شخصًا عاتبته إن أخطأ معي كي نتصالح ونتسامح ويرتقي هو، أما إن كان شخصًا لا أحبه فإني أُعرض عنه دون أن أُعاتبه، أو قد أزجره بعض الشيء، ولكن لا أعاتبه بتودد. ولله المثل الأعلى، إن أحبني الله عاتبني بعد معصيتي له بأن يسلب مني نعمة، أو يبتليني بشيء أكرهه بطريقة لطيفة فيها رأفة ليزجرني لعلي أنتهي وأندم فأرجع عن الخطأ، وهذا فضل من ربي عليَّ {وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} [البقرة، جزء من الآية 216].

والمرء منا يتكرر منه الوقوع في المعصية إذ إنه ليس معصومًا، فمن المنطقي أن العبد الذي يُحبه الله يتكرر عليه البلاء إذ تتكرر منه المعصية، والدليل على ذلك هو أن المؤمن مُصاب كما أشارت الأحاديث عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) "مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُصِبْ مِنْهُ"[1] (أي يبتليه الله)؛ "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[2]؛ "وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ"[3] (جزء من الحديث)؛ "وَمَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَمْشِيَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ لَيْسَ عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[4] (جزء من الحديث)؛ "مَا يَزَالُ الْبَلاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ"[5]. ولكن إن أكثرت من المعاصي فلن يحبني الله ولن يعاتبني، وإن لم يعاتبني ربي قد أتمادى في المعصية، فأجد نفسي في دائرة مُغلقة، قد أوقعت نفسي إذًا في مكر الله بأن يزدني من نعمه في حين أنه غاضبٌ عليَّ!

فاللهم أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه. ولعل أكبر دليل على كلامي هو الحديث الشريف الذي نقله أَبِو سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ، قال: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يُوعَكُ، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ! قَالَ "إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا الْبَلاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجْرُ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلاءً؟ قَالَ "الأَنْبِيَاءُ"، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ "ثُمَّ الصَّالِحُونَ، إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالْفَقْرِ حَتَّى مَا

[1] صحيح البخاري 512.
[2] سنن الترمذي 2319.
[3] سنن الترمذي 2320.
[4] مسند أحمد 1400.
[5] سنن الترمذي 2323.

يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلا الْعَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالْبَلاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ"[1]. فأين أنا من هؤلاء....

والمنهج الذي وضعه الله لنا في الدنيا، ومنطلق حُكمِه على الدنيا، قد نبَّأنا به الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله "أَلا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ مَا فِيهَا إِلا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ أَوْ مُتَعَلِّمٌ"[2]. هذه حقيقة الدنيا، فما بالي أتلهف عليها لتحصيلها؟ إذا كانت الدنيا ملعونة من الله، فكيف لي أن أحب وأُعلي من شأن الدنيا وأسعى وراءها بعد أن لعنها الله؟! لماذا أسعى وراء الحُطام؟ ولن أنال من التلهف عليها إلا أنها ستذلني، ولن تعطيني ما يشبعني من لذاتها وشهواتها، ولن تدعني أتمكن منها حتى أهلك وأنا على ذلك الحال. هذا بالإضافة إلى أخطر شيء، وهو البعد عن الله ونسيان حقوقه عليَّ بالرغم من مطالبتي بحقي عليه من رزق الدنيا. وذلك بلا شك هو الضلال المبين، والعيشة الضنك، واستحقاق اللعنة.

قد نبأنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) في حديثٍ عن حقيقة العلاقة بين العبد والدنيا، فيه من المواعظ الكثيرة والبالغة. قال (صلى الله عليه وسلم) "من أُشرِب حبَّ الدُّنيا الْتاط منها بثلاثٍ: شقاءٍ لا ينفَدُ عناه، وحِرصٍ لا يبلغُ غناه، وأملٍ لا يبلُغُ منتهاه؛ فالدُّنيا طالبةٌ ومطلوبةٌ، فمن طلب الدُّنيا طلبته الآخرةُ حتَّى يُدركَه الموتُ فيأخذَه، ومن طلب الآخرةَ طلبته الدُّنيا حتَّى يستوفيَ منها رزقَه"[3] [التاط أي التصق به].

فلماذا لا أبيع الدنيا، فإن بعتها فسأكون قد اشتريت الجنة! فهل ربح البيع؟ وأيهما أفضل؟ وهذه أسئلة يسهل الإجابة عنها ولا تحتاج للتفكير، وأغلب الناس إجابتهم واحدة، ولكن المشكلة تكمن في التنفيذ، فأين تصديق الإجابة بالعمل؟ فكل مرة أعصي فيها ربي فكأنما فضَّلت الدنيا على الجنة، وصدق الله في كتابه {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى 16-17]، فالإيثار يتمثل في العمل الذي يُراد به نيل الدنيا وفي نفس الوقت يُبعدني عن الجنة. على إثر هذا، ينبغي أن نعي أننا نؤثر الدنيا لأننا لم نعهد غيرها، أي لا نستطيع مُقارنتها مع متاع الآخرة، فهي بالنسبة إلينا كل المتاع بعيوننا، وهي كل شيء بالنسبة إلى البعض، وهذه معضلة كبيرة لنا أمام مقاومة الدنيا، يجب تخطيها بالعقل.

ومن هذا الكلام يأتي سؤال منطقي: هل يعصي الله عاقل؟ منطقيًّا الإجابة: لا، لأن من يُدرك ويستحضر عقاب الله على تلك المعصية لم يكن ليرتكبها. فإن سألني أحد "هل تحب الجنة أكثر من الدنيا" ليس لي أن أغضب منه، لأنه على حق في سؤاله إذ إن أعمالي قد تُشير إلى غير ذلك، ولكن

---

[1] سنن ابن ماجه 4014.

[2] سنن الترمذي 2244.

[3] الترغيب والترهيب للمنذري 176/4؛ وقال: إسناده حسن.

لي فقط أن أغضب وأحزن على حالي. فالعاقل لا يعصي ربه، وأنا للأسف أعصيه أحيانًا، فماذا أكون إذًا إلا سفيهًا مُسرفًا؟ هذا تمامًا كقول الصحابة (رضي الله عنهم) أن من عصى الله ولو عمدًا فهو جاهل، كما في قول الله تعالى {ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُواْ إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} [النحل 119]. وقد قال المُفسّرون إن ذلك لكل الناس، إذ كل من يعصي الله فهو جاهل، لأنه ظلم نفسه وجلب على نفسه عقاب الله. وهذا منطقي إذ إن الذي يعصي ربه يجهل مدى تبعات وعواقب المعصية، وجاهل لأنه قدّم الفانية على الباقية.

فإنما هي لحظات ضعف عندنا نعصي الله فيها، وهذا الضعف يجعلنا جهلاء بعد أن أبصرنا الحق من الباطل بنور الإسلام، ومسرفين بعد أن كنا عقلاء. والدليل أن الجهل المذكور في الآية يكون على العمد هو أن الذي يرتكب معصية ولا يعلم أنها معصية ليس عليه شيء من الوزر إن لم يتغافل عن السؤال في شرعية هذا العمل، لأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال "إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ"[1]. فالمخطئ، أيًّا كان خطأه، في أنه حاول تفادي المعصية ولكن وقع فيها بالخطأ، أو أنه أخطأ في تقييمه للعمل ولم يدرك أنه معصية وآتاه عمدًا، ليس عليه شيء من الوزر لأن الله يغفر له دون توبة (بكرمه ورحمته ورأفته تعالى علينا)، ولكن العبد الفطن الخاشي يتوب ويستغفر على ما لا يعلمه من باب الأدب مع الله والحيطة.

أما في آية سورة النمل، فالمعنى أن السيئات لا تُغفر إلا بعد التوبة والإصلاح، وهذا يكون في حال العمد مع العلم أنها معصية. ولكن من التمادي في العمل وهو لا يعلم إذا كان حرامًا أم حلالًا وأهمل في أن يسأل، مكرًا منه، فلا أمان له إذا اكتشف أنه حرام في الآخرة، لأن عليه وزر أنه قصّر في أن يسأل وتعمّد تجنب المباينة. ولله الحق أن يحمل عليه وزرًا آخر وهو وزر المعصية نفسها، فقُوبل مكر هذا العبد بأنه وقع في مكر الله والعياذ بالله، ومن وقع في مكر الله فقد ضاع وهلك لأنه لا ملجأ من الله إلا إليه، ولله أن يفعل به ما يشاء.

آخرًا، أختم بمقولة ثاقبة لسيدنا عمر (رضي الله عنه) وهو يُجمِل الكلام عن الحياة في الدنيا، فيها الخلاصة. قال: لو أن الحياة الدنيا من أولها إلى آخرها أوتيها رجل واحد ثم جاءه الموت، لكان بمنزلة من رأى في مَنَامِه ما يَسُرَّه ثم استيقظ، فإذا ليس في يده شيء[2].

---

[1] سنن ابن ماجه 2033.

[2] مدارج السالكين لابن القيم 264/3.